إدوارد سعيد

ترجمة: د. خالد غادري

في المكان الخطأ

مذكرات إدوارد سعيد



في المكان الخطأ

مذكرات إدوارد سعيد

في المكان الخطأ

مذكرات إدوارد سعيد

عنوان الكتاب : /في المكان الخطأ/ مذكرات إدوارد سعيد
اسم المؤلف : إدوارد سعيد
الترجمة عن الألمانية : الدكتور خالد غادري
الناشر : دار الفرقد
الطبعة الأولى : 2008

التنفيذ والإشراف : دار الفرقد
الإخراج الفني : رغداء حلوم
تصميم الغلاف : اسماعيل سويلم

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف : 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص.ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)
البريد الإلكتروني : info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

إدوارد سعيد

في المكان الخطأ
مذكرات إدوارد سعيد

ترجمة: د. خالد غادري

الفهرس

المقدمة	٧
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	٢٩
الفصل الثالث	٤٣
الفصل الرابع	٦٣
الفصل الخامس	٨٧
الفصل السادس	١١٥
الفصل السابع	١٦٣
الفصل الثامن	١٩٩
الفصل التاسع	٢٣٩
الفصل العاشر	٢٨٣
الفصل الحادي عشر	٣٠٩
ملحقات	٣٣٩
تعريف	٣٤١
ملحن، معلم، ناشط	٣٤٥
ملحق الصور	٣٤٩

المقدمة

(في المكان الخطأ) هو تقرير عن عالم ضائع ومنسي. قبل سنوات قليلة شخص لي الأطباء مرضاً مآله الموت، ما دفعني أن أخلف تقريراً عن حياتي التي بدأت في الوطن العربي الذي ولدت فيه وأمضيت سنوات طفولتي وأيضاً عن السنين التي أمضيتها في الولايات المتحدة حيث زرت المدرسة ثم المعهد العالي وبعده الجامعات.

أغلب الأمكنة والأشخاص الذين كنت أعرفهم لم يعد لهم وجود، لكن لازلت أحتفظ في أعماقي بتصورات دقيقة عجيبة.

ذاكرتي أثبتت أهميتها وفاعليتها لتبقي على فاعليتي وقدرتي العملية في فترات المرض والإرهاق.

تقريباً كل يوم وأنا منشغل في مواضيع أخرى لا تغيب عني الذكريات. مسؤولياتي التعليمية ومشاغلي الأخرى حاولت إبعادي عن مواضيع هذا الكتاب. على ما يبدو تنشيط ذاكرة الإنسان أفضل وأحسن إذا لم تبعدها أمور أخرى. رغم ذلك تطغى علي دائماً أوضاع الفلسطينيين السياسية رغم دراساتي عن العلاقة بين السياسة والخلقية، خاصة ما يتعلق بالأوبرا والشعر وشغفي في موضوع كتاب عن الفترات الإبداعية الأخيرة لـ: بيتهوفن Beethoven وإدورنو Adorno.

بعد إنجاز مسودة الكتاب سافرت إلى القدس والقاهرة. شاركت في القدس وعلى الخصوص في بير زيت في مؤتمر عن الأراضي الفلسطينية. ذهبت إلى القاهرة لأحضر مرافعة أنبغ طلابي في جامعة طنطا، ثمانين كيلومتراً شمالي القاهرة، للحصول على الدكتوراه.

شاهدت في فلسطين كيف أن شبكة المدن والقرى حيث كانت عائلتنا الكبيرة تعيش هنا كيف تحولت كلها إلى مناطق إسرائيلية، القدس، حيفا، طبريا، الناصرة، عكا تحول الفلسطينيون فيها إلى أقليات تحت سلطة إسرائيلية.

في أجزاء من الضفة وغزة يوجد نوع من الحكم الذاتي، لكن الجيش الإسرائيلي يسيطر على كل شيء، على الحدود والمعابر والمطارات. أحد السؤالات الروتينية التي كان الإسرائيليون يوجهونها لي: متى غادرت فلسطين؟ بالضبط بعد ولادتي لأن مكان ولادتي في جواز سفري الأمريكي هو القدس.

كان جوابي أني غادرت فلسطين في شهر كانون الأول ١٩٤٧ وأشدد على فلسطين، هل لك أقارب هنا؟ كان السؤال الثاني. كان جوابي لا أحد، ما كان يثير الألم والحزن في أعماقي بشكل ما كنت أتوقعه. في بداية ربيع ١٩٤٨ طرد أفراد عائلتي الكبيرة من كل الأماكن التي كانت تعيش فيها وتعيش منذ ذلك الحين في المنفى.

في عام ١٩٩٢ تمكنت وللمرة الأولى منذ طردنا، من زيارة البيت الذي ولدت فيه في القدس الغربية وأيضاً البيت الذي نشأت فيه والدتي في الناصرة وبيت عمي في صفد وهكذا.

كل المساكن يقطنها اليوم أناس آخرون ما يثير أعمق الأحاسيس ويجعل من المستحيل دخولها ولو للحظات.

خلال إقامتي في القاهرة في شهر تشرين الثاني ١٩٩٨ زرت جيراننا القدماء ناديا، هدى وأمهم السيدة غندي Gindy التي سكنت لفترة طويلة ثلاثة طوابق تحتنا في الطابق الثاني في شارع عزيز عثمان رقم ١. روت لي أن منزلنا القديم في نفس الشارع رقم ٢٠ غير مسكون وهو معروض للبيع. فكرت للحظات وجيزة بشراء البيت، لكني لم أشعر بتحمس لشراء بيت غادرناه قبل أربعين عاماً. بعد ذلك ناديا وهدى قالتا فجأة وقبل تناول طعام الغذاء أن هناك من ينتظرني في المطبخ. سألتنا هل تريد أن تراه، رجل قصير قوي البنية في لباس احتفالي وحطاطة على الرأس. فلاح من مصر العليا دخل الغرفة وقالوا له هذا هو إدوارد سعيد الذي تريد رؤيته وانتظرت ذلك بفارغ الصبر. تراجعت خطاه وقال: هذا ليس إدوارد. إدوارد طويل القامة ويحمل نظارات. تعرفت حالاً على أحمد حامد الذي كان لمدة ثلاثين عاماً "سفرجي" في عمارتنا. كان وفياً وخدوماً، صادقاً ومخلصاً ما جعلنا نعتبره واحداً منا. وحاولت إقناعه بأني إدوارد الذي تغير بفعل الكبر والمرض بعد ثمانية وثلاثين عاماً من الغياب. وفجأة تعانقنا وبكينا لسعادة اللقاء وحزنا على السنين الضائعة.

حدثني كيف كان يحملني على أكتافه، كيف لعبنا في المطبخ، كيف احتفلت العائلة بعيد الميلاد ورأس السنة وهكذا. دهشت أنه يتذكر كل منا السبعة الوالدين والأبناء الخمسة، والعمات والأعمام وأولاد وبنات العم حتى الجدة والجيران. رجلٌ مسن يقضي حياته التقاعدية في ادفو بالقرب من أسوان يتدفق الماضي في أحاديثه وكيف يعود الماضي متجسداً في الذكريات، كم هو ثمين وغالٍ.

هذه المقابلة التي تمت صدفة أكدت لي لاحقاً قيمة هذا الكتاب كتقرير صحفي عن تخبطات السنوات الماضية في الشرق. أنقل فيه ما أمكن من السنوات قبل سنة ميلادي ١٩٣٥ حتى عام ١٩٦٢ قبل إنجاز مسودة الدكتوراه لحصولي على الـ: Dissetation[1] أحداث حياتي في ظل الحرب العالمية الثانية، ضياع فلسطين، قيام إسرائيل، نهاية الملكية في مصر، سنوات جمال عبد الناصر، حرب عام ١٩٦٧، نشوء حركة المقاومة الفلسطينية، الحرب الأهلية في لبنان، ومحادثات السلام في أوسلو. كل هذه الأحداث تلعب دوراً غير مباشر في حياتي، ولو ظهر لها بين الحين والآخر لمحات خاطفة.

بالنسبة لي كمؤرخ هو الشعور أني أنقل اختبارات في مجال بعيد جغرافياً، بل لغة أخرى. كل يعيش حياته بلغة أعطيت له لهذا يعطيها ويتذكرها باللغة نفسها.

الشق الذي حدث في حياتي كانت خطوطه بين اللغة العربية لغة ولادتي واللغة الإنكليزية لغة العلم ولاحقاً لغة العمل والتعليم كأستاذ جامعي. لهذا لم يكن من السهل نقل الأحداث من لغة الحدث إلى لغة أخرى. هذا ما عدا الاختلاط والتداخل الذي حصل بين اللغتين. لهذا كان من بالغ الصعوبة نقل الخبرات من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزية على سبيل المثال التفريق بين الخال والعم الذي لا يوجد في اللغة الإنكليزية، لكني أكدت على إبرازها لأنها لعبت دوراً هاماً في حياتي.

1 أطروحة للحصول على لقب أستاذ جامعة

إلى جانب اللغة هناك الجغرافيات التي تسيطر أيضاً على ذكرياتي وخاصة الوداع، الوصول، السفر، المنفى، حنين الوطن، الانتماء والسفر بحد ذاته.

كل الأماكن التي عشت فيها القدس القاهرة لبنان الولايات المتحدة لها تشابك معقد صاحبني في نموي، في تكويني الشخصي، وللمدارس مكانة خاصة في هذا التشابك. كوني مُدرسِاً كان من الطبيعي أن يكون للمدارس هذه المكانة في ذكرياتي.

من الطبيعي أيضاً أن يكون للأصدقاء والمعارف من تلك الحقبة مكانة خاصة في حياتي أكثر من زملاء الدراسة في المعاهد والجامعات الأميركية.

أتساءل لماذا هذا التأثير البالغ والذي أحاول تقديمه للقراء بعد حدوثه بخمسين عاماً.

أعتقد أن ما يدفعني لذلك هو رغبتي في تجاوز الهوة العميقة التي تفصل بين حياتي الماضية وحياتي الحالية. كوني أعترف بذلك ليس للمناقشة أو الاسترسال بل لأنها الحقيقة بعينها.

أغلب الأشخاص الذين سوف أتعرض لهم مازالوا على قيد الحياة وأتوقع عدم موافقتهم أو رضائهم على ما أسرد لاحقاً. قصدي هو شرح الوقائع والحقائق كما هي وليس استرضاء الآخرين وتأييدهم، أريد وصف ذكرياتي دون تحريف وتزيين كما ألفتها. أنا وحدي المسؤول لما أرى وأذكر وليس من حق أحد تصور تأثيره على مجرى حياتي وختاماً آمل أن يبدو بكل وضوح إنني لم أرد أن أكون محدثاً أو روائياً بل نقل الأحداث كما كانت.

الفصل الأول

في كل العائلات يُصنع الأطفال ويُبتدع الآباء ولكل قصته وشخصيته، مصيره ولغته، وكيف وجدت في عالم الوالدين وكيف تأقلمت مع أخواتي الأربعة كان دائماً مقلوباً.

هل كان ذلك يتعلق بسلوكي وشخصيتي بل دوري، هذا ما شغلني طيلة شبابي ولم أصل إلى نتيجة. أحياناً كنت أرفض الحلول الوسط وكنت فخوراً بذلك. من ناحية أخرى بدا لي أني معدوم الشخصية، كنت دائماً خائفاً، غير واثق من نفسي، عديم الإرادة.

نبع ذلك من الشعور أن لا مكان أو حاجة لي. قضيت خمسين عاماً لأتعود على "إدوارد" أو بالأحرى أن لا أشعر معه بالحرج، اسم انكليزي طفيلي الذي ربط باسم عربي قح لا ضير فيه. كما قالت لي أمي اسم أوعز إلى الأمير والبيس Wales الذي برز في عام ولادتي ١٩٣٥ وسعيد هو اسم جمع من الأعمام وأولاد الأعمام. لكن هذا التفسير أضاع معناه حيث لم أكتشف جدوداً يحملون هذا الاسم وحاولت دمج الاسم الدخيل بالاسم العربي. لعدة سنوات تجاهلت إدوارد وأبرزت سعيد وأحياناً قلبت الأمر أو لفظت الاسمين معاً بسرعة بحيث لم يفهم أحدهما، ما كنت لا أطيقه وفرض علي تحمله إدوارد سعيد ما أصابني بنرفزة عصبية.

وزاد الطين بلة في اقتناء هذا الاسم اللغة. لا أعرف اليوم أية لغة نطقتها أولاً العربية أم الإنكليزية وأية لغة هي لغتي. ما أعرفه أن اللغتين طغتا على حياتي، برزتا معاً أكملت الواحدة الأخرى واندمجتا. كل لغة على حدة يمكن أن تكون اللغة الأم وفي الواقع لا هذه ولا تلك. يعود ذلك إلى والدتي التي تكلمت معي تارة بالعربية وأخرى بالإنكليزية رغم أنها كانت تكتب دائماً باللغة الإنكليزية مرة بالأسبوع طيلة حياتها وكما فعلت أنا تجاهها، بعض الكلمات التي كانت تنطقها مثل: تسلملي، مش عارفة شو بدي أعمل، أو ربما كانت كلها كلمات عربية ولا أذكر أني شعرت يوماً بالحاجة لترجمتها أو عرفت معناها وعلى الأخص تسلملي. كانت هذه الكلمات قطفات من إشعاعها توجت بالكلمة العذبة "يا ماما".

كلماتها العربية طعمت بالإنكليزية وخاصة عندما كانت تلفظ اسمي: ادواد بدلاً من ادوارد. ولازلت أشعر بطنين كلماتها وخاصة "ادواد" عندما كانت تناديني عند ما يحين وقت إغلاق حديقة السمك في الزمالك. كنت أفضل الاختباء لأسمع نداء اسمي ولأشعر أني مرغوب فيه وهناك من يسأل عني وتجاوبت حين لم أعد أطيق وحدتي. لغتها الإنكليزية كانت تتمتع بطابع خاص تطغى عليه خصائص اللغة العربية اللغة الأم لوالدتي.

في الخامسة من عمري تأكدت أني شقوة، كسول، غير منضبط في المدرسة ما كنت أقابله بفخري بإتقاني اللغة الإنكليزية. كانت الوالدة تقول" مامي لا تحبك لأنك غير عاقل" كنت أجيب "لكن العمة ميليا تحبني". بخيبة أمل وحزن.

العمة ميليا كانت غير متزوجة ودللتني عندما كنت صغيراً. أمي تجيب "كلا العمة ميليا لا تحبك" — أرد عليها صالح يحبني (سائق العمة ميليا السوداني).

يومذاك لم يكن عندي أي تخيل من أين اكتسبت والدتي اللغة الإنكليزية وما هو انتسابها القومي ودام هذا الحال سنوات طويلة حتى دخولي المعاهد العليا.

في القاهرة، حيث نشأت، كانت لغتها العربية لهجة مصرية طليقة. وفي انطباعاتي لم تكن لهجتها شامية وهو نفس الانطباع لدى معارفنا القاهريين. كان المصريون يطلقون وصف "شامي" على العرب من سوريا التاريخية بما فيها اليوم سوريا ولبنان، الأردن وفلسطين. وبعكس والدي كانت تتقن اللغة العربية الفصحى. ولدت في الناصرة وانتسبت في بيروت لمدرسة داخلية ثم التحقت بمعهد عال. كانت فلسطينية رغم أن والدتها منيرة لبنانية. ما تعرفت على جدي، والد أمي لكني علمت أنه كان رجل دين في الكنيسة البابتيستيه في الناصرة رغم أنه ينسب إلى الناصرة عبر تيكساس.

كل هذه التعقيدات والتشابكات ما استطعت أن استوعبها ولماذا لم تكن أمي إنكليزية عادية؟ هذه التناقضات صاحبتني طيلة حياتي وكم تمنيت لو أني كنت عربياً، أوروبياً أو أمريكياً، مسيحياً أرثوذكسياً، مسلماً أو مصرياً تاماً وهكذا.

وصلت إلى النتيجة أنه أمامي خياران كانت الأسئلة "ماذا أنت؟، أليس سعيد اسماً عربياً؟ هل أنت أمريكي؟ دون اسم أمريكي ودون أن تقيم يوماً في أمريكا، كيف تعيش هنا حيث ولدت في القدس، أنت بالطبع عربي لكن أي عربي، بروتستانت.

لا أذكر أن رداً ما على جملة هذه الأسئلة كان مرضياً. تذكرت تصميم والدي عندما يقول أنا أمريكي، كان أمريكياً لأنه عاش في أمريكا وخدم

بالجيش الأمريكي أثناء الحرب العالمية الأولى. هذا الخيار لم يقنعني وما كان بوسعي أثناء الحرب وأنا أزور مدرسة إنكليزية في القاهرة، القاهرة التي تعج بقوات الاحتلال الإنكليزي أن أتفوه بذلك.

وحين يلح السؤال كنت أفقد ثقتي بالنفس. أما الخيار الثاني فقد كان أقل نجاحاً إذ كان علي أن أفصح عن كل الخفايا وأرتبها وكيف ذلك والمعلومات تنقصني؟ المصاعب بدأت عند الوالدين، بالماضي وبأسمائهم. والدي وديع اسمه آلي وليام. ولد في القدس في عام ١٨٩٥ لكن والدتي ترجح عام ١٨٩٣ ولم يفصح لي عن معلومات أستفيد منها. وما أعرفه أنه كان في الأربعين من عمره عندما ولدت. كره القدس رغم أننا عشنا طويلاً فيها وقال بتكرار إنَّ القدس تذكره بالموت. والده كان ترجماناً وكونه يتقن اللغة الألمانية، رافق القيصر الألماني فيلهيلم في زيارته لفلسطين وما كنت أعرف اسم جدي وكانت والدتي تسميه أبو أسد واسمه العائلي إبراهيم. لهذا كان اسم والدي في المدرسة وديع إبراهيم.

لا أعرف للآن من أين أتى اسم سعيد ولن أستطيع معرفة أصله وقال والدي أن جدي كان قاسياً معه ويضربه، سألته كيف كنت تتحمل ذلك، قال كنت أركض بعيداً. جدتي والدة أبي بقيت لي شكلاً مجهولاً، كان اسمها العائلي شماس اسمها الأول Hanne هاني وكما روى والدي كانت اقنعته أن يعود لفلسطين عام ١٩٢٠ من أمريكا بعد ما كان غادر فلسطين في عام ١٩١١ لأنها أرادت أن يكون بقربها. يكرر والدي ندمه للعودة إلى الوطن رغم تأكيده أن سر نجاحه، اهتمامه بوالدته وأنها كانت تدعو له الله أن يحول الطرق التي يمشي عليها إلى ذهب. لم أر صورة لها، لكن في مخيلتي صورة عنها.

والدي قال على الأولاد حب الأمهات والتفاني من أجلهم، لكن الحب قد يغير مجرى حياة الأولاد. والدي أراد أن يبقى في الولايات المتحدة ويصبح محامياً.

هذا كل ما عرفته عن جدتي والدة أبي. أنا على ثقة أن قصة العائلة في القدس طويلة وحافلة بالأحداث. استنتجت ذلك من عمتي نبيهة والتي تعطي أولادها صورة حية عن القدس. في وقت لاحق سمعت عن اسم خليفاوي الذي ينسب كأصلنا العائلي. لكن كما أعلم أن الاسم ينسب إلى مدينة الناصرة. في منتصف الثمانينات وقعت في يدي خارطة عن تاريخ الناصرة وورد فيها اسم خليفي ما جلب لي كما هائلاً من أولاد العم، لكن دون أن يكون لذلك تأثير يذكر. وكما أعلم زار والدي مدرسة سان جورج في القدس وتميز بمهارته بلعب كرة القدم ولعب "الكريكيت". وكان والده ألح عليه بمغادرة فلسطين ليتملص من الخدمة العسكرية في الجيش التركي، ما أنقذه من أن يكون ذخيرة في الحرب التي جرت في بلغاريا في عام ١٩١١. لم يخبرني والدي عن هذا الماضي وكأنه يفقد كل معنى وكل ما يهم أنه زوج هيلدا ومواطن أمريكي. وكانت تعاد دائماً قصة وصوله إلى الولايات المتحدة. وما ترك انطباعات لدي أن والدي استطاع إخفاء الكثير من أحداث الماضي طيلة الستة والثلاثين عاماً التي عشتها معه حتى وفاته في عام ١٩٧١.

عشرون عاماً بعد وفاته بدا لي جلياً أننا جئنا إلى الولايات المتحدة في نفس السن، وأربعون عاماً الواحد بعد الآخر. والدي وصديق له تحت اسم "بالورا" دون أن أعرف الاسم الأول، سافرا من حيفا إلى بورسعيد ومنها إلى ليفربول.

بقيا في ليفربول ستة أشهر قبل أن يمتطيا باخرة ركاب أمريكية إلى نيويورك.

أول مهمة لهم كانت تنظيف الـ: عيون البل[1] ونظفوا كل شيء ما عدا عيون

---

1 عيون البل هي أغطية مصابيح كبيرة لا أعرف اسمها باللغة العربية.

الـ: بل لأنهما ما كانا يعرفان ما هي عيون البل، ما أغضب المسؤول ودفعه أن يفرغ سطلاً من الماء على أرض الباخرة ويطلب منهما تنظيف الأرض.

ثم عمل وصديقه بالورا كعمال في المطعم في خدمة الزبائن. لدى الوصول إلى نيويورك لم يكن لديهما أوراق رسمية، وبحجة واهية استغلا فرصة وهربا من الباخرة ليمتطيا أول حافلة ترام دون أن يعرفا الهدف. قصة أخرى يرويها والدي عن مسابقة سباحة لاتحاد الشباب المسيحي على بحيرة قرب نيويورك. وصل الهدف آخر متسابق لكنه حافظ على مبدأ "لا تتخلى" في وقت متأخر. كنت في الثلاثين من عمري ذكّرت والدي أن هذا المبدأ قد يعرقل الوصول إلى الهدف ويكون عثرة ولم نتكلم عن الموضوع مرة أخرى.

عمل والدي كممثل لشركة دهانات "أركو ARCO" من كليفلاند Cleveland ثم درس في جامعة Western Reserve.

عندما سمع أن الكنديين يهيئون سرية لإرسالها لفلسطين لقتال الأتراك في فلسطين عبر الحدود إلى كندا وتطوع لهذا الغرض ليظهر فيما بعد أن قصة الكنديين كانت فخاً وليست حقيقة هرب وعاد إلى الولايات المتحدة ليتطوع في الجيش الأمريكي في كامب غوردون Camp Gordon لكنه قضى الوقت في المستشفى لعدم تحمله البيئة والتطعيمات المختلفة. تلا ذلك رحلة مع الجيش الأمريكي إلى فرنسا حيث قضى معظم الوقت في الخنادق.

كان لدى والدتي صورتان له في الزي العسكري على إحدهما يظهر حاملاً وسام Croix delorraine ما يثبت خدمته العسكرية في فرنسا. حدثنا أنه جرح في هجوم بالغاز وتعرض للعلاج في مينتون Mentone ولما سألته عن خبرته في

الحرب قال إنه قتل جندياً ألمانياً رفع يديه مستسلماً قبل أن يقتله. هذا الحدث كما يروي كان يعرضه لأحلام مزعجة ولسنوات طويلة. بعد وفاته وجدنا صدفة أوراق صرفه من الخدمة العسكرية التي فقدت لحوالي خمسين عاماً. الأوراق ترى أنه كان يعمل في وحدة تموينية وليس قتالية، لكني أصدق رواية والدي.

بعد الحرب عاد والدي إلى كليفلاند وأسس متجراً خاصاً به للألوان، أخوه الأكبر أسعد عمل كبحار على باخرة تجارية. في ذلك الوقت ساعد الأخ الأصغر "بيل" الأكبر مالياً (تغير الاسم أثناء خدمته في الجيش الأمريكي). أرسل للوالدين نصف دخله. أسعد كان هدد بيل بالسكين، كان يطلب المزيد من المال من أخيه الأصغر الذي كان أنجح مالياً؛ لأنه كان يرغب بزواج امرأة يهودية وظهر فجأة في فلسطين ليغادرها كما دخلها ودون طلاق كما روى والدي حسب اعتقاده. ولم يبقَ في ذاكرة والدي من السنوات العشر في أمريكا إلا القليل ما عدا حبه لكاتو التفاح وبعض التعابير مثل:

Hunkydory big boy

وأكثر تأثيراً كان عزمه على التحقيق الذاتي، عندما ناقشنا قضية فيتنام انسحب بكل هدوء قال إن كان حقاً أو باطلاً إنه وطني (يقصد أمريكا)، من أصدقاء أو معارف من ذلك الوقت لم يكن أبداً موضع حديث. كان في مذكراته قدر ضئيل من حياته العسكرية من سنوات ١٩١٧/١٨ . بعد وفاته تساءلت إذا كان قد ترك امرأة وأطفالاً في أمريكا مثل أسعد. طابعه في الحياة كان له تأثير بالغ على حياتي. بعد أمريكا أخذت حياته طابعاً آخر، وليام ا. سعيد سابقاً وديع إبراهيم عندما عاد في عام ١٩٢٠ لفلسطين كمواطن أمريكي قوي العزيمة

ورجل أعمال ناجح بروتستانتي من سكان القدس ثم القاهرة، هكذا كان كما عرفته. عن علاقاته الماضية بابن عمه بولس وزوج أخته نبيهة لم أكن أعرف شيئاً رغم أن بولس كان مؤسساً لـ: Palestine Educational Company وتحولا معاً إلى شركاء حيث فتح وديع فرعاً في القاهرة وتمكن في ثلاث سنوات ١٩٢٩ من إدارة: Srandard stationery Company مع فرعين في القاهرة وآخر في الإسكندرية ما عدا وكلاء في منطقة السويس. رغم وجود تجمع شامي كان منخرطاً في العمل، يمارس الرياضة ظهراً مع صديقه حليم أبو فاضل وعرف بالانضباط والنشاط، نادراً ما روى والدي عن هذه الحقبة قبل زواجه في عام ١٩٣٢ ولم يتعرض لإغراءات القاهرة مما تقدمه للأجانب من بيوت دعارة وملاهٍ ليلية. عاش بعيداً عن هذه المغريات. روت والدتي كيف كان يعود للمنزل في باب اللوق يتناول طعام العشاء ثم يستمع إلى الموسيقا الكلاسيكية كما قرأ روايات: Waverley G. E. moore واريستوقراط.

فيما بعد كان يقرأ فقط كتباً عن الحرب والسياسة والدبلوماسية.

في عام ١٩٣٢، وكان رجلاً غنياً، تزوج امرأة شابة في الثامنة عشرة من العمر بينما كان هو في السابعة والثلاثين من العمر. وقضي ثلاثة أشهر معها في أوروبا في رحلة شهر العسل. الزواج توسطت به عمتي نبيهة عبر علاقاتها بالناصرة كما كان لعمة والدتي في القاهرة يد بالموضوع. ميليا بدر، العمة ميليا عانس كبيرة ذات شخصية قوية وسائقها السوداني صالح لعبا دوراً هاماً في طفولتي وكانت والدتي تعلم خفية بالتحضيرات لزواجها برجل أكبر يعيش في مكان ما بعيداً عنها وتحول إلى أب مثالي وزوج قدوة وطبع حياتي بأساليبه

التربوية المثلى. وجمع والدي بين صفات السيطرة والانضباط والاستقلالية وتبين فيما بعد أنه كان لتربيته لي جوانب إيجابية كثيرة ـ لكن مع بعض الجوانب السلبية المضرة. ما صَلَّحت بعضها في المستقبل لكني بقيت حتى العشرين من عمري تحت تأثيراته. فوجئت بالمستقبل أني تمكنت من الجمع بين خصاله وخصائصي الشخصية مما لم يعد له تأثير على تكويني.

ما صاحبني دائماً عزمه المترسخ أن يصمم المرء على الوصول لهدفه وأن لا يستسلم ويصر على تحقيق أهدافه. كل يوم كان بالنسبة لي تحدياً جديداً وادوارد كان يتغلب دوماً على الصعاب المعترضة. في كل مساء يستعرض ادوارد مسار اليوم ليتأكد أنه حقق القليل وعليه أن يبدأ كل صباح من جديد.

كانت والدتي في الخمسة والعشرين سنة الأولى من حياتي بالنسبة لي كل شيء وأقرب شخص لي. وحتى اليوم اكتشف في نفسي خصالاً وعادات منها، الخوف من المجهول والأرق مصحوبة بطاقة جسدية وروحية لا تنضب وميلاً لحب الموسيقى والجمال ولعالم تسوده العدالة وحب للآداب وللوحدة، للحظ والألم، لم أتعرف ولم أعرف غيرها يمتلك هذه الصفات الخلاقة تجاه عالمه ومحيطه. رغم تشابهنا احتاجت حبي وعطائي ورددتهما بضعفين أو ثلاثة أضعاف. لكنها كانت أحياناً تنطوي على نفسها وتبتعد، ما كان يثير الخوف في نفسي، ما أعيده للذاكرة بشكل يخيفني. بين ابتساماتها وغضبها وتعنيفها عشت كطفل تارة سعيداً وأخرى تعيساً. كانت تبرز لي امرأة شابة جميلة محبة غير معقدة حتى بلوغي سن العشرين حين كانت هي في الأربعين من عمرها. حين كانت تبدو بشكل آخر كنت أعزو السبب لي. بعد ذلك الوقت

تأثرت علاقتنا وكان الأمر مشابهاً لعلاقاتي مع أخواتي جين وجويس وجريس Jean, Jorce, Grace.

كانت تعزو ذلك لوفاة ابنها الأول في المستشفى في وقت قصير بعد ولادته.

والدتي كانت لا تروي في شبابي عن ماضيها وأصلها لأسباب أخرى تختلف عن أسباب والدي. ولدت في عام ١٩١٤ "المتوسطة من خمسة أطفال والأربعة الآخرون كانوا ذكوراً" وكانت علاقاتي بالأخوال متوترة. من كان يعرف والدتي في الناصرة كان يؤكد أنها كانت الأحب عند والدها. رغم وصفها له بأنه رجل طيب، كان بالنسبة لي بابتيست أصولي رجل دين دون لون.

والدتي أرسلت إلى مدرسة داخلية في بيروت، مدرسة أمريكية داخلية للبنات أو ASG مدرسة تبشيرية.

ما خَلّف عندها ارتباطاً ببيروت رغم القاهرة. هناك في يونيو كولج وما يسمى اليوم الجامعة الأمريكية كانت نجماً مميزاً ومتفوقة في أغلب المجالات، لم تهتم بالرجال "أثر المدارس الدينية". وبعكس والدي حافظت على الاتصالات برفاق الدارسة وكانت بيروت من أحلى أيامها وتتذكر ذلك باستمرار. قالت بعد وفاة والدي: وداد (إحدى صديقاتها) لم تكن صديقة فعلية لأنها لم تكن معي في المدرسة.

في عام ١٩٣٢ انتشلت من حياتها السعيدة في بيروت وعادت إلى الناصرة المملة حيث انتظرها زواج مخطط بوالدي. ولا أحد يتصور كيف تم هذا الزواج وكيف كلل بالنجاح. وعلى عكس والدي الذي التزم الصمت والكتمان قالت أو أفصحت لي أن العلاقة مع والدي كانت في البدء صعبة لكنها رويداً رويداً وعلى مدى أربعين عاماً تعودت. لم تكن مضطرة للعمل

أو الدراسة هذا ما عدا دروس في اللغة الفرنسية في القاهرة وزيارة بعض المحاضرات بفرع الآداب في بيروت في الكولج، روت لي أحياناً عن مرض فقر الدم الذي كانت تعانيه، ومن مرض دوار البحر عندما كانت تسافر بالباخرة، وعن نبل وصبر زوجها والدي في التعامل مع هذا الواقع. لم تتحدث يوماً عن الجنس بينما والدي تحدث بفخر عن الرجل كفارس والمرأة كفرس ومهارته كفارس ما يثبته إنجابه ستة أطفال منهم خمسة بقوا على قيد الحياة؛ ولا شككت أن زواجها من رجل متقدم في العمر عنها، رجل قوي هادئ كان بمثابة ضربة لها حيث انتشلها من حياة سعيدة في بيروت وأعتقد أن المال لعب دوره بالنسبة لوالدتها والإغراء بأن تنتقل إلى القاهرة المدينة الصاخبة وبقرب عمتها ميليا بدر. ميليا كانت أتت لمصر مطلع القرن وبنت لها كياناً. والد ميليا يوسف بدر كان راهباً بروتستانتياً في لبنان وأعتقد أنه توسط لها بالحصول على عمل مُدرِسة للغة العربية في الكولج الأمريكي للبنات في القاهرة والذي كان تبشيرياً.

كانت قصيرة القامة قوية الإرادة كما وصفها من كان يعرفها وسماها الأمريكان (ميس بدر) بدلاً من اللقب المعتاد "المعلمة ميليا". بإرادتها القوية تحدت العادات بعدم ذهابها إلى الطقوس الدينية بالمدرسة وتساءلت قبل وفاتها في عام ١٩٥٦ "هل يوجد إله".

ميليا كان لها دور مركزي في عائلة سعيد قبل وبعد ولادتي. لم نعش مع أقربائنا جنباً إلى جنب وليس بالقرب. عشنا في القاهرة لوحدنا بغض النظر عن ميليا ولاحقاً منيرة التي عاشت في بيتنا "جدتي والدة أمي". ميليا ساعدت والدتي في فهم نظام المجتمع المصري المعقد الذي يختلف كلياً عن غيره مما ألفته

هيلدا سواء في بيروت أو الناصرة. وكان لميليا الفضل في تقريبنا من أصدقائها غالبهم أقباط أو سوريون "شوام" وكانت عَلّمت بناتهم. لم تهتم بأخواتي لكنها دللتني بتحفظ دون مبالغة. سمحت لي على سبيل المثال توجيه أسئلة غريبة نوعاً ما: هل أنت متزوجة من صالح (سائقها) وسمحت لي أحياناً أن أعبث في حقيبتها.

بين ١٩٤٥ و١٩٥٠ زرتها مراراً بالكولج وشاهدتها أثناء عملها، ضعيفة وبطول لا يتجاوز المتر ونصف المتر كانت ترتدي دائماً ملابس سوداء، وغطاء رأس أسود، إشاراتها كانت دوماً مقتضبة وصوتها هادئاً وكان لها طريقتها الخاصة بالتعاطي مع مختلف طبقات المجتمع. كانت تخيف التلميذات والخدم كما أجبرت أهالي تلميذات من الطبقة العالية منهم على سبيل المثال ابنتان لرؤساء وزارة على قبول آرائها وأحكامها وأجبرت المعلمات الأمريكيات أن ينصعن بدلاً من أن تنصاع لهن، خلال ما يقارب خمسين عاماً بقيت بلا منافس كالملكة.

قبل ولادتي أنهت عملها كمعلمة لتصبح مديرة المعهد بفعل مؤهلاتها لتسيطر على التلاميذ المصريين والموظفين بشكل لم يتمكن منه أمريكي. العمة ميليا كانت تصطحب هيلدا والدتي إلى كل مكان سواء في إيصال الأطفال للمدرسة أو للتسوق، والمستشارة في كل أمورها في القاهرة. وظفت لها خادمات، معلمي بيانو، مدرسي باليت، أماكن خياطة الخ.

كانت تأتي كل يوم ثلاثاء عندنا لتناول طعام الغذاء وكان ذلك عادة مارستها قبل ولادتي واحتفظت بها حتى تقاعدت وذهبت إلى لبنان في عام ١٩٥٣ حتى وفاتها هناك في عام ١٩٥٤.

ولا أنسى طريقتها في تناول الطعام الغريبة بسبب وضعية أسنانها غير الصحيحة.

وما أذكره دائماً أنها كانت ترتدي قفازاً أسود أو أبيض حسب الطقس، تحلت بالسوارات دون خواتم بين أصابع يدها اليسرى كانت تحمل دائماً منديلاً تلعب به وعندما كانت تقدم لي بونبونات ما كانت تسميه باستيليا كانت تخرجها من المنديل بيدها اليمنى حملت الحقيبة أو ركزت فوقها. علاقتها بوالدي كانت دائماً قائمة على المحبة والاحترام على خلاف موقفه من أختها منيرة المهذبة الصبورة والتي كان يسميها "مرت عمي" وكان يعاملها بقليل من اللباقة. بينما كانت علاقته بإخوة زوجته تتميز بالمحبة والإخلاص منير، أليف، رايك وإميل عاشوا في فلسطين وكنا نزورهم دائماً. بعد ١٩٤٨ جاؤوا إلى القاهرة كلاجئين في حالة مزرية. كان أقرباء والدتي أكثر عدداً من أقرباء والدي وزاد عدد الأقرباء الذين كانوا يعيشون في لبنان. والدي كان يرفض الحديث عن عائلة سعيد ويقول عائلة الرجل هي شرفه وما كان يتأخر عن الحديث عن عائلة زوجته ويرى فيها عبئاً ثقيلاً بسبب الاستقراض ما جلب صعاباً لوالدتي. كان دائماً غنياً بعكس إخوة والدتي، منهم من استقرض مالاً من والدي ليتزوج. وآخرون منهم استقرضوا أموالاً لمشاريع فاشلة وكما علمت كانت المبالغ المستدانة من والدي لا تسدد. كان والدي يتحدث عنهم بازدراء، ما أثقل علاقاتي بهم في نموي.

سبب عدم الوفاق بينه وبين إخوة والدتي يعود إلى زمن الزواج وما كنت أعرف الأسباب وما علمته لاحقاً أن شقيق والدتي الأكبر باع عقاراً

للعائلة ليتزوج وبهذا نشل والدته الأرملة وأخوته الثلاثة وأمي هيلدا مصدر رزق الحياة. كنت أظن أنه من جملة شروط زواج والدي كان تكفله بإعانة والدتها منيرة عند العوز وكانت عاشت لمدة طويلة بيننا وكان نجاحاً بالنسبة لوالدي أن يقنع أحد أولادها أن يذهب معها مرة في الأسبوع لأكل البوظة هذه المعاملة للوالدة كانت تحزن والدي. كان ينظر إلى إخوة زوجته بازدراء ولا يكن لهم أي احترام وكنت أخشى أن تنتقل خصالهم لي مستقبلاً. موقف والدتي كان في غاية الحرج. كان عليها أن تلعب دورين الأول موقف تجاه الأخوة مميز تمليه تصرفاتهم وآخر في العائلة يتناسب مع الوضع الزوجي. نشأت متردداً بين المطيع والعاصي ضائعاً بين أخوالي ووالدي. أقسى ما قال لي والدي، "كنت في الثانية عشرة من العمر"، لن ترث شيئاً مني.

رغم ما كنت أراه طبيعياً. عند وفاته ترك كل ثروته لوالدتي. ما كنت أرى نفسي دون ماض سلبي وخوفي من السقوط في الهاوية جعلني أنظر إلى الحاضر. أنا أنا ماذا يعني أن أكون دوماً متوتراً محتاجاً للتصحيح، وهكذا أصبحت أنا إدوارد إنتاج والدي.

ادوارد كان الابن والأخ والصبي الذي ذهب للمدرسة وأخفق بإتباع القواعد، عليه أن يخلق نفسه لأن والديه فلسطينيان من أصول مختلفة وطباع مختلفة الذين عاشوا في القاهرة من أتباع أقلية مسيحية مع أقليات أخرى ليس لهم قدوة غير ماضيهم الفلسطيني.

مجموعة من عادات أمريكية، من كتب ومجلات خلال إقامة عشر سنوات لوالدي في الولايات المتحدة. والدتي زارت الولايات المتحدة في عام ١٩٤٨ تحت تأثير التبشيريين والتوجهات الاستعمارية البريطانية والتعليم المدرسي غير المتوازن بالتأقلم مع المحيط المصري الذي عاشوا فيه، أليس هذا كله المكان الخطأ.

الفصل الثاني

رغم أن أمي وأبي عاشا في القاهرة عام ١٩٣٥ فقد أنجباني في القدس لأسباب كثر الحديث عنها في طفولتي. في مستشفى القاهرة كانت والدتي هيلدا أنجبت طفلاً اسمه جيرالد لكنه تعرض لعدوى، وتوفي بعد ولادته. لتجنب كارثة جديدة سافرا في الصيف إلى القدس وأنجباني هناك في البيت بمساعدة قابلة يهودية اسمها بير ي ١/١١/١٩٣٥. طالما كنت صغيراً كانت مدام بير تزورنا لتطمئن على صحتي. كانت ألمانية الأصل ولا تتقن الإنكليزية وتتحدث بلغة عربية مكسرة و"ملخبطة" وكلما جاءت تُقَبِّل وتعانق ولا أذكر أكثر عنها.

حتى عام ١٩٤٧ كانت تنحصر إقامتنا في فلسطين على المحيط العائلي وكدنا نكون دائماً مجتمعين. على العكس كان الأمر في مصر. لأننا عشنا في مصر في وسط لا تربطنا به رابطة، وذكرياتي عن فلسطين كانت حية دائماً. هناك عشنا بمشاعر أخرى عميقة. كانت الحياة في بلدي فلسطين أكثر من طبيعية بين الأهل والأصدقاء البلد الذي ننتمي إليه، بيت الأهل كان في حي الطالبية في القدس الغربية الذي يقطن فيه فلسطينيون مسيحيون مثلنا كان عبارة عن فيلا بطابقين مع غرف كثيرة وحديقة لعبت فيها مع أولاد العم وأخواتي، أمام الفيلا كانت مساحة فارغة كنا نتمرن فيها على قيادة الدراجة

الهوائية. على بعد خمسمائة متر كانت هناك فيلات أخرى مشابهة قطنها أصدقاء أولاد عمي. اليوم حُولت الساحة إلى حديقة ويسكن الفيلات طبقة غنية من اليهود.

حين كنا نزور الخالات والعمة الأرملة نبيهة وبحضور أولادها الخمسة، كنت أركض وراء التوأم روبرت والبرت اللذين كانا يكبراني بسبع سنوات. بالنسبة لهما كنت ابن العم الصغير المطيع ليسخروه للعياط وشتم الآخرين، البرت اعتبرته أخاً أكبر. كنا نسافر إلى الناصرة في زيارة طويلة للخال منير وزوجته لطيفة الذي كان طبيباً وكان لهم صبيان وبنت بعمري. بلدة الناصرة كانت كما لو أنها من عالم آخر، لم يكن فيها كهرباء ولا سيارات وشوارعها ضيقة، لطيفة كانت تطبخ بمهارة، زيارة القدس والناصرة كانتا ترويحاً للنفس من صخب القاهرة. وكل ما أمضينا وقتاً أطول في القاهرة كنت أحلم بفلسطين رغم أن الإقامة في فلسطين كانت مؤلمة لأنها كانت مؤقتة وعابرة ما أثبته الزمن فيما بعد.

جغرافياً القاهرة تجسدت لنا في حي الزمالك يقطنه أجانب وأغنياء مصريون. والدي ووالدتي انتقلا إلى مصر لما كنت أنا في الثانية من العمر. وعلى عكس حي الطالبية حيث كان يَسكن أناس متجانسون من تجار وأغنياء وذوي مهن حرة، كان حي الزمالك غير متجانس وكان يشبه منطقة استعمارية في الضاحية، غلب عليه الطابع الأوروبي وما كان لنا احتكاك بالأجانب . كان لنا عالمنا الخاص، بيتنا كان يحوي خمس غرف ويقع في شارع عزيز عثمان رقم ١ أمام المنزل كانت توجد حديقة سميت حديقة السمك، حديقة صغيرة

فيها هضاب اصطناعية وطرق مشجرة وحوض مائي، كنا نلعب في الحديقة ونركض بين أطرافها على مسمع نداء والدتي، وقضيت أغلب أوقات فراغي فيها. كنت ألعب دور روبينسون كروزو Robinson Crusoe وطرزان برفقة والدتي وكنت أهرب منها وأختفي لأجعلها تبحث عني. في طفولتي زرت مدرسة GPS التي كانت تبعد قليلاً عن بيتنا مدرسة الجزيرة ريبورتاري Preparatory School ولممارسة الرياضة كان يوجد نادي الجزيرة الرياضي ونادي المعادي الرياضي. وكنت أمارس السباحة، وما كان مزعجاً التواجد ساعتين في عطلة الأسبوع في مدرسة GPS يتبع ذلك صلاة في الكنيسة التبشيرية آل سانت كاتيدرال All Saints Cathedral وفي المساء كنا نذهب إلى الكنيسة التبشيرية الأمريكية في الأزبكية وكمٌّ آخر من الصلوات وزيارة الكنائس، رافقني حتى سن البلوغ.

من الترويح عن النفس في سنواتي في القاهرة، كان ما سماه والدي "السفر" بعكس السفر يومياً إلى العمل. خلال ثلاثين عاماً كان والدي يمتلك أفخم السيارات الأمريكية فورد ثم بلايموس دي لوكس وفي عام ١٩٤٨ سيارة كرايزلار ضخمة.

والدي كان يوظف عدداً من السائقين، مع فارس وعزيز سمح والدي لي بالتكلم معهما فقط أثناء تواجده. أثناء السفر كان والدي يؤكد علي السكوت. في بدء السفر كان منفتحاً يتكلم معي حتى نصل إلى جسر بولاق الذي يربط الزمالك بالأرض ليلتزم بعدها بالصمت، يخرج بعض الأوراق من حقيبته وحين نصل إلى تقاطع أساف Assaf وميكسيد كورتز Mixed Courts حين يبدأ

المركز التجاري الأوروبي لم يعد يتكلم أو يستمع لي ويتحول فجأة إلى رجل أعمال ما أثار بي الهيبة والخوف من الرجل الذي سيطر وحرس حياتي.

في المساء كان والدي يأخذنا معه في السيارة دون سائق يضحك ويمزح ما رأيت فيه بالنسبة له ترويحاً عن النفس دون جاكيت ودون كرافات بقميص نصف كم، يأخذنا إلى أماكن ترفيه معينة، الأحد بعد الظهر إلى مينا هاوس Mena House والسبت بعد الظهر إلى باراغيس Barrages سد بناه الإنكليز في الدلتا - هناك كنا نقضي ساعات طويلة بين الأشجار الكثيفة، نأكل السندوتش والتفاح وفي أيام العطل كنا نسافر إلى الأهرامات نتجول نتناول الأطعمة مما جلبناه معنا نلعب ألعاباً مختلفة. مرة خمسة أشخاص وأخرى ستة وسبعة حسب تكاثر العائلة. كنا نتجنب المحلات العامة ما عدا مينا هاوس ومساء نعود خلال شارع جنوب باب اللوق Bab el – Luq حيث أغلب الأبنية الحكومية المضاءة بمصابيح النيون احتفالاً بعيد ميلاد الملك أو افتتاح البرلمان ما كان والدي يسميه: الوميناسيون Illumination.

هذه الحدود بين العادة وبين الرحلات المخططة كانت تبدو لي وكأنها تحمينا من عالم يكاد يبتلعنا، ويلحق الأذى بنا ويحصرنا في عالم ضيق صنعه لنا والدنا.

القاهرة كانت في بداية الأربعينات مكتظة بالسكان، خلال الحرب العالمية الثانية كانت تعج بآلاف الجنود من قوات التحالف. أثناء تلك الحقبة كانت توجد تكتلات كثيرة من الإيطاليين والفرنسيين والإنكليز إضافة إلى أقليات كثيرة من الأرمن واليهود، يونانيون وشاميون. كانت تقام دائماً ودون سبب استعراضات عسكرية. وعدني والدي أن يصطحبني إلى إحداها لكن هذا لم يتحقق. في

القاهرة كما في القدس شاهدت استعراضات عسكرية بريطانية أسترالية، نيوزيلاندية بأبواقهم وطبولهم وما كنت يومذاك أفهم لماذا ولمن.

مطاعم وملاءٍ ممنوعة الدخول كانت تعلق لافتات مكتوب عليها "مسموح لكل الرتب" وما كنت أفهم ذلك.. إحداها كان يقع بالقرب من مخزن قرطاسيات لعمي أسعد كان والدي أسسه له اصطحبني مراراً إليه، كان يقول أعطوا الصبي شيئاً ما ليأكل، وكنت أتناول ساندويتش الجبنة. كان يسمى سولد . في عام ١٩٤٣ كان والداي قد أتما مهمتهما التربوية على أحسن شكل. أثناء مغادرتي مصر إلى الولايات المتحدة تذكرت قول عمي "أعطوا الصبي شيئاً من الطعام" كان ذلك في عام ١٩٥١ . أربع سنين بعد ذلك توفي عمي في يافا وبهذا كانت نهاية متجر سولد Sauld,s .

في بداية الحرب كانت إقامتنا في فلسطين أطول. في صيف ١٩٤٢ استأجرنا بيتاً في رام الله شمال القدس وعدنا في شهر تشرين الثاني إلى القاهرة.

في هذا الصيف حصل تحول نوعي في حياتنا، عادة كنا نسافر بالقطار بين القاهرة واللد مع خادمين وكم من الحقائب فرحين مبتهجين بالسفر والعودة كانت أقل تعقيداً.

في ١٩٤٢ سافرنا، والدي ووالدتي أنا وأخواتي روزماري وجين، بالسيارة، بدلاً من السفر بعربة القطار الفاخرة من محطة باب الحديد في القاهرة هربنا بسيارة والدي بلايموس مع تعتيم المصابيح هرباً من القوات الألمانية المتقدمة، السفر عبر منطقة قناة السويس استغرق ساعات بسبب القوافل العسكرية البريطانية وكان علينا أن نتبع طرف الطريق لنخلي طريق

السفر للآليات والدبابات البريطانية التي تقوم بالهجوم المعاكس الذي انتهى في تشرين الثاني بمعركة العلمين.

تابعنا السفر خلال الليل بصمت كامل، والدي تابع السفر عبر طرق عديمة الإشارات عبر سيناء، بعدما عبرنا منطقة القناة دون صعوبات عبر جسر القنطرة. وفي منتصف الليل كانت النقطة الجمركية خالية في هذا المكان صادفنا السيارة المدنية الوحيدة التي كانت على نفس الطريق، كان يقودها رجل أعمال يهودي من القاهرة وحده مع زجاجات من الماء ومسدس، كان على معرفة بوالدي واقترح أن يأخذ إلى سيارته بعضاً من حمولتنا وفعلنا ذلك. وكل المعاملة بالمثل رجا أن يسافر خلفنا. ثم التوتر الذي ظهر على والدي لهذا الأمر. وهكذا تابعنا السفر واليهودي خلفنا. كان عبء والدي كبيراً أن يجد الطريق في ليلة شديدة الظلام ومسؤوليته تجاه عائلته إضافة إلى اليهودي خلفه.

وكنت قد سمعت في الشتاء صفارات الإنذار قبل الخطر وبعده خلال هجوم ليلي وقصف لطائرات ألمانية، حين لفني والدي بحرام وأدخلني الكاراج وشعرت بالخطر.

بسنواتي الست ما كنت أتفهم الوضع السياسي والعسكري. والدي كأمريكي الجنسية، تنبأ بالخطر خلال تقدم رومل باتجاه الإسكندرية ثم القاهرة. أحد جدران منزلنا كان مغطى بخرائط كبرى لآسيا، أفريقيا الشمالية وأوروبا. كل يوم كان والدي يخرز دبابيس حمراء وسوداء لتقدم القوات المختلفة وكانت الخرائط بالنسبة لي تنبئ بخطر بدلاً من معلومات.

وفجأة وجدنا أنفسنا عبر طرق القاهرة الفارغة باتجاه القدس. انطباعات والدي في صيف رام الله ما فارقتني. كان يجلس على البلكون يدخن بلا انقطاع

ووالدتي تقول ادوارد لا تحدث ضوضاء، ترى أن والدك يحتاج إلى هدوء وراحة. ذهبت معها نتمشى في رام الله ذات الغالبية المسيحية وكنت متوتر الأعصاب إلى جانب والدتي. البيت في رام الله لم يكن ليرضيني لكنه كان المكان الذي يحتاجه والدي في وضعه العصبي المتأزم. الحديقة خلف البيت كانت ترابية تحوي بعض أشجار التوت والسفرجل تحت البلكون مكان جلوس والدي، الطابق الأرضي كان مغلقاً ولأنه ما كان يسمح لي أن أمشي فوق التراب، بقي لي طريق حجري ضيق أمام البيت لأستطيع اللعب فيه بين المدخل والدرج.

في رام الله "ولم أكن أعي" سمعت لأول مرة التعبير "انهيار عصبي" مرتبطاً مع ذلك تعبير "سلام النفسّ من كتاب بنفس العنوان كان والدي يناقش أصدقاء بمحتواه. ظلام الصيف في رام الله أغلق الأفق في وجهي في السنوات الست والنصف من عمري. هل يخاف والدي من شيء ما، لماذا يجلس وحيداً ويفكر طويلاً، حاولوا إلهائي بأمور سخيفة أو أجابوا إجابات مقتضبة غير مفهومة. كان الكلام عن خوف من ضغط دم متصاعد، وكانت دلائل على أن والدي أرسل إبراهيم (آبي) وشارلي أولاد عمي أسعد إلى سمارا، خائفاً على حياتهم. قيل أن رجل أعمال يهودي من القاهرة حاول إغراءه بالمشاركة بمشروع مالي شبيه بغنى الحرب. لكن والدي رفض. هل هذه القصة تشرح تعبير: الانهيار العصبي، ما إن عدنا إلى القاهرة حتى بدت تغيرات في حياتي.

قالت والدتي أن ظروفاً حياتية صعبة قد مرت. قيل لي إني واع لكني كسول، غير مؤدب، الخ.. ذكروني بادوار آخر في الماضي "ادوارد بيانكو" ذي الخصال الجيدة قبل ١٩٤٢ وإني خنت تلك الخصال. ذكرتني الوالدة بأن

ادوارد الماضي بعمر سنة ونصف كان يحفظ ٣٨ لحناً ويغنيها، وكيف غضب ادوارد بشدة عندما عزف أبي (ابن العم) لحناً خطأً وأصر إدوارد على التصحيح. عندما عزف على الهارمونيكا لحن (جون بيل John Peel) وكيف نطق ادوارد جملاً كاملة صحيحة بالعربية والإنكليزية وكيف تمكن من القراءة في الثالثة والنصف من عمره، الرياضيات والموسيقى كانتا بالنسبة له كما هو الأمر بالنسبة لطفل في التاسعة من عمره، لكني لم أتذكر كل ما قيل، لكن صوراً في ألبوم من صيف سعيد في الإسكندرية أقنعتني. في شهر تشرين الثاني بعد معركة العلمين عدنا إلى القاهرة. ذهبت من جديد إلى مدرسة غي بي اس GPS، لكني كنت تلميذاً ذا مصاعب وبقي الأمر حتى بلوغي الخامسة عشرة من العمر. كنت دائماً أتلقى دروساً خاصة بعد المدرسة وفي عطل الأسبوع، ساعات رياضة، ساعات بيانو، ساعات ملاكمة، ساعات ركوب الخيل وهكذا كان الأمر صيفاً في ضهور الشوير، بعد ١٩٤٣ كنا نقضي عطلة الصيف في هذه القرية الجبلية في لبنان حيث كان والدي يشعر برابطة قوية بها أكثر من أي مكان في الكرة الأرضية.

والدي ووالدتي كانا دائماً في وسط الحدث في كل دقيقة تمر على حياتي ما ترك آثاره لنهاية عمري. كان نظاماً لا يترك لي لحظات خاصة بي ولا أستطيع التملص منه.

نظام ما أواجهه بالصمت وأحياناً بالميل ولمّا كنت أستطيع تحديد مكاني منه وحتى فترة وجيزة برز لي خطر ومهدد في نفس الوقت ترك في أعماقي الخوف من أن يسيطر على حياتي الخلل والفوضى، خوف يلاحقني حتى هذا اليوم.

هذا الوضع الخطر أخذ له شكلاً نفسياً وعملياً في القاهرة، سيطر على نموي وحياتي، لم أخرج مع بنات، لم يكن مصرحاً لي أن ارتاد المطاعم والأماكن العامة، دائماً أكد علي الوالدان أن لا اقتراب من الناس في الباصات أو الترام، أن لا أتناول الطعام أو الشراب في أماكن الوجبات السريعة أو على الشاطئ والمنزل هو الملاذ الوحيد الآمن.

والخيار كان فقط الانهيار كما شاهدته في والدي في رام الله في صيف ١٩٤٢.

بعد ذلك بدأ يضع أسساً جديدة للعمل والحياة الترفيهية وخاصة الترفيهية حيث بدأت ثروته تنمو منذ ١٩٥١ لم يعد إلى العمل بعد الظهر بل بدأ لعب البريدج الذي سرعان ما تحول إلى إدمان، لعب كل يوم بدون استثناء اللهم إلا إذا كان مسافراً. يأتي للبيت في الساعة الواحدة والنصف يتناول طعام الغذاء ثم ينام حتى الساعة الرابعة ليذهب بعد ذلك إلى النادي للعب البريدج حتى الساعة الثامنة وأحياناً يتنازل عن العشاء.

بعد صيف رام الله ظهرت في البيت كتب: Ely – Culbertson ولوازم لعبة البريدج وطاولة للعب. في كل يوم ثلاثاء يذهب والدي إلى: فيليب سوكي Philip Suoky الذي كان بيته قرب الأهرامات للعب البريدج. ولما كنا في ضهور الشوير لعب في الصباح بريدج في المقهى وبعد الظهر ومساء في البيت أو عند أصدقاء حصل تباعد بيننا عندما اكتشف أني لا أحب ولا أتقن لعبة البريدج، شغف بكل أنواع اللعب ما كان ليس شأني. حاول تعليمي لعب الطاولة دون نجاح، عندما شاهد كيف كنت أعد الحقول بالأصابع، انتزع الطاولة ووضعها في مكانها المعتاد، حاول مرات أن أشاركه اللعب لكنه كان

يلعب دوري أيضاً، كان علي فقط أن أجلس أمامه وأنظر كيف يلعب للطرفين لم يكن يوجد لعب ورق لا يعرفه، وما ترك أي لعب في الكازينو ما حاول أن يعلمني إياه. رغم ثلاثين مرة من محاولاته لم أتعلم لعب البوكر أو البقرة. في صيف عام ١٩٥٣ تعلمت بالمدرسة الأمريكية الداخلية لعبة "بول بيليارد" واعتقدت أني أستطيع إدخالها في ضهور الشوير إلى ألعابهم تردد والدي أعتقد أن مرجعه خشية الخسارة، وكان في الواقع يريد تشجيعي. قلت هكذا نلعب في الولايات المتحدة، إذا أصيبت الطابة من الجانب نسمي ذلك إنكليزياً، أدخل طابتين واترك الثالثة. شعرت أن والدي يخشى أن يظهر أمامي كمبتدئ أمام محترف. لكننا انتقلنا إلى البيليارد الفرنسي حيث توقعت فرصة أفضل لي.

لعب الورق تحول عند والدي إلى إدمان، إلى عادة حياتية. كان يرى في ذلك هرباً من الواقع من هموم الحياة، من التصادم مع الناس لعب الورق والبلياردو سيطرا على حياته وكما قال كان تعويضاً لهموم عام ١٩٤٢ وترفيهاً عن النفس، كرر القول مراراً، كان يقضي ١٢ ساعة يومياً باللعب في الصيف وأربع ساعات خلال أيام العمل. أشعر بالكآبة عندما أتذكر تلك الأيام، لم يكن يتكلم أثناء اللعب أو يشرح ما كان ساحراً في حركاته. كانت روتينية لا تتغير ورغبة منه أن أنظر إلى اللعب دون أن أستوقف ماذا كان قصده.

عندما كنت أجلس أو أقف إلى جنبه في السنوات بعد عام ١٩٤٢ كان يرى في ذلك عقاباً لسلوكي اللا مرضي وكان والدي يرى أن في ذلك العقاب ما يحميني من أذى أثناء وجودي خارج المدرسة. في الصيف في لبنان النظر إليه

ساعات طويلة وهو يلعب البريدج أو الطاولة، كان أذى روحياً بالنسبة لي. وديع خذ الصبي معك فهو يزعج، وعندما لم يكن وديع في البيت كانت ترسلني والدتي لقضاء حاجات ليست ضرورية أو تقول اخلع ثيابك واذهب للنوم. وفي السرير كانت الكتب أو الموسيقى، الأكل أو الشرب من الممنوعات. ما كان مسموحاً أن أغلق غرفة النوم من الداخل لتتمكن والدتي في كل لحظة ودون سابق إنذار أن تدخل غرفة النوم وتراقب ما أفعل. كانت في أحد الدروج ثلاثة أحجار شطرنج كنت أقذفها في الهواء ثم التقطها وهكذا تعلمت البهلوانية.

أساليب والدي التربوية أربطها بالعطل الطويلة التي أملت علي الفضول وحب التسلية، ما كان طابع حياتي في القاهرة، كان لدي فضول كبير تجاه الناس والأشياء، وكنت غالباً ما أتعرض لتفتيش فجائي عندما كنت أقرأ كتباً ممنوعة أو أبحث عن أشياء لا تخصني في كتب وأوراق أخواتي. يقال إن الفضول "يقتل القطّة لكني أردت الخروج من قفصي الذي شعرت أني أقبع فيه. عندما كان علي أن ألعب كرة القدم، حيث لم أكن ماهراً فيها أو ألعب دور الأخ أو الابن، كنت أشعر بسرور أن أبتعد عن تلك الأعراف وأقوم بأعمال منافية. كنت أتنصت أمام الأبواب، أبحث عن خفايا حجبت عني في كتب أو رسائل أو في دروج وخزائن لاكتشف ما هو غير مسموحٍ أن أعرفه. بدأت التمتع في اكتشاف آفاق جديدة بالقراءة.

محلنا التجاري في فلسطين كان يعتمد على بيع ونشر الكتب، أما في القاهرة فكان متجرنا بالشراكة مع ابن العم بولوس وأبنائه يقتصر على بيع اللوازم القرطاسية وأدوات المكاتب وبيع الكثير منها في القدس وحيفا، كلما زارنا أحد

أهداني كتاباً أغلبها كتب أطفال من نوع : A. Milne, Enid Blyton وغيرها تحوي معلومات مفيدة مثل Collins Junior of Knowledge

كان ذلك عندما كنت بين التاسعة والعاشرة من العمر ، كنت أبحث فيها عن خفايا أو زوجة الفقير أو بيرترام ميلز Bertrm Mills بالمهارات البهلوانية .

وما كنت زرت "سيركوس[1]" حيث أنشئ لأول مرة في القاهرة بعد أربع سنوات .

قرأت عن كاليتا ، ماكلن ممنوعاً علي ، حركاتها البهلوانية كانت تتعارض مع المألوف ما كان يثير تهيجي ، كيف كانت تستلقي على الظهر وعلى بطنها حجر كبير ورجل يكاد يكون عارياً ، كيف يحطم الحجر الضخم بضربة واحدة من مطرقته الضخمة ، كانت تمشي بقدميها العاريتين فوق شظايا الزجاج أو تجلس فوق بسامير ، أخرى تريها ببذلة سباحة مبتسمة تحمل تمساحاً بذراعيها .

كررت مراراً قراءة ما كتب عن كاليتا . كم حلمت أن أتعرف على كاليتا ، أن أنضم إلى طاقمها ، أرى الأشياء الغريبة عن قرب ، تحمل الألم ، وأبدع خيالي في قراءة كتابها حيث كنت أعيش عالمها لدرجة تصورت أني مؤلف كتابها ومهرت في خداع أهلي في قراءة تلك الكتب وكأني أقرأ كتباً مدرسية .

كان لي مصدران للحصول على كتب تماديت في تخطي حدودها ، كتب وأفلام قصص وأخرى إنجيلية كانت تقرأها لي والدتي وجدتي ، لميلادي السابع قدم لي كتاب مصورٌ عن خرافات يونانية . فتحت لي الكتب آفاقاً بعيدة وعالماً جديداً ، جاسون ، أرغوناوتون ، بيسيوس ، غورغو ، ميدوسا ، هيركوليس ووظائفه الاثنا عشر كانوا أصدقائي ورفاقي مثل أهلي ، أعمامي وأولاد العم .

---

1 سيرك.

عشت في خيالي معهم وتصورت أبراجهم وعرباتهم وتساءلت ماذا كانوا يفعلون عندما كانوا لا يقتلون أسوداً. مصدر خيالي الثاني كان أفلاماً وخاصة مغامرات ألف ليلة وليلة، جون هال Jon Hall ماريا مونتيز Maria Montez تورهان باي Rurhan Bey وسابو Sabu إضافة إلى سلسلة طرزان مع جوني فايسمولار Johnny Weismuller لما كان والدايَّ راضين عني كنت أكافأ بزيارة السينما بعد الظهر لفلم انتقته الوالدة بكل عناية. أفلام فرنسية وإيطالية كانت ممنوعة. أفلام هوليود كانت مسموحة فقط لدى موافقة والدي. كانت لوريل وهاردي Laurel, Hardy ابوت وكوستيل Abbott Costelio بيتي غرابل Betty Grable جين كيلي Gene Kelly لوريتايونغ Loretta Young وغيرها من الكوميديات مع كليفنون ويب كلوديت كوليبرت Cloudette Colbert وجينيفار جونيس Jennifer Jones ممنوعاً كان "صراع تحت الشمس".

اكتشفت لاحقاً شغفاً بأفلام طرزان ورفيقته بوحدتهم في الغابة تشبه حياتنا الانعزالية في القاهرة. لم أشعر بميل لأفلام علي بابا وسندباد.

من لحظات حياتي السعيدة كان يوم وقفت على منصة مرتفعة في سني الثامن عشر في مدرسة "المدرسة الأمريكية للأطفال في القاهرة" ونظرت إلى الأسفل لمجموع التلامذة وأنا ألقي قصصاً عن ياسون Jason وبيرسيوس Perseus.

تلذذت باختراع تفاصيل لم يكن لها أصل. تمتعت بحرية الكلام ما كنت أتمتع به بالمدرسة بالفرنسية والإنكليزية والتاريخ ولم أكن طالباً مجداً. في التمادي بخيالي برواية القصص أشعر بسعادة ما كنت أشعر بها في القاهرة، ثم

بدأت الاستمتاع بالموسيقى الكلاسيكية بدلاً من الألحان حين تعلمي العزف على البيانو والوالدة تجلس أمامي أو إلى جانبي مراقبة. عندما بلغت الخامسة عشرة من العمر كنت أشتري ما اختاره بنفسي من الإسطوانات وأزور الأوبرا برنامج القاهرة ما كان متاحاً لي لهذا اعتمدت على برنامج ب ب س BBC والإذاعة المصرية.

كنت أستمتع بالـ: ٤٥ دقيقة الأحد بعد الظهر في برنامج إذاعة BBC بفضل كتاب الأوبرا لـ: فيردي Verdi وبوشيني Buccini على عكس فاغنر Wagner الذي استمتعت بأوبريتاته عندما كنت في العشرين من العمر.

الفصل الثالث

معلمو المدارس يجب أن يكونوا إنكليزاً، هكذا كنت أتصور إذا صاحبكم الحظ وإلا لن يكونوا. زرت المدرسة "الجزيرة ريبورتاري سكول" من خريف ١٩٤١ حتى رحيلنا عن القاهرة في شهر أيار ١٩٤٢ ثم من بدء عام ١٩٤٣ حتى ١٩٤٦ تخلل ذلك إقامتان طويلتان نوعياً في فلسطين. خلال هذه الفترة لم أر معلماً مصرياً واحداً ولم يكن بين تلاميذ المدرسة عرب مسلمون. من جملة التلاميذ كان هناك أرمن، يونان، يهود مصريون، وأقباط وقليلٌ من التلاميذ الإنكليز من بينهم أولاد المعلمين.

من معلماتنا أبرز المديرة "مس بول" Mrs. Bullen وميس ويلسون Mrs. Wilson رئيسة المعلمات والمتواجدة دائماً وفي كل مكان.

المدرسة كانت في فيلا كبيرة في الزمالك، أنشئت يوماً ما للعيش في رخاء. الطابق الأرضي كان يحتوي عدة صفوف يدخل المرء إليها عبر قاعة كبرى، القاعة كانت تضم طابقين وسقفاً من الزجاج إضافة إلى غرف فوق صفوفنا. دخلتها مرة واحدة والسبب ما كان سعيداً. لم أكن أدري أن المديرة ميس بوللن التي كانت ابنتها آني Anne تتقدمني بصف، لم تكن معلمة، بل صاحبة الإجازة بفتح المدرسة. بعد الثورة في عام ١٩٥٢ فقدت

المدرسة رويداً صيغتها الأوروبية وتغيرت نهائياً بعد أزمة قناة السويس. اليوم هي عبارة عن مدرسة تعليم لغة، ولم يعد لها صلة بالماضي. ميس بوللن ظهرت وابنتها مؤخراً في بيت على رأس مدرسة إنكليزية الصبغة لكن دون نجاح كما كان الوضع في القاهرة حيث عزلتا بسبب الإدمان على الكحول. المدرسة كانت تقع في شارعنا، شارع عزيز عثمان بعد ثلاثة أبنية من بيتنا في الزمالك. وفي طريقي إلى المدرسة كان الوقت يفسح مجالاً للمناقشة مع المعلمين والأهل. كنت أريد الوصول متأخراً متكئاً لأشاهد الشارد والوارد ما يحدث على البلكونات من مشاهد. كون نهاري بدأ في السابعة والنصف، كانت اختباراتي من وحي المساء. غفير (حارس الليل) يرفع حرامه ويفتح عيونه مستيقظاً، والسفرجي الذي ينهض من نومه بكسل، في طريقه للسوق لشراء الخبز والحليب، سائقي السيارات الذين يُحضرون السيارات لأرباب عملهم. نادراً ما كان المرء في هذه الفترة يرى أُناساً آخرين ما عدا التلاميذ في طريقهم إلى المدرسة إما برفقة الوالد أو الوالدة باللباس الموحد بقبعة رأس باللون الفضي الغامق مع تجميل بلون أزرق كاشف.

كنت أصادف امرأة ذات شعر أحمر تصورت أنها تخلط السموم كما رأيت بعض الرجال الذين كنت أشك أنهم مخبرون وعلى أحد البلكونات شاهدت أناساً وكأنهم يحضرون فطوراً شامبانياً. خيالي عن حياة الآخرين في بيوتهم ما كان له حدود للعزلة والوحدة اللتين كنت أعانيهما في بيتنا. أعد على أصابع اليد ـ كم مرة رأيت بيت أحد زملاء المدرسة من الداخل.

ولا أذكر أن زملاء في المدرسة دخلوا بيتنا بقصد الزيارة أو غيرهم من النادي الرياضي. ومن هواياتي كان إبداعي الخيالي في تصور بيوت الآخرين، هل تشبه غرفهم غرفنا، هل الأمور متيسرة في مطبخهم مثل مطبخنا، ماذا يوجد في خزائنهم وماذا تحتوي وهكذا.

بلغ فضولي تصور فرش البيوت الأخرى بكل التفاصيل حتى الإضاءة والسجاد ورفوف الكتب حتى عام ١٩٥١ حين غادرت مصر معتقداً أن العزلة كانت من صالحي. في وقت لاحق تأكدت أن الانضباط الصارم الذي كان يفرضه والدايَ والعزلة، ما كنت أراه طبيعياً، كان في الواقع غير معقول وعزلة تامة.

في حالات استثنائية سُمح لي في يوم السبت الذهاب إلى "ريالتو" في شارع فؤاد العوال قرب الفرع التجاري "ب" متجر صغير احتفظ به والدي تباع فيه أقلام الحبر وحاجات فاخرة من الجلد، للمشي بأحذية خاصة فوق الجليد[1]. المكان كان ممتلئاً بالمحلات التجارية منها شيملا وسيكوريل ومتجر كبير لبيع الأحذية. المدرسة ابتدأت دائماً بأداء نشيد المدرسة في القاعة الكبرى All Things Bright and Beautiful ونشيد from Greenland Slcy Montains كانت تفضل على غيرها.

والسيدة (ميس ويلسون) تعزف البيانو وميس بوللن Bullen تقوم بدور مدير أوركسترا. أسنانها البشعة وشفتاها الضيقة أضفيا جواً قبيحاً على جميع الأطفال أمامها.

ثم كنا نتدافع كالبط إلى الصفوف لنتحمل ساعات من الصباح. معلمتي الأولى ميس وايتفيلد Whitfield والتي ما كنت أصدق أنها إنكليزية، رغم

---

1 تزحلق مشياً على الجليد لا أعرف ما يسمى باللغة العربية

ادعائها بذلك، قابلتها بالحسد لاسمها. ابنها روني Ronnie كان تلميذاً مثل أبناء المعلمين الآخرين. كل التلاميذ كانوا يكبرونني سناً. ما أوجد بيني وبينهم مسافة وأصابهم بالتعالي. كنا نقرأ في كتبنا عن سهول، وقصور، وملوك مثل جون، والفريد، وكانوت بوقار ما كان يطلبه منا المعلمون. ما كانوا يعنون بالنسبة لي شيئاً ما، غير أنهم خلقوا اللغة التي أتعلم بها أنا الطفل العربي، وما تطلب الاهتمام كان معركة هاستينج Hastings مع تفصيلات عن الإنجليين والساكسونيين والنورمانديين.

أعجبت بإدوارد الرجل الكبير بلحيته الطويلة وثوبه الأبيض مستلقياً على ظهره تبنى ما لم يكن عليه تبنيه وما استطعت أن أوجد ارتباطاً بيني وبينه رغم اسمنا المشترك.

هذه الدروس من تمجيد إنكلترا رافقتها تمارين بالكتابة والحساب والشعر، أصابعي كانت دائماً وسخة كنت أحب "في الماضي كما في الحاضر" أقلام الحبر ما يخلف بقعاً وشخوطاً وكانت ميس وايتفيلد تعنفني دوماً لهذا، أجلس وأتقن عملك بنظافة، كانت تقول لي: لا تكن كسولاً.

على اليسار إلى جانبي جلست آرليت Arlette تلميذة نموذجية وعلى يميني المجتهد دائماً ناكي ريغوبولوس، وحولي جلس تلاميذ بريطانيون بنات وصبيان بلباسهم البراق بعيونهم الزرقاء بلغتهم دون لكنة، في نطق بغاية الوضوح. لا أذكر كيف كان وقع نطقي باللغة الإنكليزية على من كان حولي وبدون شك لم يكن إنكليزياً صرفاً. كان المعلمون يتصرفون تجاهنا وكأننا كلنا إنكليز، لكن في واقع الأمر كان تصرفاً مصطنعاً وفقط أصلياً تجاه ديك، رالف

وديريك Dick, Ralph, Derek وليس نفس التصرف تجاه المحليين مثلي ومثل ميشيلين ليندل، داود عدس، ونادیا جندي.

Micheline Lindell, David Ades, Nadia Gindy

وقت الفرص كنا نقضيه في بهو معزولٍ عن شارع فؤاد العوال أحد الشوارع الفرعية من شارع عزيز عثمان حيث يقع بيتنا. شارع فؤاد العوال كان مكتظاً بمحلات بيع الخضار والفواكه، بالسير والصخب تعبره حافلة ترام وباص مواصلات، يربط حي بولاق بحي الزمالك.

ملعب المدرسة كان حداً فاصلاً بين الأحياء الشعبية والحي الاستعماري حيث كنا نعيش. قبل بدء الدروس كنا نصطف حسب الصفوف وأثناء الفرص سواء للدخول إلى الصف أو لتناول طعام الغذاء. وحتى يومي هذا يعني اليسار إلي المدرسة واليمين إلي شارع فؤاد العوال. الغرض من اصطفافنا كان إما للعد أو "لقول صباح الخير يا أطفال"، "إلى اللقاء يا أطفال" أما في الواقع فقد كان فرصة للكلام حيث كان الكلام ممنوعاً في الصف إلا إذا وجه سؤال للمعلم فيستغل التلاميذ الكبار الاصطفاف لشتم الصغار وتهديدهم أو كبازار تتبادل فيه الاتهامات والوعود. ما عذبني، كان داود عدس الذي يكبرني بثلاث سنوات، كان يحاول أن يسيطر على قلم الحبر، على علبة الأقلام، وعلى سندويشي وبونبوناتي، كان قوي البنية، أسمر اللون، كان يكيل لي دوماً الانتقادات، كنزتي لا تعجبه، جواربي قصيرة، يكره وجهي وطريقتي بالكلام. كنت أخشى اعتراضه علي الطريق لكني تغلبت على ذلك. لازلت أذكر تعابيره التهديدية وخاصة "بعد المدرسة سوف أحطم أسنانك"، لكن المدرسة حمتني من تجاوزاته.

أخـوه الأكـبر كـان بطـل سـباحة وقـد زار مدرسـة إنكليزيـة تبـشيرية في هليوبوليس كانت تقيم بطولات في السباحة، ومدرستنا تأخذنا أحياناً لمشاهدتها.

جربت النطق بتعابير داوود التهديدية في البيت أمام المرآة دون تمكني من نطقها كاملة. أحياناً جربتها مع أخواتي لأفرض عليهن الخوف والطاعة وعملت العمة ميليا على تهذيب تعابيري وتصليحها. طردت مرة من المدرسة لا أذكر لماذا، ولكنهم لم يكونوا يستعملون العنف ماعدا ضربات على الأصابع بالمسطرة بين الحين والآخر.

أخرجت مرة من الصف ونادت المعلمة ميس بوللن التي جاءت مهددة متوعدة ودفعتني أمامها على الدرج إلى الطابق العلوي باتجاه غرفة ميستر بوللن ثم أدخلتني الغرفة ووجدت نفسي للمرة الأولى وحيداً أمام ميستر بوللن.

اعتراني الخوف من هذا الرجل الطويل القامة، والوجه الأحمر والعيون الزرقاء الهادئ البريطاني الذي أشار لي بالتقدم إليه. لم يتفوه بكلمة واحدة، أتذكر قميصه الأبيض وسترته الزرقاء، وعصاه الطويلة. شعرت بالخوف لكن تأكد لي أني يجب أن لا انهار ولا أبكي. سحبني من الرقبة ودفعني إلى الخلف وباليد الأخرى رفع العصا وضربني ثلاث مرات على مؤخرتي وكل ضربة كنت أشعر بالغضب بدلاً من الألم. من كان هذا الشخص القبيح الذي أذلني بهذا الشكل؟ ولماذا بقيت معدوم الإرادة؟ هذه الأفكار تضاعف معناها مع الأيام أني تركته يذلني دون عقاب. هذا اللقاء الذي دام خمس دقائق كان خبرتي الوحيدة مع ميستر بوللن. لم أكن أعرف اسمه الأول لكن كان هذا اللقاء خبرتي الأولى مع عقاب انضباطي. ولما أخبرت إحدى المعلمات والدي عن هذا

الحدث، قال والدي هكذا ترى أنك لست ذا تربية جدية، متى سوف تقتدي، من وضع صوته تبين لي أنه لا يستنكر هذا الإذلال، لماذا ندفع التكاليف الباهظة لندخلك هذه المدرسة وكأن والدي يدفع التكاليف الباهظة لأعامل مثل هذه المعاملة، والدتي قالت ادوارد لماذا تأتي لي بهذه الصعوبات. وهكذا شعرت بأني تحولت إلى "إدوارد" الذي يحتاج إلى عقاب لسلوكه، لكسله، لتجاوزاته، تبين لي أن المدرسة "جي ب اس GPS" لها منهاج منظم جلبه الاستعمار البريطاني، المنهاج التعليمي كان مرتبطاً بالطاعة العمياء والسلطة المطلقة للمعلمين. المدرسة كمكان علم ما كانت تعني لي شيئاً ما، لكنها كانت خبرتي الطويلة بالاستعمار البريطاني وببريطانية المعلمين والتلاميذ، بالسلطة الاستعمارية. خارج المدرسة لم يكن لي اتصال بالتلاميذ البريطانيين حيث كان هناك عائق صعب يفصل بيننا غير مرئي وتأكدت أن لباسهم، أسماءهم، لهجتهم، شكلهم يفصلنا عنهم إضافة للمشاعر.

لم يتحدث أحدٌ منهم يوماً ما عن البيت وكأن بيوتهم في عزلة تامة عنا. رغم أني ما كنت أكن المحبة أو الاحترام للمعلمين الإنكليز، كان تواجدهم في حيِّنا ليس أمراً غير عادي أو غير مالوف. كانت القاهرة كمدينة ضخمة تعجبني، لكني ما شعرت يوماً ما أني في بلدي.

ميستر بوللن بقي في ذاكرتي كمفترسي البشر في قصص الأطفال، كان هيكلاً ليضرب ويعذب وليس شيئاً آخر. خمسون عاماً بعد ذلك تصفحت كتاباً مصرياً لمؤرخ مصري عن النشاط الثقافي البريطاني خلال ٢٠٠ عام ليظهر فجأة فيه اسم "بوللن".

بوللن باسمه الأول كايت كعضو في جماعة من الكتاب من الدرجة الثانية عُرفت بجماعة الـ: "سالاماندار" اسم المجلة التي كانت تصدرها، والذين عاشوا أثناء الحرب في مصر. صديق مصري أرسل لي نسخة عن عدد من المجلة ظهر في عام ١٩٤٣ في الوقت الذي كان بوللن يضربني ويضرب غيري، تأكدت أنه بوللن نفسه وقرأت له شعراً "ساعات صيف" نقله عن البرت ساماين.

أحضر لي وعاء الذهب

أحضر الكريستال بألوان الأحلام

يعبق منه رائحة المحن

حبنا ليس له بعد

مبعثرة فواكه الصيف الذهبية

قطع الدراق بلون اللحم الوردي

بياض الندي البراق يصب بقعه عليك

الغابات مظلمة، فارغة دون إشعاع

القلب فارغ لا يجد الهدوء

أثر في عذاب الحب

كيف أُنتخبت هذه الكلمات بدقة وخيال، أحضر لي الوعاء الذهبي يذكرني بضربات ميستر بوللن، هل كان يستطيع قول ذلك لزوجته ميس بوللن عندما فتحت باب غرفته لتجعله يضربني. ومهما كلفت نفسي من عناء لا يمكنني مقارنة الخنوع والمذلة اللتين أجبرني ميستر بوللن على تحملهما مع

الشاعر في المساء الذي يحضر كتابة "ساعات الصيف". بلا شك رجل محل الإعجاب الذي يتنصت مساء لنغمات "شاميناادي" Chaminade[1] .

فترة وجيزة بعد الضرب والإذلال من ميستر بوللن تعرضت للقاء استعماري أشد قسوة وضراوة، بينما كنت في ساعات المساء الأولى على الطريق إلى البيت عبر الملعب الرياضي لنادي الجزيرة تعرض لي بريطاني على دراجته الهوائية ببذلة بنية اللون وقبعة صيفية إفريقية على رأسه. كان ميستر بلاي Pilley الذي تعرفت عليه كسكرتير النادي الرياضي وكان أبا لرالف أحد زملائي في المدرسة. ماذا تفعل هنا يا ولد بصوت حاد عالٍ، أجبت أنا في طريقي للبيت نزل من دراجته وقال ألا تعرف أنك لا يجب أن تكون هنا ولم يترك لي مجالاً للرد وصاح اختفِ عن المكان واسكت، ليس للعرب مكان هنا وأنت عربي.

إن كنت لم أر نفسي قبل ذلك كعربي، أدركت معنى هذا الوصف المذل. لما أخبرت والدي عن هذا الحدث استغرب بشدة ما حدث وما كاد يصدق أننا أعضاء في النادي. ووعد بالكلام معه، لكن هذا لم يحدث قط. اليوم وخمسون عاماً بعد الحدث أشعر بالألم كما شعرت به سابقاً وبدا لي اتفاقاً ضمنياً بيني وبين والدي أن نقبل وضعنا المذل. اكتشفت ذلك حين وقفت وجهاً إلى وجه أمام ميستر بيللاي وما كنت جاهزاً للقتال ما يخجلني حتى يومي هذا.

هذه المشاعر والأحداث تجلّت لي أوضح وأوضح عقوداً بعد حدوثها وبعد مغادرتي المدرسة، ليس من المعلمين، التلاميذ، الجو، الدروس وكل ما أحاط بي كان بالنسبة لي سنداً أو شيئاً ما مفيداً. أجمل شيء كان عندما تأتي والدتي وتتبادل الحديث معي عن مجرى اليوم وتصغي لي وتفسر الأحداث. ما

1 لم أجد في القاموس معنى لـــ: شاميناادي.

عدا دروس الفنون والجمال كنت ذكياً ماهراً ومجتهداً واستوعب كل شيء ، ما كانت والدتي تنفيه.

حين كانت تقول: لاشك أنك ذكي ماهر إلا أن هذا لا يكفي ، الله منحك الموهبة.

بعكس والدي كانت تسخو علي بمديح مبطن حذر ، ما كان يطمئنني. بعيونها كنت أرى قناعة بما تقول يصاحب ذلك اعترافها بانفتاحي وحبي للموسيقى ما أعطاني الثقة في نفسي وأني عنصر فعَّال مفيد ولأسفي لم يدم هذا الشعور لمدة طويلة كما تبين لي فيما بعد. صاحبني الشك فيما إذا كان شعوري بالثقة بالنفس في محله. سرعان ما فقدت الثقة بالنفس وعادت لي المخاوف لتسيطر عليَّ.

ما كنت أشك يوماً ما بحب والدتي لي كما أكدت دائماً لكنها كانت متحفظة. كانت ماهرة باستقطاب المرء واجتذابه لتعود وتفصح عن نواقصه بشكل مباشر وليس ملتوياً.

كما كانت قادرة على التحفظ المكتوم والحذر ، ما كان يجعلني أشعر بالمرارة. عندما كنت أعود من المدرسة كانت تفاجئني بعلمها هاتفياً عن كل ممارساتي في المدرسة وتسلب مني شعوري بالترويح عن النفس بعيداً عن المدرسة. وسرعان ما كنت أفقد الثقة بالنفس ليجعلني ذلك أكثر فأكثر محتاجاً لحبها ورضائها. خلال الأسبوع كان تأثير والدي ضئيلاً وكان دوره يبدو مقتصراً على شراء الخضراوات والفواكه بكميات كبيرة كان يجلبها مستخدمو المتاجر وكانت والدتي تشكو دائماً قائلة نغرق بالبرتقال والموز والخيار والبندورة ، لماذا جلبت معك "خمسة كيلو وديع" ، أنت مجنون ليقبلها ببرودة

وينزوي لقراءة جريدة المساء هذا عدا ما إذا كان هناك تقرير من المدرسة عن تقصيري أو سلوك معاكس، أو عدم تركيزي وإصغائي في الدرس. ليصب والدي علي غضبه ثم ينسحب. ما زاد شدة عندما انتقلت إلى معهد فيكتوريا Victoia College. من محاسن مدرسة GPS كان اكتشاف حبي للمسرح، هذا في بدء عام ١٩٤٤. كان شعوراً نادراً العودة للمدرسة بعد الظهر وغرف المدرسة مظلمة وخالية والقاعة الكبرى مضاءة إضاءة خفيفة بانتظار الزوار وقدمت مسرحية Alice in Wunder Land والتي كانت والدتي أعطتني كتابها للقراءة. لم يعجبني الكتاب فقالت والدتي بحزم: إنه كتاب أطفال إدوارد ما لم يغير عدم رغبتي في قراءته. وكنت فضولياً إذ كنت أريد قراءته بعدما أشاهد أحداثه على المسرح.

إنها مثل سينما سألت أحد رفاقي الذي يكبرني والذي دفعني لأتقدم للصف الأول.

كانت انطباعاتي جميلة أن الممثلين أطفال الـ: GPS مثلي تحولوا إلى أشخاص آخرين وقاموا بدورهم بشكل مبدع انطبق هذا بصورة على ميشيلين لندن التي مثلت دور أليسا، أما الآخرون فكانوا تلاميذ أكبر ولم تكن علاقتي بهم جيدة.

كوليت أميل Collette Ameil فتاة طويلة القامة مثلت دور الملكة وكأنها صنعت لهذا الغرض هي أخت جان بيير أميل Jean – Pierre جار داود عدس وبنفس عمره ولهذا كانت معرفتي بهم جيدة. أما الباقون فكانوا تلاميذ أكبر سناً تعرفت إليهم في المدرسة. ميشيلين كانت تكبرني بسنة واحدة وكانت تجلس قريباً مني في الصف. كانت بطولي لها شامة بجانب الفم

على اليسار تتكلم الإنكليزية بطلاقة إنكليزية وتتقن الفرنسية بلهجة قاهرية. كأليسة لبست ثوباً أبيض وجوارب بيضاء وأحذية باليت، كان عليها أن تمثل دور العذراء لكنها لم تنجح وكانت في غاية الإثارة بفعل ملابسها الضيقة وسحرت صبياً بالتاسعة من عمره ادوارد، لم تساورني مشاعر جنسية لأني ما كنت أعي ماذا يعني الجنس.

بينما كانت واحدة منا كانت تتحول أثناء التمثيل إلى شخصية فوق العادة من إشعاع وإغراق لا مثيل لهما. في النهار شاهدتها، ميشيلين كالمعتاد وكيف كانت تتقبل انتقادات المعلمات ببساطة وفي المساء تظهر كإنسانة أخرى مليئة بالثقة والإشعاع بالغة التفوق. شاهدت العرض المسرحي تكراراً رغم معارضة أبي وأمي وكنت أنتظر أمام المدرسة مختبئاً لاسترق النظرات إليها عندما كان والدها يأتي للمدرسة ليصطحبها إلى البيت وكان يعتريني الخجل أن يراني أحدٌ مختبئاً أسترق النظرات إليها.

لا أعرف ماذا حدث لي، تغيرت حياتي، وبدأوا يبحثون عن علاج، خلال سنتي الأخيرة في GPS كان ذلك في عام ١٩٤٩ بقيت لعدة أشهر كنت أرسل مرتين في الأسبوع إلى بيت غرين وودس Greenwoods لتلقي دروس إضافية. مثل التلاميذ الإنكليز في المدرسة الذين لم يكن آباؤهم معلمين، منهم كان جيريمي غرينوود Jeremy ابن مسؤول في شركة وكانت لهم فيلا في حي الزمالك تحيطها حديقة كبيرة مسيجة بجدار مرتفع لم أدخلها إطلاقاً.

تحت قيادة معلم رياضة مصري بلباس كريكيت أبيض ناصع كان جمع من الصبيان يمارسون ولساعة كاملة تمارين رياضية "جيمناستيك" يتبعها ركض

ولعب كرة، ما تعلمت شيئاً مهماً في الأيام التي قضيتها في ممارسة الرياضة، بل تعرفت على تعابير ما كنت أعرفها مثل:

Fair Play روح الرياضة.

وتعلمت أن التعبيرين يعنيان الانطباعات الخارجية الظاهرة، الأول يعني أن لا يشكو الرياضي للمشرفين ما قام به أحد اللاعبين، ما كان ليس صحيحاً، والروح الرياضية تعني أن لا يشكو أحد بصوت عالٍ من تصرفات الآخرين ولا يظهر غضباً أو كراهية، كنت وحدي في هذا المحيط الذي لم يكن إنكليزياً وما شعرت براحة أو اطمئنان.

بعد أسابيع من تمارين دون نتيجة مرضية أرسلت إلى فرقة كشافة لم تكن أبداً متكاملة العدد تلتقي خلف دكان في نادي الجزيرة. كانوا يدورون في دائرة مغلقة، أكيلا سوف يبذل جهده، كنت فخوراً بهذا الإخلاص وعلى الأخص تخلصت من تهديدات "عدس" وكنت بعيداً عن مناله في صفوف الكشافة. التقينا كل أربعاء وسبت بعد الظهر وكنت أرتدي بفخار قميصاً خاكياً وبنطالاً قصيراً والمحرمة الحمراء حول عنقي والجوارب الخضراء. أما والدتي فلم تكن معجبة ورأت في ذلك شكلاً عسكرياً وكونها قرأت معي عن: موغلي، كا، أكيلا وأيضاً ريكي - تيكي - تافي Mogli, Kaa, Akela, Rikki Tikki- Tavi – لم تتحمل ما فرضه الإنكليز من تسلسل خضوعي على ابنها ولهذا لم تكن تعتني بلباسي الكشافي، أختاي روزماري وجين أصيبتا بالدهشة ونوعاً من الخوف تجاه صيحاتي الكشافية العسكرية وكانتا في السابعة والرابعة من العمر.

لم يتدخل والدي حتى سمعني أتمرن على أداء القسم الكشافي وخاصة ما يتعلق بالله والملك، قال لماذا تفعل هذا؟ كما لو كنت سألت نفسي نفس السؤال، أنت أمريكي وليس لدينا ملك بل رئيس. دهشت للوهلة الأولى من هو رئيسنا؟ وما هو الدور الذي يلعبه في حياتي؟ في حين كان الملك آخر من أعرفه في حلقة طويلة حتى ستيوارت وبدأت أجمع الحجج. ملك ورئيس لا يتناسبان، ثم قلت لوالدي لا أستطيع أن أفعل ذلك هذا ليس ممكناً. رفضي أصاب الوالد بحيرة وما تصور ماذا يعني لابن تسع سنين أن يرفض الانصياع تحت إمرة الكشافة، نظر إلى والدتي التي كانت دوماً بقربنا قائلاً باللغة العربية: هيلدا تعالي وحاولي أن تتعرفي ما هو الأمر بادوارد. لأول مرة أدركت ماذا يعني أن لا تتحقق أمنيات الفرد.

حدث آخر تلا، في يوم سبت جميل بعد الظهر دعيت فرقة من الكشافة للعب كرة القدم على الطرف الآخر من نادي الجزيرة فدعوت والدي الذي كان قبل ثلاثين عاماً مهاجماً في فريق كرة القدم في القدس لحضور اللعب لكي ينظر كيف احتفظ بعادات العائلة.

ابن عمي ألبرت وعمه آدي كانا في فرقة سان جورج ويشاركان والدي حب لعب كرة القدم. وطبعاً استجاب والدي لطلبي واتي لمشاهدة اللعب، لكني كنت نسيت أحذية اللعب وكنت اللاعب الوحيد الذي يلبس حذاء يختلف عن الجميع فوضعوني بالصف الخلفي وما عرفت دوري.

تناسيت أنه لم يسبق ولعبت مرة مع فرقة وحيث والدي كان يقف على بعد عشرين متراً مني يرى ابنه غير مؤهل ولا يؤدي أي دور، أحذيتي كانت

ثقيلة، وأول كرة مرت بجانبي أخفقت في الوصول إليها، سعيد تحرك قليلاً صاح مسؤول، ليس عليك أن تقف فقط دون أن تتحرك.

في الفرصة نظر لي بازدراء لأني تناولت أربع قطع من البرتقال بدلاً من واحدة أو اثنتين. في الفترة الثانية كنت كالمشلول من الخوف، عديم الثقة بالنفس وخسرنا اللعب.

في اليوم التالي وبعد الصلاة اعترضني والدي في طريقي إلى غرفة الطعام والطعام كان جاهزاً وكان عندنا ضيوف للطعام مما يغير طابع اليوم الديني ويضفي عليه صبغة أخرى واستشعرت أن المقابلة مع الوالد لن تكون سارة، أمسك بي وقال شاهدتك البارحة تتقدم من الكرة وتبقى دون فاعلية، يجب أن تركض وراءها، أن تركض وراءها مُعيداً ثم دفعني كما لو كان يدفع كرة قدم، كدت أسقط على الأرض حيث فقدت توازني.

لا أدري ما إذا كان جسمي أو شخصيتي ليسا أهلاً أن يأخذا دورهما في الحياة، وإذاً سوف يكون لهذه المعاملة من والدي تأثير عليهما. ذكرني أني منذ طفولتي وحتى نهاية الدراسة الابتدائية لم أتقدم وبقيت طافياً على السطح. لا أبذل جهداً كبيراً.

"مرة رافعاً قبضته وأخرى إصبع الإبهام".

يستشهد دائماً بلعب كرة القدم كمثال على فشلي وليؤكد ماذا يقول. استنتجت أن القوة المعنوية تنقصني وكنت ضعيفاً بكل معنى الكلمة لأعمل أقصى ما هو باستطاعتي وخاصة تجاه والدي. قليلاً بعد ذلك في عام ١٩٤٢ عندما كبلتني ميشيلين بالقيود حين مثلت أليسا أتيح لي أن أشاهد

مسرحية أخرى. أخبرتني والدتي أن جون غليغود John Gielgud سوف يأتي إلى القاهرة لتقديم تمثيلية "هامليت"، يجب أن نرى ذلك مؤكدة وبالفعل تم ذلك رغم عدم معرفتي من كان جون غليغود. كنت حين ذاك في التاسعة من العمر وكنت قرأت قصصاً لشكسبير من شارل وماري لامب كانت قدمت لي هدية في عيد الميلاد. اقترحت والدتي أن نقرأ سوية قليلاً من التمثيلية في الكتاب. أخذت كتاباً من رف الكتب الذي كان براقاً بشكله وغلافه وأدركت جمال الكتب لاسيما وقد كان مزيناً برسوم بقلم الرصاص تظهر يوهان هاينريخ فسلي، الأمير الدانماركي هوراسيو وكأنه يصارع الشبح.

قرأنا معاً أمام نار الكامين (Kamin) أخذت هي دور غيرترودي وأنا دور هامليت، هوراسيو وكلاوديوس. جلسنا أنا ووالدتي أربع أو خمس جلسات لقراءة الكتاب لنفهم المسرحية متناسين القاهرة والوالد والمدرسة وأخواتي.

فهمت نصف ما قرأت رغم أن موقف هامليت من جريمة قتل والده وزواج أمه الثاني كان متقلباً. لم أكن أعرف ما هو الـ: Inzest[1] وما هي الخيانة الزوجية وما كنت أتجرأ أن أسأل والدتي والتي أبعدها تركيزها على الرواية نوعاً ما عني. تأثرت بالقراءة وأصبحت أكثر نعومة بصوت مؤثر هادئ وكانت ترفع معنوياتي. انطباعات قراءتي لهامليت كانت من أكثر التأثيرات

1 عملية الجنس بين الأخوة أو الآباء والأبناء الأخوة والأخوات.

في طفولتي. كنت ووالدتي صوتين مرتبطين بالروح واللغة. لم أفهم الديناميكية الداخلية التي ربطت الأمير الفاقد الأمل والملكة الخائنة لزوجها والغضب في المشهد حين قتل هامليت بولونيوس وعاقب غيرترودي بالشتائم. قرأت ووالدتي معاً وبالنسبة لي تجاوزت أحداث الرواية مرتبطاً بوالدتي حيث تربطنا المشاعر ما عدا أنها أم حنونة بكل معنى الكلمة منها تأتي الحماية والراحة.

الساعات المشتركة في القراءة أشعرتني بعمق ارتباطنا. سنوات عديدة لازلت أشعر بصوتها الواضح، بتوازنها النفسي، بجو وجودها المهدئ وصبرها اللاحدودي. وما جعلتني أتناسى تعنيفها لأعمالي السيئة والتي كنت أشعر بها كتهديد.

عندما شاهدت الدراما في الأوبرا هزني في مقعدي قول جيلجود "يا ملاك ومبعوث الله آزرنا" مؤكداً لي بطريقة نادرة ما قرأته ووالدتي سوياً في البيت.

صدى صوت الممثل المدوي، المسرح الضئيل الإضاءة، شكل الشبح الذي يظهر من بعيد كل هذا يبدو وكانه بعث رسومات فيسلي للحياة التي تأملتها طويلاً ووصلت إلى أعماقي. الممثل الأشقر البريطاني بهيبته وجسمه، بثقتهم وغيره من الممثلين بالنفس كلهم بريطانيون مقارناً ذلك بسيقاني الرفيعة، بحركاتي غير المنظمة، بوقفتي عديمة الهيبة، كل ذلك أوجد لدي شعوراً بعقدة النقص، ما أضعف الاستمتاع بالرواية. بعد بضعة أيام دعاني زميل أنجلو أمريكاني توني هووارد لزيارته في بيته حيث كان يستضيف الممثل غيلغود. ما استطعته كان مصافحة ضعيفة صامتة. كان يرتدي بذلة رمادية مبتسماً قليلاً عندما أمسك يدي للمصافحة.

كانت أيام هامليت في القاهرة مؤثرة لدرجة أن والدتي ذَكَّرتْ بها سنتين أو ثلاثة قبل وفاتها . أتذكر بصورة خاصة عندما توقفت في لندن في طريقها إلى الولايات المتحدة للعلاج من مرض السرطان . أخذتها إلى فندق براونز ورغم توفر ساعتين لها للاستعداد رحبت باقتراحي أن نزور : Vanessa Redgrave & Timothy Dalton[1] في مسرح هايدماركيت أعجبت والدتي بالمسرحية رغم طولها بشكل فاجأني .

بعد الحرب الأهلية في لبنان والغزو الإسرائيلي كانت مضطربة وخائفة على صحتها ، لا تعرف كيف تتصرف زيارة المسرح رفعت معنوياتها وشعرنا بتقارب روحي ، بغاية الانسجام رغم فارق العمر متناسين أننا أم وابن . ثمانية أشهر بعد هذا اللقاء بدأت مرحلتها الأخيرة حيث وصلت خلايا السرطان إلى الدماغ ما جلب بعض الخلل لقواها العقلية .

في الشهرين الأخيرين من حياتها حيث فرض عليها المرض الصمت ، قالت أن مؤامرة تدور حولها ، قالت لي كلمات الوداع الأخيرة حزينة خائفة "ولدي الصغير المسكين" .

عندما كبرت سناً ، تمنيت أن تكون هي اصطحبتني إلى لعب كرة القدم بدلاً من والدي . وإن كانت هي من يتحدث مع المعلمين والمعلمات في شؤوني . بعد وفاتها وعندما توقفت رسائلي الأسبوعية لها ، ومكالماتي اليومية معها في المستشفى في واشنطن ، بقيت لي كرفيقة صامتة حاضرة دائماً . ضمها لي بذراعيها كان الحظ والسعادة بالنسبة لي . وضعها النفسي طغى بصبغته على وضعي .

---

1 يمثلون أنطونيوس وكليوباترة

اذكر مشاعري في طفولتي كيف كنت أرغب عزلها عن واجبها التربوي لتضفي عليّ حنانها وحبها ومؤازرتها . عمل جيد ، علامات جيدة في المدرسة ، عزف قصير على البيانو ، غيَّر بشاشة وجهها إيجابياً وارتفعت معنوياتها ، فتحت ذراعيها قائلة "برافو" ادوارد ، ابني الحبيب برافو ، برافو ، أريد أن أقبلك . لكنها غالباً كانت تؤدي واجباتها المنزلية كربة بيت واذكر نداءها : ادوارد تمرن على البيانو ، اعمل وظائفك المدرسية ، لا تضيع وقتك ، هل بدأت بتحضير وظائفك المدرسية ، هل شربت الحليب ، وعصير البندورة ، والقطران ، كل صحنك كاملاً بدلاً من أكل الشوكولاته ، العلبة فارغة كلياً .

الفصل الرابع

قوة والدي الجسدية والمعنوية سيطرتا على القسم الأول من حياتي. كان له ظهر قوي وصدر كالبرميل، ورغم أنه لم يكن طويل القامة نوعاً ما، كان يعطي انطباعاً أنه لا يُتغلب عليه وثقة بالنفس لا حدود لها. من علاماته الفارقة كانت وقفة جسمه كالعصا المستقيمة وخلافاً لنرفزتي العصبية وخجلي، كان بالغ التفوق، لم يعرف الخوف مطلقاً أن يذهب لأي مكان أو يفعل أي شيء. أنا كنت متخوفاً دائماً.

حركاتي كانت عصبية كما في لعبة كرة القدم، ما كنت أرغب أن أظهر نفسي، كنت أتخيل عدة نواقص جسدية، ما يعكس بنيتي النفسية. كنت أخشى نظرات الآخرين ويصعب علي أن أنظر للناس. لما كنت في العاشرة من عمري ذكرت هذا كله أمام والدي.

لا تنظر إلى عيونهم، أنظر إلى أنوفهم قال والدي وكشف بذلك النقاب عن تكتيكاتي التي استعملتها عشرات السنين. حتى لما كنت أحضر للدكتوراه في نهايات الخمسينات وأنا ألقي دروساً، خلعت نظاراتي ليبدو الصف ضبابياً وما كنت أرى وجهاً واحداً.

حتى هذا اليوم لا أتحمل رؤيتي في الفضائيات أو قراءة شيء مكتوب عني.

حين كنت في الحادية عشرة من عمري منعني الخوف مما كنت أتوق عمله. كان ذلك في زيارتي الثانية للأوبرا في القاهرة في القاعة التي كانت صورة عن القاعة الباريسية لـ: غارنير Garnier والتي شهرتها عائدة. كنت مأخوذاً بالجو الاحتفالي، بشكل المسرح، وباللباس الاحتفالي للزوار وأيضاً بسبب الموسيقى نفسها، بتقديمها وبالاحتفال نفسه. أثارني بشكل خاص خندق الأوركسترا أمام المسرح ومدير الأوركسترا Dirigent بعصاه الطويلة. كنت أرغب في رؤية كل ذلك عن قرب في الفرصة. من مقاعدنا في اللوج لم تتوفر للمرء رؤية جيدة. هل يمكنني أن أفعل ذلك، سألت والدي، اذهب، اذهب إلى تحت أجابني. مجرد تخيلي أن أمشي عبر الصفوف الأمامية صعب علي تصوره. خجلت من تعرض جسمي للنظرات الفاحصة. قال والدي اذهب أذهب أنا. شاهدته يمشي عبر الممر بكبرياء وثقة عالية بالنفس متقدماً نحو ساحة العرض. شاهدته وهو يقترب من دفتر النوطة وكأنه يريد تصفحه بفضول ومهارة لأغطس في مقعدي خجلاً لما يفعل والدي من ناحية وأخرى لخجلي وتخبطي.

دفء والدتي جعلني أشعر أني الشخص الذي أريده أن أكون حسب مشاعري الضمنية والذي يختلف كلياً عن "ادوارد" الذي فشل في المدرسة وفي الرياضة والذي ما كان أبداً صورة عن رجولة والده.

كانت علاقتي بوالدتي مزدوجة، اتهاماتها لي واستنكارها لبعض تصرفاتي كان له وقع نفسي أكثر من التسلط الرجولي لوالدي. في يوم صيف بعد الظهر في لبنان، كنت في السادسة عشرة من عمري، أعطت علامات لأبنائها ما لم أنسَ أبداً هذا في الوقت الذي كنت فيه أشد الحاجة لعطفها

وحنانها . كنت أنهيت سنة غير سعيدة في مدرسة داخلية في مونت هيرمون Mount Hermon في نيو إنجلاند Newengland . في مدرسة كانت إدارتها شديدة القسوة وكان صيف عام ١٩٥٢ في غاية الأهمية بالنسبة لي . لأني تمكنت أن أكون بقربها . تعودنا أن نجلس بعد الظهر معاً نتبادل الأحاديث والآراء . قالت فجأة كل أولادي خيبوا أملي ، وما تمكنت أن أقول "أكيد لست أنا" هذا بينما كنت حسب ما علمت ابنها المحبوب . من أخواتي علمت إنها كانت في السنة الأولى من غيابي أثناء المناسبات الدينية الاحتفالية مثل عيد الميلاد ، تعد مكاناً لي على طاولة الطعام ولا تسمح بسماع السيمفونية التاسعة لبيتهوفن سيمفونيتي المفضلة .

سألتها لماذا ، لماذا لديك هذا الانطباع عنا ، لتنطوي على نفسها وتصمت ، كررت السؤال . ماذا فعلت ، أجابت يوماً سوف تعلم لماذا ، ربما بعد وفاتي .

كررت سؤالي لعدة سنوات دون جواب ، أسباب خيبة أملها بقيت سراً من أسرارها وفي الوقت نفسه سلاحاً في "أرزينالها" (دار الصناعة) به كانت تتلاعب بي ، تفقدني توازني مع أخواتي والعالم .

لماذا اعتقدت دائماً أن علاقتي بوالدتي في غاية العمق ولا يزعزعها شيء ما . وحين أتطلع للوراء أرى أن مواقف والدتي المتناقضة كانت دائماً قائمة . في سنوات مدرسة (جي بي اس GPS) حصل تنافس بيني وبين أختي الأصغر جين وروزي ، ما استفادت منه والدتي في تلاعبها . رأيت في نفسي حامياً لأختي روزي لأنها كانت أصغر وأقل لباقة مني في حركاتها لعبت معها على البلكون عانقتها مراراً وجعلتها تضحك . في الصباح ذهبنا معاً إلى المدرسة ثم تفرقنا

حيث كانت في صف أدنى من صفي. كان لها كثير من الصديقات مثل شهيرة، ناظلي، ناديا، فيفيت كما كان هناك من يميلون للمشاجرة مثل ديكي كوبر وجوي موسيري. أكدت مكانتها كتلميذة مجدة ناشطة، بينما صنفت أنا كثوري دون هدف ومعزول في المدرسة. بعد المدرسة بدأت المشاكل بيننا بدأ ذلك بفصلنا جسدياً منعنا من المعانقة، من غرفة مشتركة، من اللعب معاً واختلفت أساليب تربيتنا وكانت تربيتي أكثر صرامة. عندما تأتي والدتي تقارن سلوكي بسلوكها، تقول انظر إلى روزي، كل المعلمين يقولون إنها حسنة. وسرعان ما تطورت أختي جين وكانت جميلة بضفرات شعرها الكستنائية اللون وأوجدت صديقات لها يشاركنها ميولها وأغدقت بالمجاملات من المدرسة بينما بقيت أنا المعيب ما صاحبني حتى سني السابعة. روزي وجين كان لهما غرفة مشتركة، غرفتي كانت تبعد قليلاً عن غرفتهما بين غرفة الوالدين. جويس وغريس الصغيرات ثمانية وإحدى عشرة سنة أصغر بدّلا غرفتهما الواقعة على البلكون عندما تجدد بناء البيت.

باب الغرفة المغلق لـ روزي وجين كان رمزاً لتباعدنا العاطفي الذي بدأ تدريجياً حتى أني منعت من دخول الغرفة. كان والدي الذي أصدر الأمر وحرص عليه. وتحول إلى حامٍ ومسؤول عنهما. وهكذا تحولت إلى الأخ الشرير الذي أملاه أخوالي على والدي كما قال "احميهما". روزي رأت في شخصي حيواناً مفترساً كانت تقذفني بالمخدات والأدوات المدرسية وتصرخ بوجودي بشكل هيستيري. كانتا مجدتين في المدرسة وفي البيت بينما كنت أنا أقطع الوقت حتى تعود الوالدة إلى البيت لنتبادل الشكاوى ضد بعضنا البعض موثقة

بالبقع من الضرب أو آثار العض. لم نتباعد كلياً وبشكل ما استمتعنا بالتنافسات التي ما كانت إطلاقاً عدائية الشكل. أخواتي كن يضعن سرعتهن وقدراتهن عند "السماء وجهنم" تحت البرهان وأنا أحببت أن أكون مثلهن. عندما كنا نلعب "البقرة العمياء" أو الكرة في مكان ضيق كنت أبرز تفوقي وقوتي. بعد ما زرنا "سيركوس توغني" وترك مُروض الأسد بسيطرته وصراخه التهديدي[1]، جربت دوره في غرفة أخواتي وصرخت صراخ المروض "أبوستو كاميليا" ولوحت بكرباج ودفعت كرسياً باتجاههن. أعجبهن التمثيل وجربت الصراخ المخيف وتسلقت على السرير والموبيليا.

ولم نعد نعانق بعضاً البعض إطلاقاً كما يفعل الأخوة وشعرت بتخوف منهن والعكس صحيح. هذا التباعد الجسدي لا زال موجوداً بيننا حتى اليوم وأعتقد أن والدتي ساهمت في خلقه وتعميقه. في القاهرة عندما كانت تعود بعد الظهر من نادى النساء سرعان ما تتدخل بيننا وتحظى أعمالي السيئة بغضبها واتهاماتها، هل أستطيع تركك مع أخواتك بدون ما تسبب مشاكل، كانت تتساءل، أنتظر حتى يأتي والدك إلى البيت. ومُنع الاتصال الجسدي بيننا دون أن يقال ذلك علناً، انعكس ذلك بتعدٍ وضرب والسحب من الشعر لأُشكى لوالدي وأتعرض للعقاب إما بعدم السماح لي بالذهاب إلى السينما أو تخفيض الخرجية وفي أسوأ الأحوال كنت أتعرض للضرب من والدي. كل هذا يشعر أن للجسم وضعاً خاصاً بين البنت والصبي لم يناقش أو يذكر أو يشر إليه في

---

1 انطباعات لديّ

سنوات البلوغ. حتى سنتي الثانية عشرة ما كنت أعرف شيئاً عن الجنس بين الرجال والنساء كما لم أكن أعرف إطلاقاً قدراً ما من التشريح.

لم تعد الملابس الداخلية تسمى باسمها وأذكر أن باب الحمام بدأ يغلق أمام الجنس الآخر. رغم أن الوالدة كانت حاضرة دائماً عندما كنا نغير ملابسنا الداخلية. وأعتقد أنها استغلت هذه الفروق لتعزلنا عن بعض وجعلتنا نشعر أنها مرجعنا والصديقة التي نرجع إليها ونطمئن لها، هي حبنا الغالي ما أعتقده حتى اليوم. كل علاقاتي مع أخواتي بدأت تتم عبر الوالدة، كل ما قلته كان بوحيها. ما أحد منا عرف ماذا كانت فعلاً تكن لنا ولا أنسى قولها إننا خيبنا أملها. أعتقد أن سنوات القاهرة تركت عندها آثارها. اكتشفت لاحقاً القسوة التي كانت مفروضة وعدم الصراحة الكاملة لديها وبالتالي لدى أطفالها. كل ذلك يعود إلى مؤهلات أسطورية أن توقظ شعوراً بالثقة لا حدود لها رغم أنها كانت تتحول بين لحظة وأخرى إلى كتلة من الغضب أو أن تشبك المرء بحبها وحنانها. تعال ادوارد واجلس إلى جانبي وخلقت جواً جميلاً من الثقة، ولكن كنت أشعر أنها تعزل روزي وجين والوالد. كانت من جهة تميل للتملك الجني وبنفس الوقت تشع إحساساً لا يوصف لا ترى في ادوارد الابن فقط، بل الأمير. أسرَّيتُ لها يوماً أني لست إنساناً عادياً بل أشعر بموهبة تفوق رغم النكسات في المدرسة والإخفاقات هنا وهناك، متخوفاً وحذراً، أجابت بصوت خفيف ومهدئ "أعرف ذلك" من كانت هي فعلاً، على عكس والدي بثبات أقواله وعزم تصرفاته ما كان طابعه، كانت والدتي الطاقة بعينها في البيت في كل مكان وفي حياتنا. شملت رعايتها كل جوانب حياتنا

ملابسنا، مشاكلنا، إنجازاتنا. ما نقص كان جواً عاطفياً مشتركاً، بدلاً من ذلك كانت تربط بروابط ذات طرفين كالرابطة بين مستعمرة والوطن الأم. ما قالته لي عنها قالته أيضاً لأخواتي كانت بسيطة غير معقدة، إنسانة طيبة، لا تعمل إلا الصالح، أحبتنا جميعاً بنفس القدر، أرادت أن نروي لها ما تحجبه عن الغير، العالم الخارجي ما كان يقدم عوضاً، بمدارسه المختلفة كنت فيها كوني لست مصرياً- في المكان غير العادي، شخصاً دون مكونات دون هدف محدد، والدتي كانت تشاطرني هذه المشاعر، ما كان يكفيني وكان بالنسبة لي أمراً استمتع به.

عبر والدتي بدأت أشعر أن جسمي يشكل عبئاً علي ومشكلة لأنها كانت تعرفه حق المعرفة وتعرف عيوبه ما لم تتكلم عنه علناً بل بإشارات غير مباشرة إما عبر والدي أو أخوالي.

عندما كنت في الرابعة عشرة قلت لها أمراً ما رأته مضحكاً - ما كنت أدري يومذاك أني كنت بالغ الشعور. صدفة رويت الكثير، كنت أغلقت باب الحمام لأجعل لنفسي حدوداً خاصة وكنت أحياناً استنفز خرقها. دخلت فجأة الحمام ورأت ابنها ينشف جسمه فطلبت منها الخروج. وأن لا تدخل المكان مرة ثانية. لا تجربي أن تحصلي ثانية على ما تخليت عنه، قابلت ذلك بالضحك وغادرت المكان بسرعة.

تأكدت مبكراً أن جسمي وجسم أخواتي موضوع سري مغلق "تابو Tabu". ازدواجية والدتي ظهرت جلياً بتعاملها مع أطفالها والتركيز على الجسم، أغدقت علينا بالقبل والعناق والتغني بجمال أجسامنا في وقت كانت

تنتقد فيه مظاهرنا . لما كنت في التاسعة وروزي في السابعة كان وزن الجسم مشكلة وموضوع مناقشة، ما صاحب أختي في طفولتها وشبابها، رافق ذلك مناقشات متواصلة عن الأغذية الدسمة والممنوعات منها .

كنت أنا نحيفاً طويل القامة متناسق الجسم، بينما يظهر جسم روزي وكأنه عادي والفرق في المدرسة بيننا كان كبيراً، اجتهادها إلى جانب كسلي، كان الوالد يفضلها ووالدتي تفضلني لكنهما لا يعترفان بذلك، كان لديها موهبة تقسيم الوقت وتقوية معنوياتها ما لم يكن عندي. كل ذلك زاد في فروقاتنا .

حاول والدي أن يغير جسمي بل خلقه من جديد ، بينما والدتي نادراً ما انتقدت جسدي وكانت ترسلني دوماً للطبيب. وحين أعود لا تذكر شعوري الجسدي منذ الثامنة من عمري أرى فيه التجديدات المتكررة التي فرضت من والديّ، ما دفعني أن أكون ضد نفسي.

حيث لا يتناسب أمر مع الآخر. حتى نهاية ١٩٤٧ حين غادرنا فلسطين نهائياً كان طبيبنا دكتور غرينفيلدار Grunfelder مثل القابلة ميس بير Mis. Baer كلاهما يعود من أصل ألماني الذي عرف عنه كأحسن طبيب في فلسطين. عيادته كانت في منطقة هادئة نظيفة خضراء كادت تكون خالية من السكان ما أعطاني انطباعاً وكأنها غريبة. كان يتكلم الإنكليزية كما التقطت من الهمسات التي كان يتبادلها مع والدتي. كانت تُطرح أمامه دوماً ثلاثة مشاكل ويقدم حلوله الخاصة وكأنه يعرض أجزاء جسمي لفحص مجهري مكثف.

المشكلة الأولى كانت قدميَّ المسطحتين، دكتور غرينفيلدار وصف قوالب معدنية تخلصت منها في عام ١٩٤٨ . كان هذا عندما أقنع بائع أحذية صحية في

مخزن دكتور شول Dr. Scholl للأحذية الصحية[1] في مانهاتان والدتي بعدم استعمالها. المشكلة الثانية كانت عادتي أن أرتجف كل مرة قبل التبول. والدتي راقبتني لعدة أسابيع ثم عرضتني على الطبيب، الطبيب المشهور غرينفيلدار عقد حاجبيه وما استطاع تفسير الأمر، قال ربما كان السبب نفسياً، ما أقلق والدتي حتى بلغت سن العشرين حين اختفت المشكلة. المشكلة الثالثة كانت معدتي التي كانت مصدر مشاكل طيلة حياتي

بدأ الدكتور يشكك بعادة والدتي أن تربط حِراماً حول بطني صيفاً وشتاءً معتقدة أنها تحميني ضد الأمراض والهواء في الليل وضد العين الحاسدة. علمت فيما بعد من صديق أن تلك عادة منتشرة في فلسطين وسوريا. مرة شرحت والدتي للدكتور غرينفيلدار محاسن هذه العادة بوجودي وأتذكر ردة فعله. قال لا أرى نفعاً أو حاجة لهذا الأمر ـ لتعيد وتكرر عَدْ المزايا. كنت حينذاك في العاشرة من عمري. هذه القضية تعرضت للمناقشة لدى طبيبنا في القاهرة وديع باز حداد الذي هو بدوره حاول إقناع والدتي بالعدول عن هذه العادة. لكن مرت سنة أخرى وأنا أعاني من الحرام حتى تخلصت منه نهائياً بعدما اعترفت والدتي أن طبيباً آخر نصحها بالعدول عن هذه العادة محذراً إياها من تعريض بطني للأمراض جراء الضغط المتواصل، بالبطن الذي هو ذو حساسية بالغة.

مضت سنة أخرى حتى استطعت خلع الحرام دون عودة. قوة نظري تعرضت للضعف حيث أصبت بمرض التراخومة ما أجبرني وضع نظارات غامقة

---

1 أو الطبية.

اللون وما كان أحد يحملها بهذا اللون. في سنتي السادسة كان علي أن أجلس يومياً ساعة كاملة في غرفة معتمة واضعاً شاشاً على عيوني. قصر نظري تضاءل لكن والديّ كان رأيهما أن النظارات لا تناسبني.

ولا يجوز أن أتعود عليها. في شهر كانون الأول ١٩٤٩ زرت عرض مسرحية Helden Shaws في قاعة "إيفارت Ewart" في الجامعة الأمريكية في القاهرة وما استطعت رؤية ما يجري على المسرح حتى أعارني صديقي مصطفى نظارته. بعد ذلك بستة أشهر سُمح لي بحمل نظارة بعدما شكى معلم من قصر نظري لكن الأهل اشترطوا عليّ أن لا أحملها دوماً وقالوا إن عيني سيئتان بما يكفي وسوف تزدادان سوءاً إذا حملت النظارات بصورة مستمرة.

في الثانية عشرة من عمري تتالت الانتقادات لجسمي منها أن الشعر بين أفخاذي ليس طبيعياً، لساني، ظهري، صدري يديّ، بطني ما ضاعف ضياع الثقة بالنفس وشعرت بحملات هجومية تتقدم عبر جسمي. ورأيت في ذلك ربطة مكثفة من الحملات التأديبية تتدفق على شاب في انتقاله من الطفولة إلى الشباب.

لكن جملة هذه الانتقادات خلفت لدي بلبلةً وخجلاً. ذروة الانتقادات والتي اتخذت شكلاً دراميّاً كان انتقاد والدي لوقفتي وأصر أن يصطحبني إلى مكان مختص بالمستحضرات العظمية في نيويورك لما كنت شاباً في عام ١٩٥٧ وفي مدينة "بريسيتون Princeton" فصل لي "كورسيت" أحمله تحت القميص. وحتى اليوم أستهجن كيف كنت وفي الواحدة والعشرين من العمر مطيعاً أعمى لوالدي أن يربطني بالكورسيت كولد عاصٍ توجبت عقوبته

بطريقة علمية. ولم يبد على البائع أي انطباع غير عادي وقال والدي "هل ترى لن يحصل لك أية أتعاب بارتداء هذا الكورسيت[1]".

كان الكورسيت من القطن واللاتيكس مع أجزاء معدنية فوق الصدر كانت نتيجة تجارب سنوات من والدي لتغيير وقفتي. الكتف إلى الوراء، الكتف إلى الوراء، كان يصرخ بي دوماً. ويذكرني بأن وقفتي تشبه وقفة والدته. قال وقفتك ترجع إلى عائلة بدر، عائلة والدتك متأوهاً مستنكراً مضيفاً هذه حدبة بدر.

إذا كان هذا يعود إلى بدر أو لا يعود، والدي لم يألُ جهداً تبع ذلك تمارين منها إدخال عصاه التي يتنزه بها تحت إبطي وتوجب عليّ أن أتحمل ذلك ساعتين كاملتين. وفي تمرين آخر كان عليّ أن أقف أمامه نصف ساعة وأجري تمارين بدفع ذراعي بقوة إلى الوراء.

ما كنت أتحمل صيحات الوالد "الكتف إلى الوراء" أمام حضور آخرين وتوصلنا إلى اتفاق أن يقول فقط "إلى الوراء" والقصد كان مفهوماً، تحملت صيحة "إلى الوراء" سنوات حتى حمل "الكورسيت". لكن كان لذلك تأثير على صدري بمحيطه الكبير وتقوسه ما ورثته من والدي. وسبق في طفولتي وحملت قميصاً معدنياً لتصليح محيط الصدر ووضعيته كما قيل لي إنها انبثقت من الحدبة. وما كنت أتحمل ريش القميص المعدنية، كانت شديدة الربط. المأساة شرحت لي والدتي بكل إصغاء تكمن في أن صدري ذو محيط كبير بحيث إذا أبرزت صدري يُشكل صورة كاركاتورية. رأيت نفسي محتجزاً بين الحدبة والبرميل. والدتي تفهمت هواجسي ولم تستطع إقناع والدي بالعدول عن تلك الطرق.

---

1 لا أعرف التعبير باللغة العربية كورسيت هو هيكل من مادة اصطناعية قاسية نوعاً ما لإجبار العظام على اتخاذ وضع معين.

عندما كان والدي في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الأولى خَلَّف الرجل القوي المشهور غريفوري ساندو Gregory Sandow انطباعات والذي يظهر في Ulysses وساندو كان له صدر بارز وظهر مستقيم. قال والدي ما هو جيد لساندو هو جيد أيضاً لك.

لكن مقاومتي أثارته لدرجة أنه ضربني على كتفي وبقبضة اليد على ظهري بشكل مؤلم إضافة لضربات على الوجه والرقبة. قوته الجسدية وضعفي كانا يؤلماني، لم أتفاعل ولم أعترض حتى حين كنت على مشارف العشرين من عمري وعندما كنت أحضر الدكتوراه في جامعة هارفارد وكان يحتج بأني كنت وقحاً تجاه والدتي. كنت أتنبأ حصول الضربات عندما يستنشق بعمق ويغير شكل شفته العليا. كنت أفضل كرباج الفروسية على ضرباته القوية المؤلمة.

والدتي أيضاً كانت تلجأ للضرب على الوجه والرأس عندما تغضب لكن أقل قوة وعنفاً من والدي.

وأنا بصدد كتابة هذا الكتاب تسنح لي فرصة متأخرة في الحياة. الخبرات ككل متكامل دون غضب مع حزن وحب لوالديّ. رغم كل ما فرضه عليّ والدي من قيود، أثبت قبوله أن يترك لي خياري في المستقبل، أن أتبع طريقي الخاص الذي اخترته بنفسي. أثناء إقامتي في Princeton وHarvard شجعني على السفر، على عزف البيانو، أن أعيش بشكل صحي، ويوقع الفواتير دون تردد رغم ابتعادي عن متجره كالابن الوحيد الذي يمكنه أن يخلفه.

باع متجرة بكل هدوء وسرية في الوقت الذي أتممت أطروحتي لنيل الدكتوراه في الآداب.

ما لم أتغاضَ عنه هو وسائله في تصليح جسمي وجهده وتربيته الجسدية ترك كل ذلك خوفاً في أعماقي صاحبني أطول وقت في حياتي. دائماً أرى نفسي كجبان كانت تطغى عليه كوارث لأخطائه بالعقوبات التي تفرض عليه.

حرص الوالدين وتخوفهم على مصير جسمي بنواقصه وعدم توازنه أثر على ظهوري، عندما كنت في الخامسة من عمري تم قص شعري الطويل المجعد ولأن صوتي كان يشبه صوت مغني أوبرا، ووصفته والدتي بالحلو، شعرت باستنكار والدي وخوفه من تحولي إلى أنثوي المظهر. صفة رافقتني حتى سن العاشرة.

موضوع نادر غريب في شبابي، كان الهجوم على شكل وجهي المتراخي وخاصة منطقة الفم. والدتي كانت تروي أسطورة (Anektode) لـ: ليوناردو دافنشي Leonardo Da Vinci الذي رأى في لوحة مرة وجهاً للمسيح ومرة أخرى وجهاً لـ: يهودا وأسطورة أخرى تروي أن لينكولن حكم على شخص بسبب وجهه القبيح.

عندما سأله صديق لماذا؟ ولا أحد مسؤول عن بشاعته، أجاب أجل كل مسؤول عن بشاعة وجهه. تساءلت فيما إذا كان وجهي بشعاً لأني عذبت أخواتي وما أكلت حلويات سراً، أو لأني صرفت كل خرجيتي، وأشهر والدي يده وأدخل إصبعي الإشارة والإبهام في فمي وحركه بعنف يساراً ويميناً وهو يصدر (امـ ما مـما مـ) الصوت غير المسر، ثم يقول هذا الفم الرخو.

وأذكر إني حتى ميلادي العشرين كنت أقف أمام المرآة وأجري تمارين عشرة إلى ثلاثين مرة لأشد علامات وجهي الرخوة. عادات جلين فورد Glen Ford تقليص عضلات الفم لإظهار القوة كان قدوة مبكرة لي كرد فعل على

اتهامات والديّ. هذا كان السبب الذي دفع والديّ لعدم رغبتهم أن أحمل نظارات. الوالدة كما تقول النظارات تخفي وجهك الجميل، كانت تنتقد بسرعة كما كانت دوماً تكثر المجاملات. القسم العلوي من جسمي ما كان يُذكر قبل بلوغي سن الثالثة عشرة عام ١٩٤٩ قبل دخولي كولج فيكتوريا. والدي التقى في نادي الجزيرة ما دعي السيد مراد الذي كان افتتح قبل فترة في شارع فؤاد العوال ستدويود رياضة في الزمالك وسرعان ما سجلني والدي لممارسة الرياضة ثلاث مرات في الأسبوع مع اثني عشر كويتياً جاؤوا للدراسة في القاهرة. من التمارين كان حني الركب، اللعب بكرة طبية، فقز وجوغن Joggen. كل ذلك في مكان صغير مربع الشكل. وسرعان ما تحولت إلى لوح قذف للمدرب السيد رجب. اجهد نفسك كان يصرخ باللغة الإنكليزية، إلى فوق، إلى تحت وهكذا، بعد أسابيع قليلة انفجرت القنبلة. تعال ادوارد يجب أن نعمل على زوال بطنك/ أجبته هدف التمارين كان ظهري فقال صحيح لكن منطقة البطن ليست سليمة.

أضاف إن والديّ يريدان الأكثر وما كنت تكلمت مع أهلي عن البطن. مجدداً عانت علاقتي مع جسمي من جديد وأصبحت أكثر بلبلة وأقل ثقة بنفسي. أوصاف يديّ تعرضت للفحص من قبل والدتي، تأكدت أن بنيتي الجسدية لا تشابه عائلة السعيد الذين لم يكونوا طويلي القامة، وغامقي اللون، ليسوا نحيفين، كما لا أشابه عائلة الموسى حيث كانوا بيض البشرة، معتدلي القامة، طويلي الأطراف. من هذا تبين لي أني أختلف عن العائلتين وأملك صفات جسدية لا يملكونها. في سن الثانية عشرة كنت أطولهم جميعاً وبفضل والدي

كنت أمارس عدة أنواع من الرياضة ما كان أحدٌ منهم يمارسها : كرة المضرب (تينس)، سباحة، كرة قدم (رغم فشلي)، ركوب الخيل، ألعاب رياضية خفيفة (Athletik)، كريكيت، كرة الطاولة، رياضة الشراع، والملاكمة.

ما تفوقت في أي نوع من الرياضة وذلك من خجلي أن أغلب منافساً، لكني طورت مؤهلاتي مع الزمن زادت قوتي الجسدية والعضلية مع تحملي للمشقات ما أحتفظ به حتى اليوم. بالأخص يدي اللتين كانتا كبيرتين وبالغتي الحركة. من جهة كانت والدتي معجبة بهما ومن جهة أخرى قالت أصابعك أدوات قاتلة، انتبه سوف يجلبان لك مصاعب.

حسب رأي الوالدة كانتا كل شيء ما عدا يدي، كما شاءت، أسلاك شوكية، بسامير، مقصات، ولما لم تكن مثارة أو غاضبة، كانت يداي أدوات ناعمة ولطيفة، بينما كانتا تلفتان نظر والدي فقط لأني كنت أعض بأسناني على أظافري، ما حاول على مدى سنوات أن يبعدني عن هذه العادة بدهن أظافري بسائل شديد المرارة ووعدني بعلاجي في محل العناية بالأظافر ChezGeorges الذي يرتاده الأريستوقراطيون في شارع قصر النيل وكان هو بدوره يرتاده. لم تكلل مساعيه بالنجاح وكنت أتجنب أن يرى يدي وأخبئهما في جيوبي كما لا أدير ظهري له لأتجنب تعليقاته.

الصفات الجسدية والمعنوية كانتا تختلطان ولما كان الحديث عن لساني كانت التعليقات "دائماً سلبية. باللغة الإنكليزية كانت الأوصاف فيما يتعلق باللسان "لسان عاضة أو حادة" بدلاً من الناعمة على عكس اللغة العربية حيث يطلق على اللسان "طويل"، ما يطلق في المجتمعات العربية على ما هو غير لبق أو متسرع في الحكم أو الكلام عن الآخرين.

كنت أخالف العادات والتقاليد عندما أتحدث عن الوالدين، عن الأقارب، عن المعلمين، والأخوة ما أقلق والدتي وجعلها تتنبأ لي بمستقبل مظلم. كما أنني ما كنت قادراً على الاحتفاظ بأسرار، وكنت أقول ما يجب أن لا أقوله. كان ينظر إلى هذا السلوك في المجتمع العربي كسلوك معتاد وينظر لي كإنسان شرير يجب الحذر منه.

ربما كان الأمر يدور حول الجنس ومحاولة والديّ أن يحمياني منه. عندما سافرت إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥١ كنت بعيداً عن الجنس كل البعد. لم يكن لي علاقات مع بنات، أفلام صراع تحت الشمس، خارج على القانون، كانت ممنوعة عليّ، حتى الدراما فابيولا لـ: ميشيل مورغان كانت ممنوعة علي، بقيت الممنوعات حتى سني الرابعة عشرة في ذلك الزمن لم تكن مجلات جنس ولا فيدوات جنس موجودة والمدارس التي زرتها في مصر والولايات المتحدة حتى سني السابعة عشرة كان الجنس فيها ممنوعاً.

وكان الأمر نفسه في معهد برينسيتون Princeton الذي كنت أدرس فيه حتى سن الواحدة والعشرين. كان الجنس ممنوعاً إطلاقاً والكتب وكل اللوازم المدرسية تتعرض للتفتيش بالرغم من المكتبة الكبيرة وفضولي وصعوبة تفتيش كل شيء. الخبرات الجنسية وصفها بكل تفصيل Wilferd De Saint Mande – في مذكراته عن الحرب العالمية الأولى.

كان ضابطاً بريطانياً ما عرفت شيئاً عنه سوى أنه كتب ما يزيد عن ستمائة صفحة من ساحات الحروب أو عن مغامراته الجنسية. كان صديقي السري في شبابي، أعني كتابه. كمارق وابن طبقة اجتماعية عليا وعسكري

متعطش للدم أعجبني كما هو. ظاهرياً حرص المسؤولون أن يبعدوني عن كل ما له علاقة بالجنس دون أن يتم الكلام عن ذلك. رغبتي بمعرفة الكثير، تخطي الحواجز التي نصبها والداي حتى اضطرهما على ما أتذكره بعد ستة وعشرين عاماً من حدوثه، ما يجعلني أرتعد. بعد ظهر يوم أحد بارد نهاية شهر تشرين الثاني ١٩٤٩ الساعة الثالثة بعد ميلادي الرابع عشر ببضعة أسابيع طُرق باب غرفة نومي بشكل عنيف وسرعان ما فتحت قبضة الباب والدلائل تشير إلى أن السبب ليس ودياً. كان ذلك هجوماً عنيفاً على كياني الشخصي. والدي وقف لحظة في الباب وفي يده اليمنى بقرف بيجامتي التي نسيتها صباح ذلك اليوم في غرفة الحمام. رفعت يديّ لألتقط البيجاما منتظراً تعنيفه لتركي أمتعتي مبعثرة. قال لا تترك أمتعتك حتى يأتي من يرفعها، الخدم ليسوا لخدمتك. كونه لازال محتفظاً بالبيجاما بيده توقعت أن يكون الأمر أكثر تعقيداً وانخفضت في سريري خوفاً مما يأتي.

وعندما تقدم أكثر في الغرفة شاهدت وجه والدتي خلفه متشنجة الوجه، لم تقل شيئاً لكن وجودها كان ليضفي ثقلاً على المقابلة. والدتك وأنا تأكدنا أنه لم تكن لك أحلام رطبة ملوحاً بالبيجاما، كون الأمر ما كان كذلك، يعني أنك وسخت نفسك رغم أن هذه المواضيع تعرضت للكلام. لأول مرة تعرضت لوعظ من هذا النوع عندما كنا على ظهر باخرة في شهر تموز ١٩٤٨ في طريقنا إلى نيويورك. بدأ ذلك عندما سألت والدتي عن رجل وامرأة مغنيي أوبرا على ظهر الباخرة اللذين أبحرا معنا على ظهر الباخرة ساتورينا، المرأة كانت تلبس أحذية بكعب عالٍ تلبس ثوباً أبيض ضيقاً، أكثرت من المكياج

على شفتيها ، بينما الرجل ارتدى بدلة بنية اللون وأكعابه أيضاً عالية وشعره ممشط إلى الوراء . كلاهما كان له شعاع جنسي ما استطعت تصنيفه .

في لحظة مفاجئة سألت والدتي عن اصطلاحات ما كنت أعرفها لألحق بها الحيرة والبلبلة . ما كنت أعرف عن العضو المذكر أو المهبل ، عن المداعبة ، كنت أعرف تعابير تقتصر على الحاجات البدائية كالتبول وما شابهه . الانطباع الذي خلفه سؤالي عند والدتي هيأ حديثاً مفصلاً مع والدي عن هذا الموضوع . سلطته المطلقة عليّ تجسدت بالصمت وتكرار صورٍ كان قرأها في كتاب لـ : توم براون ، أيام المدرسة Tom Brown, School days وفي الإنجيل والمواعظ البروتستانتية وشكسبير وهكذا .

بدأ بالقول : تصور أن يمتلئ تدريجياً ولما يمتلئ ، وأشهر قبضته ليشكل فنجاناً وباليد الأخرى فوق اليمنى وكأنه يزيل الفائض من الفنجان ، يفيض الفنجان فتكون حلمت حلماً رطباً . وتوقف عن الكلام .

ثم تابع ، هل رأيت حصاناً ربح السباق الذي لم يحافظ فيه على نفس السرعة ، طبعاً لا ، إذا بدأ الحصان بسرعة سوف يتعب وتتضاءل قدرته . نفس الأمر فيما يتعلق بك . إذا وسخت نفسك لن يطفح فنجانك ، أي لن تربح ولن تنهي السباق .

لاحقاً حذرني من صلعة أو الإصابة بالجنون إذا وسخت نفسي . والدي لم يتكلم أبداً عن العمل الجنسي ، لما سألت كيف ينشأ الطفل كان الجواب كما هو معتاد .

حبل والدتي المتكرر وانتفاخ بطنها ما كان ليعطي جواباً مرضياً . كتبنا للمسيح رسالة هو بدوره أرسل لنا أطفالاً . لاحقاً على الباخرة شرح والدي لي قدراً ضئيلاً كيف يُدخل الرجل عضوه التناسلي في عضو المرأة التناسلي دون

أية كلمة إيضاحية وما تحدث يوماً ما عن القبل، ذكر لأول مرة القبل عندما كنت في الكولج وقال لي يجب عليك أن تتزوج امرأة لم يقبلها أحدٌ قبلك، واحدة مثل والدتك. استمعت لأول مرة عن عذرية المرأة عندما كنت في العشرين من عمري. بعد ما عدنا من الولايات المتحدة في خريف عام ١٩٤٩ وجدت فرصتين للحديث بين رجل ورجل صاحبهما شعور بالذنب من طرفي. سألته مرة كيف يعرف المرء أن الحلم الرطب حدث، أجاب تتعرف على ذلك في الصباح. وما كنت أحاول توجيه سؤالات أخرى. هو بدوره كان يكرر فشل الرجل بإنجاب الأطفال بالمستقبل فيما إذا لجأ إلى توسيخ نفسه. والدتي كانت تؤيد مواقفه وتقول لماذا تفعل ذلك ادوارد، لماذا تؤلمنا؟

أثقلت بتلك العظات بالخوف، والشعور بالذنب وما نسيت تلك اللحظات التي أذهب إلى السرير حائراً وضائعاً. لما شاهدت بعد الاستحمام أو تصورت أني رأيت في شعري أثر سقوط تذكرت ما قاله والدي: إن قص الشعر قصيراً ينجيني من الصلع كما هو يفعل وتجنباً لأخطار توسيخ الجسم. أين تعلمت ذلك، فجأة خطر لي جوابٌ منقذ، في نادي المعادي وكنت فعلاً شاهدت شاباً في غرفة تبديل الملابس يفعل ذلك، أما والدي فلم يكن مهتماً حقاً بالجواب وبقي طويلاً يملي عليّ الوعظ. خلال السنوات الأربعة التي عشناها في القاهرة، تمرن والدي بالرقابة لأنه كان من المصريين الأوائل الذين يمتلكون كاميرا كوداك.

كان دائماً يصور ادوارد، زوجته، أولاد العم، العمات والأعمام دون أن يصور أحداً بعيداً عن العائلة. كنت معجباً بالكاميرات وتقنيتها المعقدة. ولم يكن ماهراً بإزالة أعطاب طارئة على عكسي. كان يشتري أفلاماً صغيرة

ويضعها في الكاميرا لتعرقل عملها وليسحبها ويرميها ويشتري غيرها . كل كم أسبوع يذهب إلى محل تصوير في شارع عدلي باشا لتحميض الأفلام وكنت أرافقه وكان يعرض الأفلام في البيت والتي تبلغ رؤيتها ثلاثين دقيقة .

مرة أو مرتين في الشهر أسدلنا الستائر في غرفة الجلوس، نصبنا الشاشة، أطفأنا الضوء جلسنا في مقاعدنا المريحة لنرى أنفسنا في حديقة الحيوان، خلال نزهة بالصحراء ، أو عند الأهرامات . بعد وفاة والدتي بستة أشهر في عام ١٩٩٠ وجد في خزانة باكيتات من الأفلام مرتبة بكل عناية في صناديق زرقاء وبيضاء كان والدي كلف مستخدميه بتنظيمها . كان العدد خمسة وثلاثين ربطة تحوي مائة وعشرين فيلماً صورت بين عامي ١٩٣٦ و١٩٥٢ ـ بعضها كان يحمل "القاهرة ١٩٤٤ ـ القدس ١٩٤٦" بخط والدي . وعرس يوسف كلها تفوح منها رائحة وصور العرض في الأمسيات الماضية؟

أخذتها معي إلى نيويورك وكان فضولي يدفعني إلى مشاهدتها بين الحين والآخر لترقد في الماضي والنسيان . صدفة بعثتها إلى الحياة من جديد .

بينما كان محررون من الـ: BBC يصورون فيلماً وثائقياً عن كتابي الثقافة والاستعمار طلبوا مني صوراً عائلية فعادت إلى ذاكرتي، أخرجتها وأخذوها معهم إلى لندن ونقلوها إلى شريط فيديو . لم تحزنني نوعية الأفلام، كاشفة أو غامقة لكنها عزلت مراحل ومشاق من حياتنا . ابتسامة الأوجه ومرح والدتي أعطى انطباعاً غير واقعي عن حياتنا، عائلة كانت مصممة أن تضفي على نفسها صبغة أوروبية مصطنعة . أما البيئة المصرية والمحيط العربي كانا يظهران ولشديد الأسف بشكل جميل، حدائقي، خادم، نخلة، أهرام، أو

سائق بالطربوش بينما ركزت الكاميرا على الأطفال والأقارب، إضافة إلى ذلك كانت أفلاماً من محيط بيتنا في شارع جابالايا وشارع عزيز عثمان مع حديقة السمك التي لم يتغير سياجها حتى اليوم وادوارد وروزي يلعبان ويضحكان.

نفس المشهد يعيد نفسه تكراراً في الزمالك، في القدس، في الصحراء، في النادي، وشوارع أخرى من القاهرة يميزها الركض والوجوه البشوشة. والاختلاف شاسع بين الصورة والفلم. لعبنا وكان الوالد يصور بلا كلل، أراد أن نقبل بالوجه على الكاميرا. كانت الأفلام طبيعية حيث ما كان الوالد محترفاً يُغير ما يُصور. كلما غادرنا المنزل لأي اتجاه كانت الكاميرا ترافقنا وكان هدف الوالد إظهار بريق الإمبراطورية التي خلقها وحكمها واذكر أني في الثانية عشرة من عمري بدأت الكاميرا تقلقني. رافق ذلك خيالي أن أكون بدون جسم، ما كان موضوع إنشاء في المدرسة حيث تمنيت أن أكون كتاباً ومصيره السعيد أن يبقى دون تحريف وتغيير خالياً من النقد لمظهره، ما كان مطبوعاً كان يعني بالنسبة لي استقراراً ثابتاً ووحدة في المظهر، ينتقل من مكان إلى آخر، من زمن إلى زمن حتى لو كنت أنا أقذف خارجاً من سيارة أو أنسى في رف ما. مرات كان يخفق والدي في التقاط نواحٍ معينة من حياتنا. يوجد مظهر يُري كيف يلعب طفل أو أنا أمام عريس وعروس يتمرنان على درج بيتنا على طقوس الزواج في عام ١٩٤٧.

بدا وكأن كاميرا والدي تفوقت على كاميرا خليل رعد، بأرجلها الثلاثة، حيث كان يُدعى من عمتي وأولادها إلى كل المناسبات العائلية. رعد كان يحتاج لمزيد من الوقت عندما كان يستعد لتصوير جمع أو تجمع عائلي. ما أحد

كان يتنبأ أن أفلام رعد ستتحول في المستقبل إلى أرشيف ضخم عن حياة الفلسطينيين حتى عام ١٩٤٨ قبل الطرد من وطنهم. كما جاء في كلمات وليد خالدي. اهتمام والدي بالحركة الذي ربما كان رد فعل على أفلام رعد حوَّل أفلامه إلى جزء هام من هذا الأرشيف.

كانت لقطات ترى عمي بولوص زوج عمتي نبيهة مع إيلين بدر صبرا Ellen Badr Sabra والعم منير وزوجته لطيفة وابن عمي ألبرت مبتهجين يضحكون يتحركون في أفلام والدي.

ما ظهر أحدٌ بلباس بسيط عادي ربما لأن التصوير جرى في الشتاء وما كان يظهر إشعاع الشمس القوي، النساء كن يرتدين فساتين غامقة وملابس قطنية والرجال ملابس غامقة والأطفال كنزات وقبعات وجوارب طويلة، والدتي فقط ظهرت لسبب ما بأكمام قصيرة ربما لاعتراضها على التوجيه الدائم للكاميرا الذي كان متعمداً من والدي. جدتي "تيتا" ما ظهرت أبداً حيث ما كانت ترغب أن تُصور، لا أدري لماذا ولماذا لم تكن تأكل الشوكولا وما كانت تشرب الشاي إذا سبق ووضع في الفنجان قليل من الحليب. كما أنني ما كنت أعرف لماذا كانت تضع كل مقتنياتها اليومية مثل محارم، وورق رسائل قميص نوم، أقلام، وورق لعب دائماً في كيس قماشي زينته بمساطر تطريزية معقدة. بالنسبة لمفهومها كانت تلك أشياء ذات أهمية وكانت تعارض والدي حتى وفاتها.

بعكس جدتي لم أتصدَ لوالدي أبداً وكنت ضعيفاً وفاشلاً ألم يجب على الأهل أن يكونوا قدوة لأولادهم، في كل الأفلام التي شاهدتها كان منظراً

أعطاني انطباعاً آخر عن "ادوارد" كان المنظر صور على طرف مسبح في نادي المعادي في صباح يوم أحد من شهر حزيران تُرى كم من الذين يسبحون يقفزون ويمرحون، أهالي الأطفال يتفرجون ووالدي يشغل الكاميرا تائهاً بين الجموع متنقلاً بين هنا وهناك.

اكتشفت فجأة نفسي، شاب صغير في مايوه غامق مع كمر أبيض، بدا كما لو كنت هربت من رؤية كاميرا والدي. هذا المشهد أتأمله بعد حدوثه بخمسين عاماً متأملاً بالتفاصيل وبدور والدي أن يكرزنا حوله، طرقه وأساليبه في تربيتنا دائماً إلى الأمام دون أية هموم مالية نرتكز عليه، خزائننا كانت دائماً مليئة بالمواد الغذائية، حظينا بأحسن تعليم، ملابسنا جيدة، خَدَمُنا يقومون بواجباتهم على أحسن شكل نسافر دوماً بالدرجة الأولى وما شعرت يوماً أن الوالد يضغط علينا.

مشهدي في الفلم في المسبح كان يريني تملصي من سلطته وكيف سلكت طريقي وأن ادورد ليس فقط المطيع الذي استسلم لأساليب والده الفكتوريانية التربوية.

والدتي كانت تبرر وسائله ومظهره المتشدد بإعطاء ذلك قدراً من الدفء، كان الأمر كأنه تمثال من المرمر، وظيفتها أن تضع الكلام في فمه التي تؤدي مهمتها على أحسن شكل. كانت تتكلم معي وكأنها تنوب عنه تفصح عن مشاعر ما كان هو يفصح عنها زَيَّنته وقدمته كأب حنون راعٍ ليس كما يبدو عليه من قسوة وتشدد ما كان يسيطر عليّ حتى وفاته.

قالت لو كنت تسمع ما كان يروي للناس عن "ابني"، وهو فخورٌ جداً بك ورغم ذلك ما كنت أسأله عن مساعدة بشكل مباشر أو أرجوها منه. أذكر

كيف اصطحبني يوماً إلى حديقة السمك في القاهرة ولم يدخل هو إليها بل كان الدخول محظوراً على والدتي.

تمشيت وراءه بينما كان هو أمامي سريع الخطوات ويده على ظهره، تفشكلت ووقعت وصرخت "ديدي" متأثراً بخدوش وجروح خفيفة، فوقف والتفت حولي لثوانٍ ثم تابع سيره. هذا كان كل شيء. هكذا توفي دون كلمة واحدة، أدار وجهه للجدار. تساءلت كثيراً هل كان حقاً يرغب بأن يقول أكثر مما قاله؟.

الفصل الخامس

في مدرسـة القـاهرة للأطفـال الأمـريكيين في خريـف عـام ١٩٤٦ (Csac) دخلت المدرسة كابن رجل أعمال أمريكي رغم عدم شعوري المطلق أني أمريكي. في اليوم الأول أشعرني سائق باص المدرسة بقدر من الطمأنينة وهو يأخذنا من الزمالك إلى المدرسة في صباح يوم مشمس من شهر تشرين الأول من الزمالك والباص مليء بأطفال أمريكيين لا أعرف أحداً منهم يصخبون في غاية الثقة بالنفس يرتدون قمصاناً ملونة وشورتات، إذ كان السائق يونانياً من مدرسة، عمتي ميليا. تعرف عليّ وعاملني بكل احترام ووقار غير مفروضٍ عليه. وما سبق لي ورأيت هذا التجمع من أمريكيين، وداعاً لوقت ارتداء الملابس الرمادية الغامقة وللهمس التآمري للأولاد الإنكليز وغيرهم من الشرقيين في مدرسة الـ: GPS وأيضاً للأسماء الإنكليزية والفرانكوعربية مثل: Dickie, Derek, Jeremy, Micheline, Nadia الآن تغيرت الأسماء منها:

Marles, Marlene, Annekji, Marjies, Nancy, Ernst, Chuck

لم يعرني أحد قدراً من الاهتمام. انتسب "ادوارد سعيد" وبشكل ما أصبحت منهم. لكنني شعرت كل صباح بارتباك لدى صعودي الباص عندما كنت أشاهد التلاميذ بقمصانهم الملونة وجواربهم المسطرة. بينما كنت أنا أرتدي

شورتاً رمادياً، قميصاً أبيض، وأحذية أوروبية برباط. أثناء الدرس تغلبت على ضعفي بتفوق مقنع لأشاهد التلاميذ في الفرصة يأكلون سندويشاتهم المدهونة بزبدة الفستق، بيضاء اللون، وعليها الجبنة والـ: شينكن[1]، لم يسبق لي ورأيت ما يشابهها. بينما أنا آكل الجبنة بالخبز الشامي، لأشعر من جديد بالفوارق فلا أحد أراد أن يجرب أكلي أو يأخذه بعين الاعتبار.

بينما كنا نجلس ذات أمسية على البلكون أخرج والدي جوارب من جيبه مسطرة وقال أن طياراً أمريكياً كان أعطاه إياها، سأل هل تريد أن ترتديها وكان الأمر وكأنه عملية إنقاذية.

لبستها في اليوم التالي وبعده ما رفع معنوياتي. في الباص لم يلاحظها أحد وكان متوجباً أن تغسل. أن أتحول لأصبح أمريكياً بارتداء جوارب مثل جواربهم، شعرت بارتباك عميق. حاولت أن أقنع والدتي أن تهيئ سندويشاتي على الطريقة الأمريكية بتحضيرها وبوضع الزبدة والمربى عليها لكن بدون تحقيق أي نجاح. توست ومربى نأكل عند الفطور، أريد أن أتغذى بطريقة مجدية، ماذا في غذائنا، تساءل والدي.

المدرسة القاهرية الأمريكية للأطفال كانت أُسست لأطفال موظفي شركات البترول ورجال الأعمال وأبناء العاملين في السفارة الأمريكية، تقع في أطراف المعادي قرب محطة القطارات وتبعد كيلو ونصف الكيلو متر من النهر. كان حجمها يساوي حجم مدرسة الـ: GPS لكنها كانت تضم حديقة بحجم

1 شرائح لحم خنزير مطبوخة أو مُدخنة.

هيكتار. في خلال سنتي الأولي في المدرسة ٤٦/٤٧ تخللتها إقامة ربيع القدس، حُولت نصف مساحة الملعب إلى ملعب لكرة السلة بعد ما تم فرشه بالزفت، بينما في مدرسة GPS اقتصرت الرياضة على لعب الشبكة.

كلعب مشابه لكرة السلة خصوصاً للبنات. تخلل ذلك احتفالات بعيد ميلاد الملك مع استعراضات صوحبت بالرقص والتصفيق والموسيقى الشعبية الإنكليزية.

في مدرسة CSAC تعلمت لعب كرة السلة وألعاباً أخرى ما كان والدي يعرفها. كمدير شرف لـ: CVJM القاهري جمعاً من الأرمن واليهود الماكابيين وضيوف من الجيش الأمريكي، أخذنا لألعاب ما كان هو نفسه يعرفها. تميزت بلعب Softball بقاذف للكرة وقابض لها، لكن والدي ما أراد أن ينظر لي وأنا بارع في اللعب.

قاهرة بعد الحرب أظهرت فروقاً شاسعة بين طبقات الشعب. أكثر ما تجلى في التغيرات هو إحلال الأمريكان بدلاً من الأنكليز، الإمبراطورية القديمة أخلت المكان للإمبراطورية الجديدة ووالدي حقق أرباحاً جمة. في احتفالات الـ: GPS كان في مركز الحدث السيدة بادن بول Baden – Powell أو روي شابمان اندرو Roy Chapman – Andrews كرموز للهيبة والاستقلال الإنكليزي. دون أي إشارة لأي رمز عربي، بريطانيا كانت تعلو الكل. وكان يبدو لنا ذلك طبيعياً ومسلماً به. ظهور شفيق غوربال عالم تاريخ مصري معروف وموظف كبير في وزارة التعليم في أول مناسبة احتفالية لمدرسة: CSAC التي أتذكرها بيّن الفروق الاستعمارية، قالوا: بالنسبة لنا كشركاء هو أن ندعوك لإلقاء كلمة في أحداث مثل افتتاح البرلمان، أو في عيد ولادة

الملك فاروق، ما لم يأخذ بشكل ما بالاعتبار في مدرسة All Things Bright. GPS and beautiful طغى على إنكلترا المشعة الجميلة.

ولّت تلك الفترة أدبارها واختفى النشيد من دماغي. أذهلني أن الأمريكان أدخلوا تعليم اللغة العربية في مناهجهم، ولما ادعيت أن: Saijied اسم أمريكي، شاهدت في درس اللغة العربية لحظات لا تنسى سيئة. أخفيت اتقاني للغة الأم لأتعامل مع الشرح للطلاب الأمريكيين. لم أتقدم بسؤالات أبداً وجلست، أكاد، مختفياً في الصفوف الخلفية.

لكن عندما تكلمت معلمة اللغة العربية الجميلة عن انطباعاتها في افتتاح مدينة ملاءٍ في الجزيرة وخاصة الاستعراض الطيراني تحت اسم "سعيدة" حدث ما استفزني.

حسب اسم شركة طيران مصرية جديدة. في صف صغير وصفت انطباعاتها بكل تفصيل تعيد كلمة سعيدة باستمرار وكأنها تستفز اللغة العربية التي تختفي في اسمي. رغم أني حاولت أمركته، قالت كلا إذا لم تجرب سعيده ضاع عليك الكثير. سعيدة تبسط، سعيدة رائعة، توقف عن الانتماء لـ: Saijied، أنت سعيد كون سعيدة، ما كنت أستطيع التجاهل. صنفت بالصف السادس الذي كان يتألف من طابقين، جوه[1] يعطي انطباع غرفة سكن. كنت ضحية المعلمة ميس كلارك التي حولت حياتي إلى جحيم وحطمت ثقتي بالنفس. كانت هادئة الطبع، متحفظة، وتسيطر على نفسها. كانت في الثلاثين

1 أو الورد والزهر.

من العمر، وبتخميني فهي تنحدر من الشمال الأمريكي البروتستانتي الإنجليكاني، متعجرفة، شديدة الثقة بالنفس. ما كنت أعرف ما يزعجها مني، وتحولت بعد حوالي عشرة أيام إلى عدوتي.

كان النظام الأمريكي حراً بالنسبة إلى النظام الإنكليزي، كانت الطاولات والكراسي في المدرسة مبعثرة في الصف على عكس المدرسة الإنكليزية التي كان النظام فيها شبه عسكري.

ما عدا مواد اللغة الفرنسية والعربية والفنون، كانت المعلمات الأمريكيات بزينة مبالغ فيها وملابس ملونة على عكس معلمي مدرسة GPS، مثل ميس ويلسون وغيرها. وعلى الأخص مستر مارك فانديك مدرب لعبة كرة السلة. مرة لبس زيّ جامعة أوهايو ليلعب معنا في بعد ظهر حار في القاهرة وحولنا فلاحون بجلابياتهم التي يلبسونها منذ القدم، مع حميرهم وثيرانهم، من هذا المنظر الخلفي ظهر مستر واننيك بأطرافه المشعرة وقصة شعره العسكرية ونظارات دون إطار كصورة مخالفة سوريالية.

ألفت النظام الأمريكي جذاباً، مريحاً، ومفصلاً على مستوى التلاميذ. كتب الـ: GPS كانت مطبوعة بأحرف صغيرة ناعمة، دون صور، وجافة المواد. التاريخ والأدب على سبيل المثال قدما بشكل جاف مجرد، بحيث أن من الصعوبة قلب الصفحة، في درس الحساب وضع أمامنا كم من الأعداد جمع وطرح وتقسيم وضرب مع كم من الشابلونات والقواعد والمقاييس والأوزان، الأبعاد متر ويارد وتسول، كل ذلك وجب علينا حفظه عن ظهر قلب ما كان في غاية الملل.

كتب مدرسة GPS كانت تشبه بطاقات السفر بالباص، بينما كتب: CSAC كانت تتميز عنها بسؤالات ممتعة مع صور مشروحة وأمكنة للكتابة بينما كانت الكتابة في كتب GPS ممنوعة. الكتب الأمريكية كانت تدعو للكتابة فيها. والأجمل كانت الكتب التي كانت مس كلارك توزعها علينا كل صباح. كل كتاب كان يحتوي على عائلة في مركز الحدث ووجب أولاً التعرف عليها.

في كل عائلة كان أخت وماما وبابا إضافة إلى مستخدمين ذوي انطباعات، إما حزينة أو ضاحكة سعيدة. بمساعدة العائلة تعلم التلميذ الجمع والطرح والواجبات الوطنية أو التاريخ الأمريكي، الآداب كانت تعالج بشكل منفصل. خلف ذلك كان القصد أن التعليم توجب أن يتم دون عناء وتعب كقضاء يوم في مزرعة أو في ضاحية من مدن سان لويس أو سان فرانسيسكو. الإشارة إلى مخازن ومحلات بيع أدوات حديدية أو مستهلكات رخيصة يومية كانت تصيبني بالبله، لكن ليس الأمر كذلك بين التلاميذ الأمريكيين لأن أغلبهم كان قد عاش في سان لويس أو في لوس أنجلوس، بينما كانت تحتوي على ما يهمني من بيع المرطبات أو البوظة ما كان يشغلني.

شعرت بسرور طيلة شهر، لكن مس كلارك والتلاميذ لم يتركوني وشأني. بعد شهر بدأت أشعر بالحنين لمدرسة GPS، لنظامها الصارم والقواعد السلوكية المنتظمة.

معلمو الـ :CSAC لم يستعملوا العنف ولم يهددوا باستعماله ما ترك الصبية يتشاجرون مع بعضهم البعض ويجربون قوتهم الجسدية. عيد الميلاد حوّل كل يوم إلى عذاب، عندما كنت أشق طريقي في الباص بين صفوف الذين

يضربون بقبضات أيديهم أو أقدامهم الذين كانوا في الصف ينصاعون لتعليمات مس كلارك. اليوم المهين كان عندما زرنا معمل سكر على الطرف الآخر من المعادي على ضفة النيل. فكرة زيارة المعمل كانت بالنسبة لي جديدة بعد عشرين دقيقة شعرت بالملل وما كنت أصغي لما يقال، لكن ما كان لي خيار غير أن أبقى في الصفوف التي كانت تتجول من مكان إلى آخر في المعمل. المرافق بدا وكأنه يستمتع في شرحه التكنيكي حوالي نصف ساعة، بينما بضع دقائق كانت تكفي. كان رجلاً متوسط العمر بطربوش فرزته الإدارة من إحدى الوزارات خصيصاً لهذه المهمة. مس كلارك كانت دوماً معنا ولم ألق نظرة واحدة عليها، ما كان ذلك مني خطأ فادحاً. الزيارة كانت تختلف كلياً عما قدمه الاستعمار الإنكليزي وبدأت أجمع أفكاراً عن السلطوية الإنكليزية والطريقة الأمريكية التي تتيح للمصريين فرصة تقرير النفس في اليوم التالي التقينا كالمعتاد في الصف. مس كلارك جلست وراء المنصة وبدت كما هي دائماً غير مخترقة الأفكار، تريد أن نتحدث عن زيارة البارحة متوجهة إلى: ب. ج. بنت بشعر قصير بصوتها الهادئ وتعبيرها المقتضب ما جعلها كأحسن تلميذة في الصف. تحدثت بكل تفصيل عن الزيارة، هل تريد أن تقول شيئاً آرنست سألت مس كلارك أقوى وأكبر التلاميذ، أجاب ليس عندي ما أضيف. جلست أشعر بالملل ولا أعير مس كلارك أي انتباه. قالت أنا فخورة بكم قمتم بمهمتكم البارحة على أحسن وجه وانتظرت أن تهتم بعد ذلك بوظائفنا المدرسية. لكنها قالت واحدٌ إبراهيم أفندي لم يصغ، واحدٌ تخلف خلف الحدث، واحدٌ يتململ، واحد يعلك أظافر يديه، واحد عَيْبٌ الصف.

تساءلت من هو هذا الواحد ، لأفاجأ قالت أنت ادوارد كان سلوكك مخزياً لا أعرف أحداً غيرك غير موهوب بعدم التركيز، شارد الأفكار، ما فعلته البارحة أغضبني، راقبتك طيلة الوقت ولم يحدث شيء ما يبرئ ذمتك، سوف أتكلم مع ميس ويلس (المديرة) حولك وسوف أرجوها أن تدعو أهلك للحديث عنك. صمتت ونظرت لي بكل ازدراء، ثم تابعت لو كنت تلميذاً صالحاً لسامحتك لسلوكك البارحة لو كنت مثل التلميذة ب. ج. لكنك أكسل تلميذ في الصف.

مس كلارك أصابتني في الصميم، رأتني كما أرى أنا نفسي عبرت عن ذلك علناً، شعرت وكأني مثبت على مقعدي، وجهي أصبح شديد الحمرة وجربت أن أكون مستاء وقوياً في نفس الوقت. كرهت الصف وكان الكل يصغي لما حدث وشعرت باستنكارهم وفضولهم، لاشك تساءلوا من هو هذا الشخص من أين يأتي. هدأت مس كلارك وعادت لأمور الصف كما لم يكن شيء حدث. نظرت إليها بعد عشر دقائق فيما إذا كانت توجه لي نظرات تَعَطُف لكنها بقيت كما هي. مس كلارك جمعت بين كل الانتقادات التي كانت تكال لي في مدرسة GPS وفي البيت. وضعتها في درج واحد وكأنه مُفَصل لي. ما شعرت بقدرتي على رد الاتهامات ودفع العيب الذي ألحقته بي. ادوارد بكل عيوبه ونقاط ضعفه وخطاياه، عزل عن نواته التي اعتبرها غير محددة، حرة، فضولية، سريعة، شابة، حساسة، وحتى عذبة. الآن سُدت الطرق وأجد نفسي أمام "أنا" ليس منظماً، معكوساً كلياً، في مكان ما وجب أن يكون فيه. كرهت هذه الشخصية لكن لم يكن لي خيارٌ آخر. وصلت الأمور إلى حد توجب عليّ أن أذهب إلى ميس ويليس (المديرة) امرأة متقدمة بالسن،

بيضاء الشعر من الوسط الغربي في الولايات المتحدة. بدت محتارة في أمري بدل أن تكون غاضبة، مس كلارك لم تكن حاضرة لكن الفرق كان شاسعاً بين تعنيف مس كلارك والمحاضرة ميس ويليس التي أظهرت فيها صفات المواطن حسب قواعد الاستعمار البريطاني الذي تَرَكَتهُ منذ فترة وحسب مقاييسه يجب أن نكون في أحسن الأحوال منصاعين مطيعين دون شروط.

كان على والديّ القدوم والحديث مع مس كلارك ومس ويليس، مس كلارك تركت انطباعاً عميقاً عند والدتي. من روايتها حصلت على تقرير مفصل عن نقاط ضعف ابنها دون سابق مثيل.

ما قالته لا أعرفه، لكن تجدد على مدى سنوات في تحذير والدتي. انطباعات مس كلارك عني ترسخت طويلاً في عمق والدتي وأخذت شكلاً أقوى. ما فكرت أن أسأل والدتي كيف تحالفت مع سيدة اشتقت أحكامها من خلفيات ظلمية (سادية) بدلاً من خلفيات تربوية.

تصورات أن أكون في مدرسة الـ: CASC كغيري للتأكد أني كنت غريباً أكثر ما هو الأمر في مدرسة الـ: GPS كانوا يقولون صباح الخير و(هاي HI) على عكس الـ: GPS وكان من المهم من يجلس إلى جانب من؟ في الباص في الصف، على مائدة الطعام. كانت فروقاً بين التلاميذ ليس بفعل الأعمار أو التفوق المدرسي، بل بالقوة الجسدية والإنجازات الرياضية. قدوة التلاميذ كان هنري في الصف التاسع شقيق التلميذة "بادي" التي كانت في صف أدنى. كانا أولاد مدير شركة ستاندارد أويل، كان يبلغ طول ستان متراً وثمانين سم، ذو إشعاع وذكاء ورياضي بامتياز - ضحكته كانت متميزة

بشكل كانت تطغى على جو الفرص. حسب الطول كان منافسه إرنست براند وشاهدت مرة مشاجرة بينهما.

كان لستان وضع قيادي بلا منافس بينما تغيرت تحالفات الآخرين باستمرار. كنت دائماً في خلاف مع تلميذين أحدهما آليكس ميلار، أبواه كانا يعملان في السفارة وكلود برنكارت أمريكي من أصل بلجيكي وكان والده ممثل شركة كالكتيكس في مصر، كان لكليهما أختان جميلتان السمراء أماريليس والشقراء مونيك ظهرتا لي وكأنهما أكبر سناً. أماريليس جلست أحياناً إلى جانبي في الباص وكانت دوماً لطيفة وأبهرتني في رحلة مدرسية إلى مسبح المعادي في بذلتها الثنائية[1] للسباحة. للمرة الأولى شاهدت جسم امرأة شبه عارٍ ومن الغرابة أنه أبعدنا عن بعض، مونيك كانت رشيقة خفيفة الحركة في المدرسة، كلاهما ما توافقا مع أخويهما الأصغر سناً اللذين ما كانا أصدقائي بل على العكس كانت عداوة مستحكمة دون توضح الأسباب.

أذكر حين تعاركت أنا وآليكس في الباص، كان على الطرف الآخر من المقعد، وجه ضرباته لرأسي وبطني لكني تصديت له بضربات محكمة تعلمتها من معلم الملاكمة سيد في نادي CVJM. ومن الغرابة أني لم أنس تلك الأحداث البعيدة ولماذا استدرجت لمثل هذه العداوات.

على عكس الـ: GPS حيث أن مشاجرة لم تطل سوى بضع ثوانٍ بفضل التدخل السريع للمعلمين، تبنت الـ: CSAC فلسفة أخرى. حيث خصص

1 يعني قطعتين ستيان وكلسون.

مكـان للمـشاجرات للتخلص مـن طاقـات محتقنـة . لا أذكـر لحظـات وديـة في الفرص أو علاقات ودية تطفو عليها الزمالة .

كلود برانكارت وأنا كنا متخاصمين وما عدت أتذكر الأسباب . كنا دوماً متهيئين للمشاجرة لما وصل بنا الأمر ذروته ، تلاقينا على حقل نضرب بعضنا بعضاً حتى سقطنا متعانقين على الأرض كل يحاول أن يقنع الآخر بالاستسلام . مشاهد جان بيير سابت الذي كان يسكنُ في المعادي الذي زارني لأسباب لا أعرفها في الـ : CSAC كغير أمريكاني ، قال لازال يحاول إخفاء رغبته في القتال ، لم ينته القتال . بدلاً من أن أبقى تحته مغلوباً تغلبت قوتي الجسدية عليه ، تخلصت من قبضته وكلت له الضربات حتى قلبته إلى الطرف وأكملت الضربات ليظهر ميستر فانتيك فجأة ويفصلنا عن بعضنا متسائلاً ما حل بكما ويرسلنا إلى بناء المدرسة . قبل ذلك بسنة حدث نفس الشيء وانقلب الأمر منْ خسارة إلى تفوق ما قوى إرادتي في أن أتخطى قيوداً بدأت تجاوزها . في نهاية أسبوع قابلت في مسبح المعادي "جي موسيري" الذي كنت لا أعرفه من الـ : GPS وأخذنا نلعب بالركض والقذف في حوض السباحة .

كنا نتسابق حتى شعرت بقرب خسارتي لأكتشف إرادة وقوة حولت خسارتي أمامه إلى نصر سرعان ما أعترف به .

هذه الفترات من الانتصار على المنافس كانت نادرة . مدرسة CSAC أجبرت ادوارد أن يكون غير متخوف ، أكثر ثقة بالنفس ، أكثر ما كان يقلق مشاعري هو الشخصية الأمريكية المصطنعة التي تختفي وراءها شخصية عربية ما استمديت منها قوة ، بل بلبلة وشعوراً غير مريح . ستان هنبي وآليكس ميلار كنت أحسدهما على هوية ثابتة ما كان ينقصني .

جان بيير ثابت، ملك أبو العز، وحتى البرت كورونيل رغم كونه مصرياً ويهودياً. ورغم ذلك يحمل جواز سفر إسبانياً، كلهم كانوا هم أنفسهم، ما توجب عليهم أن يخفوا شيئاً وأن يلعبوا دوراً أمريكياً. عندما ظهر تلميذ تحت اسم "بوب سميحا" في سنتي الثانية في المدرسة اعتقدت أن مواطناً ظهر على الساحة لأن والديّ قالوا لي أن اسم سميحا عربي يهودي. حاولت بصور غير مباشرة البحث عن روابط مشتركة بيننا، لكن سؤالاتي عن أقارب في حلب أو بغداد قابلها بالاستغراب وأجاب: أنا أنحدر من "نيوروشيل" New Rochelle ومنه تعلمت: "Your Father.s Mustache"

في كل يوم في المدرسة كنت أشعر بالهوة في حياتي كـ: إدوارد" هوية خاطئة وبين حياتي في البيت حيث الرفاه الاقتصادي لوالدي نما بشكل ملحوظ بعد عام ١٩٤٦ بدأ والدي ووالدتي يقومان مرتين بالسنة برحلات إلى أوربا، أمريكا وآسيا. ولأني الابن الوحيد توقع والدي أن أهتم بأعماله المتشعبة المتناثرة هنا وهناك. قائمة طويلة من الشركات التي كان يقوم بدور "وكيل" لها أخذت تسيطر على حياتنا اليومية في أحاديثنا:

كل هذه المنتجات وجدت طريقها عبر الآبارتمانت رقم عشرين في شارع عزيز عثمان رقم واحد في الطابق الخامس:

أقلام حبر، حبر، موبيليا معدنية، كراسي وطاولات، كاسات شوب، آلات كاتبة ماركة رويال، آلات حاسبة ماركة مونرو، مقصات وسكاكين غير قابلة للصدأ من زولينغن، ماكينات نسخ ماركة إلماس وا. ب، أدوات مكتبية، موبيليا مكاتب ماركة مارتزن، دهونات، آلات حسابية سويدية، آلات كاتبة آلية ماركة شيكاغو وأحدث منتجات فيبر ـ كوستيلو.

ما تعرفنا فقط على المنتجات بل على منتجيها مثل أليكس كالدور هنغاري أو روماني عازب من عمر والدي.

مسافر من أجل آلات رويال الكاتبة والذي عاش في العالم أجمع درجة أولى، جاء مرتين في السنة إلى القاهرة وزارنا لشرب شيء ما ثم دعا والديّ وأنا أيضاً منذ سنتي الرابعة عشرة لطعام الغذاء، أعجبت بصفاته وكأنه ألف كل شيء في الدنيا ما عدا الزواج.

كان سميناً ويحب الـ: "مليبا توست"[1]، كان يشبه بيلا لوغوسي Bela Lugosi الذي ما كان يسمح لي أن أرى أفلامه لكني أعرف شكله من الدعاية لفلمه قبل عرض أفلام الأطفال. والذي بدأ بعد الحرب يسافر ليزور مكاتب ومصانع المنتجين الذين كان يمثلهم. عندما غادرت القاهرة كان متجر والدي أكبر متجر للأدوات المكتبية في الشرق الأوسط.

أنا أيضاً نشأت عندي روح عدائية لمنافسي والدي مثل: Olivetti, Roneo, Parker, Gestetner, Adler, وغيرهم الذين ناقشنا منتجاتهم الأقل جودة في اعتقادنا بتحمس. وكانت علاقتنا بالموظفين والمستخدمين وكأنهم من أفراد العائلة. وبقوا طويلاً في متاجرنا ما عدا السيد بانيكيان المحاسب الذي كانت زوجته بأسنانها البارزة تزورنا في البيت وتثبت قدرتها على عزف البيانو، رحلوا في عام ١٩٤٦ إلى أوستراليا. حسب ادعاء خلفه، وبعد هجرته افتُقد مبلغ كبير من عهدته..

---

1 ماركة خبز فطور أبيض يقمر بآلة كهربائية.

الباقون بقوا جمعاً من الأقليات مصريون مسلمون وقبطيون، بعد ١٩٤٨ لاجئون فلسطينيون، الذين أقنعت عمتي تيني والدي بتوظيفهم ما فعله دون تردد. ما فعله والدي لمساعديه كان مثلاً حياً، لامباس يوناني وأكبر الموظفين كان مفوضاً، بيتر أرمني مسؤولاً عن أدوات النسخ، أكوب ونيقولا للآلات الكاتبة، صبحي قبطي للرزنامات وأقلام الحبر شيمي للمستودع، أحمد للمحاسبة ما عدا رهط كبير من المساعدين.

في مكتب والدي على الطرف الآخر من الشارع كان لديه سكرتيرة وسكرتير عربي هو محمد أبو عوف رجل قصير القامة بنظارات، عرف بصبره اللا حدودي ونظامه ودقته ما يقارن بتلميذ مجتهد لكن ليس ذا موهبة وغير قادر على إنهاء دراسته. السكرتيرة كانت أنيقة الملبس واعية ميس آنا مانديل كانت تزورنا أحياناً لشرب الشاي لكنها اختفت بعد معركة العلمين.

كانت تعمل عند والدي منذ عام ١٩٣٢ قبل زواجه بسنة وأتذكر في طفولتي أن والدي ذكرها في أحاديثه. لاحقاً دريت أن ضياع عملها يعود لوالدتي التي قالت لي مرة ما، أن مس مانديل كانت ترغب الزواج بوالدي، سألت هل كان لها علاقة غرامية به، كان الجواب بالطبع لا، لكني لست مطلقة الحكم. أغلب الموظفين كانوا بموافقة والدتي أغلبهم في شباب عمرهم، متوسطيه، تغلب عليهم السمنة، بطيئين، ليسوا حركين بعكس مس مانديل التي كانت نحيفة القامة وجميلة.

قسمان آخران أكملا جيش العاملين في متاجر والدي، الأول قسم المحاسبة تحت قيادة أسعد كواكباني الذي وظفه والدي منتقلاً من شركة

محاسبة إنكليزية وجعله وكيله. ما لم يمنع والدي معاملته معاملة الأغبياء إذا أضاع فاتورات أو أخطأ في الحسابات. والموظفون الذين كانوا تحت إشراف أسعد كانوا ماهرين في عملهم حيث خضعوا لإشراف مستر سعيد كما سماه والدي. كما كان أيضاً قسم للتصليح أدير من رجل اسمه "هراتش" بنفس سن لامبس الأمني غالباً ما يغلب عليه الصمت. اعتبره والدي عبقرياً في التصليح كان يصلح كل شيء حتى مطبخنا وألعابنا وموبيليا بيتنا. كان والدي بارعاً في عمله حيث أسس ورشة لتصليح كل مبيعاته إذا اقتضى الأمر. تغلب على منافسيه أنه أقنع المشترين بعقود على سنوات طويلة لتصليح ما يشترونه. هارتش كان يعمل تحت إشرافه حوالي ثلاثين ميكانيكياً أغلبهم يقتنون دراجات نارية وهوائية يمكنهم الاتصال بالزبائن بسرعة، زبائن شركة: Standard Stationery Company – SSCo كما سميناها.

والدي وظف جيشاً من الخدم بالعربي "فراشين" الذين عملوا كموزعين، طباخي قهوة، حمالين، أو منظفين، بعضٌ منهم استعملوا دراجات ذات ثلاث عجلات ولاحقاً سيارات شحن صغيرة عبر القاهرة. على كل ذلك حكم والدي كملك مطلق، ما كان يقبل انتقاداً وحاز على ولاء واحترام الجميع لكفاءته وذاكرته ومعرفته بكل كبيرة وصغيرة في مملكته كحاكم مطلق. بفضله تطورت البيروقراطية المصرية وحلت الآلات الكاتبة، خزائن المصنفات، وآلات النسخ محل كومات الورق وورق الكربون والنسخ، وورق الفحم كما اخترع بمساعدة والدتي "تاستاتور مُعرَّب لشركة رويال "وتعرف على الأريستوقراطي "جون باي ريانز John Barry Ryans صاحب شركة رويال.

(تاستاتور أعتقد تسمى في العالم العربي باسمها الإنكليزي "كيبورد")

كان يتمتع بمواهب أسطورية قيل إنه كان يحل بسرعة فائقة عمليات حسابية معقدة كما أنه يعرف سعر وتاريخ بيع كل منتجاته التي يتجاوز عددها الآلاف.

كان منظره مذهلاً أن يراه المرء خلف الطاولة وحوله أسعد وعدد من رؤساء الأقسام والسكرتيريين كلهم يبحث في أوراق ومصنفات، بينما كان هو يعرف كل تفصيل من ذاكرته عن البيع وعن كل المنتجات من كل الموديلات من آلات الحساب أو أقلام حبر شيفر Sheaffer. ما جعل منه صبوراً خلوقاً متسامحاً كان دائماً منصفاً وعادلاً. كان يدفع لكل موظف ومستخدم علاوة حين يحين عيد الميلاد أو عيد الأضحى أو عيد هاشانا.

كما يخصص رواتب لحالات التقاعد أو تكاليف صحية. حين ذاك ما كان كل هذا ليترك عندي انطباعات مؤثرة، شعرت أني أدار أو أُتابع ما ترك لي الوقت أن أعجب وأقدر مهاراته التجارية التي طورها في بلد من العالم الثالث مازالت تقبع في مستنقع الاقتصاد الاستعماري والنظام الإقطاعي. واليوم وفي نظرة خلفية أقر بإنجازاته ومهاراته التي ما لقيت قدرها في ذلك الوقت. كان رأسمالياً عصرياً بمواهب فوق العادة ما خاف يوماً ما من مخاطر وتكاليف رغم أرباح كانت ترتقب. مهر بالدعاية والتسويق وعرف حاجات ورغبات زبائنه ما جعله ينتج ما هم بحاجة له. أحد إنجازاته كان كاتالوجاً سنوياً يحتوي على كل المنتجات ما لم يكن خطر على بال أحد من المنافسين قبله. قال لي مرة أن ابن عمه بولوص في القدس حذره من التكاليف التي تترتب. عندما تطورت الأعمال واتسعت تنازل عن (الكاتالوكات) وطبع بدلاً عنها قوائم لكل منتج

على حده ما أرضى زبائنه أكثر، بتكاليف قليلة دفع زبائنه ليعملوا له ولمصلحته. بهذه الطريقة نما ونما نطاق أعماله رغم نكسات صعبة، ووظف أرباحه لمصلحة ورفاه عائلته. قبل سفري للولايات المتحدة في عام ١٩٥١ لم يجد والديّ رغم ذلك مدخلاً للطبقة العليا المصرية. رغم غناه بقي محيطه مقتصراً على تجار المُفَرَّق والعائلة. لهذا المحيط انتسب اسحاق غولدنبرغ، صاحب مجوهرات يزود العائلة، وأسطي أبراهيم النجار بشواربه الخاصة التي كانت تشبه مقود الدراجة الهوائية الذي كان يجهز منزلنا ومكاتب والدي بالموبيليا. إضافة لذلك كان عديله محمود أسطي إبراهيم وأصغر إخوة والدتي اميل والذي كان يعمل عند والدي ومراد عصفور أحد موظفي الـ: CVJM الذي أثقل والدي بديونه التي كانت تبلغ آلاف الجنيهات عندما أفلس مخزنه التجاري للأدوات الرياضية وكان والدي كفيله المالي وأخيراً نجيب كيلادا كانت تتمتع بصوت جميل وغنت في: AmerikanMission Church استُكمل هذا المحيط ببعض من الأقارب مثل العمة ميليا والعم آل وزوجته إميلي وأولادهم وبعض الأقارب من فلسطين الذين كانوا يزورون القاهرة للتسوق. كانت زياراتهم غالباً في أوقات الطعام. على سبيل المثال اسطى إبراهيم ما كان يأكل خبزاً أبيض وكان يحب أكل الثوم، فضل الفول على اللحم، راقبت عادات تناول الطعام بدقة لأقارن فيما بعد بين عادات وعادات في مدرسة CSAC. لماذا يلبس الأمريكان جوارب ملونة ولا يلبسها مصريون وعرب، ما كنا نرتدي تيشرت T- Shirts هم يرتدونها. آثار انتقادات واستنكار المعلمة مس كلارك تركت آثارها عندي في البيت، تضاءلت الانتقادات لضعف التركيز عندي ونقص النشاط، وقوة

شخصيتي. لم أستفد من هذه الانتقادات وأوظفها لصالحي بل كنت أتصدى لها وكل ما كنت أفعل كان يحتاج الإذن، أستثني لعبي بالقطارات الكهربائية "ليونيل" التي كان والدي أحضرها معه من زيارة في الولايات المتحدة في عام ١٩٤٦ سمح لي بالاستماع إلى ثلاثة برامج إذاعية في الأسبوع، برنامجين تحت عنوان: Children,s Corner يوم الأحد بعد الظهر ومساء الأربعاء قدمت بلكنة عاطفية لا تطاق من العمة والعم باللغة الإنكليزية أثناء الحرب وبعد ذلك باللهجة المصرية تقلد أصوات العمة لولو والعم فؤاد. وسمعت برنامجاً لـ: BBC: Nights at Opera "الأحد بعد الظهر في الساعة الواحدة والربع" وكانت المرة الأولى التي استمعت فيها لأوبرا كاملة. كانت "عروس سميتان المباعة" كنت معجباً ومستمتعاً لدرجة حاولت تصور عرس تشيكي.

الموسيقى كانت بالنسبة لي خياراً مقابل ضغط تعلم العزف على البيانو الذي يربطني بـ: Burgmuller Czerny, Hanon ما لم يحرك عواطفي.

ومن ناحية أخرى كانت تمارس العزف على البيانو تعتمد على قواعد منظمة من مكتبة والديّ لـ: Opera Book, Kobbe, Opera Nights, Ernst Newmans مجموع الإسطوانات في بيتنا لم يكن لها ترتيب وكانت خليطاً من:

Jeanette MacDonald, Nelson Eddy, Richard Strauss, Paderewski, Paul Robeson, Bach وأخرى غريبة مُسلية لـ: Deanna Durbin, Halleluja, Mozart.

وحين اترك خيالي يسرح في عالم الموسيقى، أتصور أمامي مسرحاً كبيراً مع الكثير من ربطات العنق السوداء ونساء بالت: "ديكولتيه" والدي اعتاد أن يذهب إلى اجتماعات تنظيم الروتاري وهو يلبس "سموكنج"، الاجتماعات السرية. وعندما كنا نزور كمشتركين حفلات دار الأوبرا والباليت القاهرية، كان لباس والدتي لباساً مسائياً احتفالياً أكد على ثدييها الجميلين وعنقها الأبيض. كل هذه التخيلات والانطباعات غذت فضولي الجنسي.

وخاصة الإخراج والموسيقى، أحياناً ظهرت مثل فلم MGM إذ كان وقت المايسترو خوزي اتوربي JOSE ITURBI بعصاه غير المستقيمة عاكسة الضوء الأحمر مما أعطى أجمل الانطباعات كما في الصور المثيرة التي رأيتها في كتب كوبي ونيومان Kobbe, Newman خاصة صورة لوبا فيلتيا Ljuba Welitsch ممثلة سالومي "Salome" في لباس سباحة تشعل خيالي وتجعل الأوبرا مسرحاً لخيالي الحبي العاطفي.

فاجنر Wagner بقي السر الغامض ما جذبني باسطوانته على وجه "هاغن فاخت Hagen Wacht وعلى الوجه الآخر "هايغنروف Hagen Ruf حتى سنحت لي الفرصة في عام ١٩٥٨ زيارة مهرجانات "فاغنر" في بايرويت[1] Bayreut غنى هاغن مغنٍ إنكليزي ألبرت كوتاس ما أعطى جواً هائلاً معبراً يختلف عن جو الأطفال الأمريكيين والجو المنزلي اللذين ألفتهما. أسطوانات والديّ التي ما كانت خاضعة لنظام وما أعطتني صوراً واضحة عن تاريخ الموسيقى الغربية وحقبها كانت ملاذي إذ لولاها لكنت مختنقاً بدروس عزف البيانو.

1 بايرويت مدينة في ولاية بافاريا في جنوب ألمانيا قرب مونيخ يقام فيها سنوياً مهرجان موسيقي وأوبرا للموسيقى "فاغنر".

في مدرسة الـ CSAC: كنت تلميذ مس شيريدجان Miss. Cheridjian التي حلت محل معلمتي الطيبة الصبورة ليلى بيرباري Leila Birbary التي تحولت زياراتها لبيتنا لنقاشات حول قدرتي غير المتوفرة لتعلم العزف على البيانو. تخلل ذلك أصوات شربها للقهوة ومضغها لقطعة الكاتو التي أحضرها الفراش أحمد. شيري كما سميناها تمكنت من إقناعي أني كسول غير قادر على تعلم العزف على البيانو، بينما كنت أحصل على معلومات عن الموسيقى والأوبرا والموسيقيين مثل:

Edwin Fischer, Wilhelm Kemp, Bronislaw Huberman

من الكتب والأسطوانات.

يقام فيها سنوياً مهرجان موسيقي وأوبرا للموسيقى "فاغنر".

في نهاية الأربعينات تمكنت أخيراً من زيارة دار الأوبرا في القاهرة التي كانت بنيت في عام ١٨٦٩ بمناسبة افتتاح قناة السويس من قبل الخديوي إسماعيل.

شاهدت فَصْل ليريك أتاليين Lyrique italienne وفرقة باليه شامبز اليزي Champs – Elysees تحت قيادة جان بابيل Jean Babilee وناتالي فيبلبيارت Nathalie Phillipart ولا أنسى ليومي هذا الرقص الرائع الذي قدموه.

كنت أرى في الرقص شيئاً من الخبرة الجنسية بشكل غير مباشر. القاهرة كانت مدينة عالمية كان يسيطر على حياتها الثقافية الأوربيون الذين تعرف والدي على بعض منهم عن طريق أعماله. مدرسة CSAC التي قضيت فيها عامين ٤٨/٤٩ أخذت موضعاً جانبياً، شعرت فيها بالعزلة والملل وما كانت لها تأثيرات ثقافية. زيارة دار الأوبرا في شهور الشتاء وسّعت ثقافتي الموسيقية،

تعلمت كثيراً عن التلحين، عن الأداء، عن الممثلين والتقاليد. من هذه الفترة يأتي عدم صبري واكتفائي بالمعلومات في الكتب.

أول أوبرا شاهدتها كانت "أندريه شينير" Andre Chenier: جيوردانو Gordano كنت في الثانية عشرة من عمري، أتذكر أني سألت والدي هل يغنون طيلة الوقت هنا أم هناك فرص للكلام، كما هذا الحال في الأفلام والأسطوانات، قال كل الوقت. الجواب أتى لاحقاً بعد بضعة أسابيع في حفل ممل مساء يوم في سينما ديانا لأم كلثوم. بدأ في التاسعة والنصف وانتهى بعد منتصف الليل بدون فترات راحة. كان بالنسبة لي شديد الملل، ألحان متكررة على نفس الوتيرة لا تتبدل (Monotonie) حزيناً وكأنه نوبة من الأوجاع.

كما لم أفهم شيئاً مما غنته ولا كلماتها. مقارنة مع Andre Chenier كان الأمر حيوياً، وذا محتوى وحركياً.

جينو بيشي Gino Bechi بشكل دائم عضو فرقة الأوبرا الضيقة، والتي أتى مغنوها من روما، نابولي، وسان كارلو، أدوا غناء جيرارد بحركة وعمق ما افتقدته وحاولت تقليده في غرفتي راقصاً قافزاً لم تختفِ تأثيراته عندي. أعمق انطباعاتي الموسيقية تعود إلى لحظات بعيدة عن ساعات تعليم العزف على البيانو التي فرضت عليّ من والدتي والمعلمة شيري. ذكريات الموسيقى الحية التي استمتعت بها كانت حاضرة في أعماقي تنتشلني من الوحدة والعزلة اللتين كانتا تطغيان على حياتي. لهذا بحثت دوماً عن إمكانية حضور حفلات حية. كنت في الثالثة عشرة من عمري شاهدت "حلاق إشبيليا" Barbier von Sevilla' شعرت بنفسي مقيداً وفي الوقت نفسه كئيباً لأني كنت أدري أني لن أشاهد

العرض من جديد . بَهْجَةُ روسيني ونُكَت تيتو غوبيس وسيطرته على المسرح، أداء إتوري باستيانيني الهزلي لانكولونيا LaCalunnia لن تعود عن قريب. بعد ذلك بسنة قرب عيد الميلاد وكجاسوس في غرفة الوالدين، تنبأت بشيء ما . اكتشفت تحت شجرة عيد الميلاد "ألبوماً" مع ثماني اسطوانات من حلاق إشبيليا هدية من والدتي. بين المغنين كان: ريكاردو ستاكياري، دينو بوغيولي، مرسيدس كابسير، وسالفاتوري باكالوني Riccardo Stracciari, Dino Brogioli Mercedes Capsir, Salvatore Baccaloni .

فتحت الباكيت وسمعت كل الأسطوانات مغلقاً باب الغرفة حتى الصباح عند شروق الشمس. أن تعاد متعة الاستماع في الأوبرا في غرفتي، كان ذروة السرور.

بيتهوفن كان له أكبر الأثر في تربيتي الموسيقية، كما قيل لي لم أكن مؤهلاً لعزف قطعاته ونُصحت أن أحاول عزف قطعات موزار. لكنني حاولت خفية عزف "الباتيتيك Paththique" لتشايكوفسكي. انتقادات والدتي الدائمة جعلتني أهرب إلى الاسطوانات مثل: ميندلسون، فوري، وهيندل Mendelssohn, Faure, Handel

دعيت مرة لزيارة حفل Musicaviva orchetra في قاعة Ewart في مبنى الجامعة الأمريكية في القاهرة. ذلك المساء قاد الأوركسترا هانز هيكمان. اللاعب في ألحان بتيهوفن كانت موريل هوفارد زوجة مدير الـ: AUC وأم كاتي زميلة لي من مدرسة CSAC والدي كان على معرفة جيدة بـ: المدير وورث هووارد Worth Howard الذي كان رنين اسمه يجسد لي قوة أمريكا. أصر على أن يُعرفني ووالدتي على زوجته المتواضعة، التي انتهت من أداء

"الكونتسيرت" . برافو صاح والدي ملتفتاً إلى والدتي لتعاضِدُه . قالت رائعاً كان أداؤها لتلتفت لي بنظرات محذرة . لم أتفوه بكلمة واعتراني الخجل . قالت ألا تري أهمية الإتقان والتمرين إدوارد .

بينما شغفت أنا بأداء السيمفونية لبيتهوفن التي تم غناؤها باللغة الإنكليزية . تأملت بحسد الأداء والإتقان وخفة حركة الأصابع ما حاولت نقله لأصابعي عبثاً .

أما كانت تخونني على البيانو . أروع خبراتي الموسيقية التي حصلت عليها في القاهرة ، كانت في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ مع فرق الضيافة كليمينز كراوس Clemens Krauss وفيلهيلم فورتينجلا Wilhelm Furtwanler مع فرق أوركسترا برلين وفيينا .

كوني لم أتمتع قبل ذلك بالإبداع الرائع ، بقي لي ذلك ذكريات لا تنسى حاولت أن أحتفظ بها ما أمكن رغم الساعتين في سينما ريفولي ولا أفهم لماذا تم اختيار سينما ريفولي بدلاً من قاعة ايوارت هال Ewart Hall . ما دفعني للبحث دوماً عن أسطوانات غالية السعر أعاود وأستمتع بالسماع . كنت أتأثر كيف تمضي لحظات تمتع بالموسيقى واقعية أو حية بهذه السرعة .

تعويضاً لذلك كان البحث عن اسطوانات وكتب ومقالات وأناس يقاسمونني الإحساس ويعيدون كل ذلك إلى الحياة ما كان مهدداً بالزوال .

سنة بعد كراوس في يوم أحد بعد الظهر كان في البرنامج على مسرح ريفولي "فورتفينغلر" كان ذلك أكبر وأعمق ما شاهدته من سنواتي الاثنتين والعشرين قابله افتتاح الـ : راين غولد Rheingold عام ١٩٥٨ في بليرويت .

ما كنت أعرف من فورتفينغلر غير الاسم الذي كان على غلاف أسطوانة بيتهوفن الخامسة. بقيت الأسطوانة اسطوانتي المفضلة طيلة خمس سنوات وكانت تمثل ذروة القوة مقارنة مع بقية الاسطوانات. القوة أتت من الدرجة الأولى من اسم فورتفينغلر الذي تصورته رجلاً عظيماً عالي الثقة وكأن موسيقى بيتهوفن صنعت من أجله. تصديت لابن عمي بادعائه أن شعار الاسطوانة الخامسة لبيتهوفن هو "المصير" وقلت له الموسيقى موسيقى لأني كنت عاجزاً عن الوصف ماذا يحرك مشاعري في الموسيقى.

كان لنا نفس المقاعد في الصف الذي كان محجوزاً وكما قال والدي "للطبقة الخاصة". البرنامج كان جيداً كما كان الانطباع الخارجي، سيمفونية شوبرت غير المكتملة، سيمفونية لموزار، السمفونية الخامسة لبيتهوفن، أما برنامج آخر لم أحضره قدمت فيه السيمفونية السادسة لتشايكوفسكي والسابعة لبروكنار. كان والدايّ يعتقدان أن برنامج بعد الظهر يناسبني.

ربما خافوا من تأثير بروكنار الذي لم يكونوا يعرفونه. فورتفينغلر بقامته النحيلة الطويلة وصلعته الجلالية كل هذا خلف لدي أحسن انطباع. كان يختلف عن كراوس بعصاه القصيرة بدا لي أنه يدير الأوركسترا أكثر بكتفيه وذراعيه دون أوراق تتصفح مثل هانز هيكمان. كانت الانطباعات أكثر ما تخلفه أسطوانة وأعمق. حين كنت أسمع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ما كانت لتخلف نفس الانطباعات كما هو في السماع الحي رغم ذلك كنت أعشق الخامسة وأسمعها باستمرار. محاولات في القاهرة أن أعرف أكثر عن فورتفينغلر باءت بالفشل. بعد نهاية الحرب لم تعد هناك جمعيات ألمانية تتعامل مع المجمعات الثقافية البريطانية، الفرنسية أو الأمريكية.

بحثت في صحف مصرية مثل الأهرام، Egyptian Gazette, Progres Egyptian وفي مجلات روز اليوسف والهلال دون أن أجد شيئاً عن فورتفينغلر. طغت على القاهرة مجلات Phtoplay, Silver Screen وبينما كان المرء يعرف كل شيء عن: Janet Tony Curtis, Leigh لم يعد يعرف شيئاً ما عن الأصدقاء.

الحرب انتهت ولكن ما كان من الممكن معرفة ما يحدث في ألمانيا. في عيد ميلادي الخامس عشر أهداني والديّ: Percy Scholes, Oxford Comlpanion to musik. ومازال بحيازتي. عثرت في الهدية على إشارة عن فورتفينغلر تقول إنه ولد في عام ١٨٦٦ في مقالة سطحية عن الموسيقى في الإمبراطورية الألمانية الثالثة ودور فورتفينغلر بقضية "ماتياس الرسم Mathias der Maler" لم يشرح لي ذلك كيف كان فورفينغلر بعد الحرب موضع جدل ولماذا تأخذ مسألة الأخلاقية والـ: التعاون[1] Kolaboration هذا القدر من الاهتمام.

ما دفعني للتمسك حصرياً بفورفينغلر كان شعوري بالوقت الذي شعرت أنه يحاصرني ويضايقني. ما عدا لحظات قليلة في الصباح كنت مقيداً بساعات الدراسة والواجبات والتكليفات دون أن يتبقى لي الوقت للمرح أو التفكير.

---

1 فورتفينغلر يعتبر من مشاهير الملحنين ومدراء أوركسترات ودور أوبرا في ألمانيا تنقل بين دور عديدة، ميلاده بالقاموس هو ١٨٨٦/١/٢٥ سألت أصدقاء كبيري السن فيما إذا كان يهودياً وتعاون مع الحلفاء خلال الحرب كما جاء في كتاب لإدوارد سعيد فلم يستطع أحد الإجابة.

في الثانية عشرة من عمري حصلت على أول ساعة يد ماركة تيسيوت انظر لها دوماً دون أن أتأكد من حركتها، خائفاً أن تكون توقفت عن الحركة. شكيت أن تكون مستعملة ما أكد والدي العكس وأنهى الشك. قارنتها مع ساعات زملاء مدرسة CSAC وبدت لي أقل ثمناً ما عدا رسوم: Mickymaus, Popeye على الساعات الأمريكية التي مثلتها. وأعطتني الساعة الشعور أني مكتمل اللباس. كانت تعطيني انطباعات مستمرة أني متأخر.

كنت لا أنام جيداً وأذكر دقة الاستيقاظ والشعور بالسرعة، ما كان يتوفر لي وقت للكسل أو الشرود اللذين كنت أميل لهما. منذ ذلك الوقت أشعر أني تحت ضغط الوقت وأعاركه دوماً. أحياناً كانت الساعة بالنسبة لي عوناً يريني أنه لا زال بعض الوقت متبقياً إلى جانب واجبات المعلمين والوالدين وما فرض عليّ. منذ بلوغي سن الرشد بقيت حياتي مرتبطة بالوقت مثقلة به. وأيضاً مجرى اليوم والذي لم يتغير، استيقظ الساعة السادسة والنصف، من السابعة والنصف يبدأ اليوم بالساعات وأنصاف الساعة مدرسة، كنيسة، ساعات خاصة، أعمال مدرسية، ساعات بيانو، ورياضة وهكذا حتى النوم. في الحادية عشرة كنت أشعر أن الصباح أنتهي ولم أنجز شيئاً وأنا أكتب الآن الساعة تشير إلى العشرين بعد الحادية عشرة. التاسعة مساء يعني لي دوماً تأخر الوقت وقرب النوم. الساعة كانت ترسم لي المسار وتحافظ على سيره، كان والدي يحذرني من عدم لبس البيجاما أو روب الحمام في الصباح وكان يستهجن "الشحاطة". ولليوم لا أستطيع لبس روب الحمام في وقت متأخر من الصباح لأن ذلك يشعرني بالذنب المكتسب والكسل. مرض مفتعل أو مبالغ

كان يعفيني ولو مؤقتاً من تلك الواجبات. عائلتي كانت تضحك لرباطات على يدي أو أصابعي أو ركبي ما كنت أحياناً أصطنعه.

اليوم على عكس الماضي مصاب بمرض غدار شرير "لوكيميا" أضع رأسي كالنعامة في الرمل أتجاهله وأطرده من أفكاري أحاول الوصول لبعض النجاحات متحدياً الزمن بشعور عدم الإنجاز والتأخر ما تعلمته على مدى خمسين عاماً وترسخ في أعماقي.

هل ينقذني، أتساءل ضمناً، نظام الواجبات والمدد المحددة، رغم معرفتي الدقيقة أن مرضي يتطور ويتقدم وهو أمهر من الوقت الذي تفصح عنه ساعتي. حينذاك ما كنت أشعر أن الساعة قاست وفاتي، جزأتها ضمن فترات تتخللها أوقات معينة.

الفصل السادس

١ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ عيد ميلادي الثاني عشر بقي في ذاكرتي بسبب قوة عنفه، عندما شكا أولاد عمي يوسف وجورج الأكبر سناً مني، من القدس؛ أن هذا اليوم مساء قبل يوم، وعد بلفور كأسود يوم في تاريخنا. لم أكن أعلم عما يتكلمون، لكني لاحظت أن شيئاً في غاية الأهمية حدث.

حسب رأيهما حيث جلسا مع والديّ على طاولة الاحتفال بعيد ميلادي مع الكاتو، أن قضية معقدة كصراعنا مع الصهيونية والبريطانيين لا تصلح لأذنيّ.

والدايّ وأخواتي قضينا معاً أغلب الوقت من عام ١٩٤٧ في فلسطين قبل أن نغادرها للمرة الأخيرة في شهر كانون الأول من نفس السنة. لهذا السبب تغيبت عن مدرسة CSAC عدة أشهر وسُجلت بدلاً عنها في مدرسة سان جورج في القدس. قرب الأزمة كانت تدل عليه الأجواء في كل مكان. قُسمت القدس لمناطق والجيش البريطاني والشرطة كانوا يفتشون الحواجز والمشاة وراكبي الدراجات، الأكبر سناً في عائلاتنا كان بحوزتهم جوازات تختم فيها المناطق، جوازا والدي وابن عمي يوسف كانا يحويان على أربعة مناطق A, B, C, D والباقون كانت تحوي جوازاتهم على منطقتين. قبل بلوغي الثانية عشرة ما كنت بحاجة إلى جواز؛ ولهذا كنت أتجول دون عائق مع أولاد عمي ألبرت

وروبـرت. كـان يغطـي القـدس جـوٌ معتم بفعـل التـوترات الـسياسية وغيرهـا مـن التوترات بين الطوائف المسيحية المختلفة وأيضاً بين مسلمين ومسيحيين ويهود .

عمتي نبيهة غضبت علينا بـشدة لأننـا ذهبنـا إلى سـينما يهوديـة، سـينما ريجنت، لماذا لا تـذهبون إلى سـينما عربيـة هـل سـينما ريكس تحت مقـامكم واليهود أيضاً لا يأتون دور السينما العربية رغم أننـا رغبنـا زيـارة ريجنـت مـرة أخرى، لم نفعل ذلك. أحاديثنا في البيت والمدرسـة كانـت عربيـة بحتـة بعكـس القاهرة حيث فـرض عليّ الكـلام باللغـة الإنكليزيـة. في القـدس تمسكنا بلغتنـا العربيـة وأيـضاً عنـدما كنـا نتحـدث عـن Tarazan نقـول طـرزان وبـدلاً مـن Laurel and Hardy "السمين والضعيف".

أذهب كل صباح إلى مدرسـة سـان جـورج مع أولاد عمـي التـوأم روبـرت وألبرت. البرت كان يقودنـا نجم المدرسة أعلى بصف مـن روبـرت الـذي مـا كـان رياضياً وضائعاً في الجمع.

كنت في الصف السابع الـذي كـان أمـام صـفوف أولاد العـم. مدرسـة سـان جورج كانت أول مدرسـة للـصبيان فقـط، أزورهـا، وأول مدرسـة تـشدني إليهـا مشاعر عميقة ما لم أشـعر بـه في مـدارس القـاهرة. حيـث كنـت غريبـاً. والـدي وجدي كانا زارا نفس المدرسة مثـل كـل ذكـور مـن عائلتنـا مـا عـدا العـم أسـعد (آل) الـذي زار بيـشوب غوبـات Bishop Gobat في البـدء بـدا لـي الجـو في المدرسـة في القـدس "لعـدم وجـود المعلمـات والتلميـذات" أكثـر قـساوة، أقـل احتراماً من المـدارس الـتي زرتهـا في القـاهرة. لكـني شـعرت ولأول مـرة أنـي في وطني بين أمثالي. كل تلميـذ في المدرسـة، كـان أهلـي يعرفونـه ويعرفـون أهلـه.

أسابيع بعد يومي الأول سألني أهلي والعمات ويوسف عن التلميذ "صفوري" في صفي وعن دجاني وجمال حيث كانوا على معرفة بـ: ١٠٧ من أقاربه أعمامه وعماته.

المعلمون كانوا بريطانيين ما عدا معلمين، ميشيل مارموا ابن الأسقف الأنجليكاني وبوياجيان أرمني من القدس الذي كان والدي يعرف والده من أيام الشباب. السيدة الوحيدة كانت مس فينتون التي كانت أحياناً تنوب عن معلم اللغة الإنكليزية. بشعرها الأسود وشحاطتها ونحفها، ببلوزتها الفضفاضة وجبونتها الزرقاء، بدت لي جذابة. ما كان لي بها اتصال ولم يكن لديّ الوقت كي أبتعد عن جو المعلمين والتلاميذ الذي عشت فيه.

وهكذا بقيت لي، شكلاً رومانتيكياً، أكتفي بسرقة النظرات إليها عند مرورها أو النظر إليها من النافذة في غرفة المعلمين. بعد سنين علمت أنها عمة الشاعر "جيمس فينتون James Fenton" على عكسها كان مستر سج Sugg بريطاني يتعثر بالمشي وعندما يذكر اسمه كان يعلو الضحك؛ لأنه يتلعثم حين يتكلم. كان أول أكاديمي بريطاني تعرفت عليه دون روابط لتلاميذه الذين لم ينجح في تعليمهم. كما لم يترك لدى التلاميذ انطباعات بشكله ولباسه، من ياقة منشاة قاسية، وبذلة بيجية اللون شخص من عالم آخر من الدوناو والتايمز وصحراء الثلج. صفي كان يتألف من مسيحيين ومسلمين، من تلاميذ داخليين وعاديين. معلم الرياضيات ميشيل مارمورا كان من الذين كانوا ضحية تخبطات عام ١٩٤٨ وما حل بهم من تهجير وإبعاد عن الوطن. كان بارعاً في تعليمنا أسس الحسابات وتعقيداتها، رغم روابط الصداقة التي

كانت تربطه بأغلب عائلات التلاميذ ورغم أنه ابن "ديكان" الكنيسة الذي عمدني. بعد التهجير صادفته في: Madison, Wisconsin, Princeton وبعد ذلك في تورينتو حيث يعيش الآن. آلام الماضي حطمته ولم يتغلب عليها. غير ذلك من مدرسة سان جورج لم يترك عندي انطباعات أقوى، المدرسة ربطت بين الدرس والجو، كما يبدو لي بعد خمسين عاماً، بينما تغيرت هوية الوطن دون رجعة.

حين كنت في الثانية عشرة من عمري احتجت إلى هوية حتى على طريق المدرسة كنت كبيراً بالعمر، وأعطيت انطباعاً بأكثر نضوجاً وأكبر من الواقع. خبرات مؤلمة عندما كان الـ: تـوميز Tommys العصبيون عند الحواجز بأسلاكها الشائكة يفتشون حقيبتي المدرسية وهويتي في حين ترى أعينهم الغربية فيَّ كإرهابي.

هويتي كانت تقتصر على مكان تواجد مدرستي لكن عائلة عمتي كان لها هوية أخرى لونها أخضر كاشف، كان يسمح لألبرت وروبرت باستعمالها وهكذا تجولنا سوية لنزور بعض الأصدقاء في حي الطالبية. وحين أكون وحدي، كنت أسافر على دراجتي الهوائية غرب منزلنا إلى هضبة كان يتمرن عليها عساكر بريطانيون على موسيقى الأبواق. في بعض نهايات الأسبوع كنت أختبئ خلف الصخر وأتفرج على العساكر متخوفاً من صيحاتهم، من جزماتهم السوداء الكبيرة التي تخبط على الإسفلت، وعلى إشاراتهم البوقية غير المفهومة.

البرت كان يحب الشعر الإنكليزي الذي ردده بحركات جفونه تشبه حركات معلم الإنكليزية وممثل إنكليزي. مثل:

Half a League, Half a League, Half a League onward, All in the Valley of death, Ride the six hundred.

يتلوه رافعاً ذراعه الأيمن لتعلو تلاوته رويداً رويداً

Theirs not to make reply, Theirs not to reason why, Theirs but to do and die, Into the valley of deas, Rode the six hundred

شعرت أننا يجب أن نكون جنوداً تتقدم إلى الأمام ما ليس يملى علينا كواجب

البرت تابع :

All the world wondered, Honour the charge they made, .Honour the Light Brigade, Noble Six hundred

تعلمت الشعر غيباً ولما كنت أتلوه مع ابن عمي وكنت أتصور أن كلمات تبعث المشاعر وتحرك الفكر.

"Theirs not to reason why"

هذه الجملة كانت تنبؤاً لموقف تعرفت عليه عشرين عاماً بعد ذلك وسرت معه عندما رأيت الجموع في حرارة القاهرة يهتفون ويعزون جمال عبد الناصر.

عائلة عمتي نبيهة طردت تباعاً من القدس وبقي أقدم أولاد عمي يوسف حتى ربيع ١٩٤٨ ترك حي الطالبية لأنه سقط في أيدي الهاغانا وسكن في منزل صغير في : أوبر باكا Upper Baqaa ضاحية مجاورة للقدس الغربية. حتى هذه المنطقة أجبر على مغادرتها نهائياً إلى غير عودة. أتذكر أن أحياء : طالبية، كاتامون، أوبار، لوور باكا Upper Baqaa, Lower Baqaa

كلها كان يقطنها عرب لا غيرهم ووالديّ يعرفونهم جميعاً. حتى إني أذكر أسماء العائلات : سلامي، دجاني، عواد، خضر، بادور، داويد، جمال،

برامكي، شماس، طنوس، قوبين Qobein كلهم تحولوا إلى لاجئين. من يقطن هذه الأحياء الآن كلهم مهاجرون. لما أتذكر القدس اليوم تعود لذاكرتي أحياؤها وسكانها العرب بمرارة وألم عميقين. لا أستطيع تحمل أن الحي الذي ولدت وترعرعت فيه وقضيت أيام طفولتي، يسكنه الآن مهاجرون من بولونيا وألمانيا وأمريكا استولوا عليه. الحياة الفلسطينية بقيت مقتصرة على القدس الشرقية التي ما كنت أعرفها. القدس الغربية الآن تحت سيطرة اليهود وسكانها الأصليون طردوا منها في منتصف ١٩٤٨ إلى الأبد.

القدس التي عرفتها مع أهلي كانت أصغر وأنظف من القاهرة. البريطانيون احتفظوا بالوصاية وتركوها في ١٩٤٨ بعد ما غادرتها عائلتنا بعد ذلك بستة أشهر دون عودة.

في كل مكان يصادف المرء عساكر بريطانيين سُحبوا من القاهرة والطابع كان طابع مكان بريطاني ببيوت نظيفة وسير منظم، شرب الكثير من الشاي، وبالنسبة لي ولعائلتي كنا عرباً بتربية إنكليزية. ما كنت أعرف ماذا يعني الانتداب والحكومة الفلسطينية التي كان اسمها على النقد والطوابع. مقارنة مع القاهرة كانت القدس دون غنى القاهرة، بيوتها الكبيرة والسيارات والصخب بينما كان سكان القدس متشابهين (Homogen) أكثريتهم فلسطينيون رغم تذكري ليهود أرثوذوكسيين. في زيارة لـ: ميا شيريم MeaSherim شعرت بمزيج من الفضول والابتعاد دون الانطباع المذهل عن الارتودوكس اليهود بملابسهم السوداء وقبعاتهم ومعاطفهم دون أن أفهم هذه الأشكال. أذكر صبياً من صفي "دافيد عزرا" والده كان مصلح حنفيات، كان اليهودي الوحيد في

الصف السابع وذكري له يشعرني بالبلبلة في ظل التغيرات التي حصلت في حياتي وفي فلسطين. كان قوي القامة وتكلم معي باللغة الإنكليزية، كان معزولاً عن بقية الصف، منزوياً مغلقاً، كل هذه الصفات كانت تجذبني إليه. كان ينقصه كل شبه باليهود الشرقيين الذين عرفتهم في القاهرة وقابلتهم في مدرسة Gps وفي نوادي القاهرة. ولا أعرف ماذا تعني هويته اليهودية بالنسبة لنا، وما كان يعنينا تواجده بيننا رغم كونه رياضياً خلف لديّ انطباعات بأكتافه العريضة وساقيه وكان لاعباً هجومياً. لم يلتحق بنا بعد المدرسة في طريقنا إلى بيوتنا عبر حواجز التفتيش. عندما قررت عائلتنا "قليلاً قبل عيد الميلاد" العودة إلى القاهرة تحول انقطاع اتصالاتي لعزرا إلى رمز الهوة بيننا وبين اليهود وللصمت المطلق والمصير الذي فرض علينا.

عندما حل الخريف تقهقرنا مجتمعين في المحيط العائلي، محيط ضيق من الأعمام والعمات وأولاد العم. زرنا مرة بيت العم منير موسى الجديد في يافا الذي كان قد انتقل يومذاك إلى يافا. وذلك بعد الناصرة Zefat البيت كان يقع في شارع عديم الجاذبية في منطقة رملية يختلف كلياً عن البيت في الناصرة الذي كنت أشعر فيه بالراحة والهدوء.

كساكن جديد لم يكن قد تعرف على أصدقاء أو جيران. في القدس التقينا مراراً بالعم شفيق منصور، ابن عم والدي من الدرجة الثانية وأيضاً العمة لوري ألمانية جميلة من شتوتجارت تتكلم اللغة العربية بلكنة ألمانية وأولادها نبيل، أريكا، راندا، كانوا بعمري وعمر أختي روزي. شفيق كان مدير اتحاد الشباب المسيحي (CVJM) ولوري كانت تعمل كسكرتيرته.

كان مشغوفاً بعمله بالاتحاد الذي كان يدعم الأعمال المنزلية واليدوية والرياضية واللغة هو قريبٌ من منزلنا .

بعكس الكنيسة التي ما كنت أفهم صلواتها وقداساتها ولا أشعر بجاذبيتها ، كان الاتحاد في سنواتي الأخيرة في القدس ملاذاً لي بأعماله الاجتماعية المختلفة . إضافة لذلك كانت الفرصة متاحة للعب كرة القاعات والتنيس واللعب بالأجراس في البرج .

كل من عائلتي كان له علاقة بالاتحاد كعضو أو مستفيد أو في الإدارة .

لكن الاتحاد أصبح في القدس المحتلة والعم شفيق وعائلته كانوا قد حصلوا على منحة من الـ: CVJM سافروا إلى الولايات المتحدة وللأسف دون حق بالعودة .

وصل بهم الأمر أولاً إلى شيكاغو ثم انتقلوا ، في وضع سيئ إلى فيسكونسين Wisconsin عمل لفترة في نادٍ يحمل نفس الاسم من شيكاغو ثم رحل ليعمل كمنظم في نادي ليونس Lions في الشمال من فيسكونسين .

غضبه من الأحداث في فلسطين والصعوبات التي اعترضته في الولايات المتحدة التي لم تتحسن رغم أن أوضاعه كانت أفضل من كل الأقارب المهجرين . رغم ذلك ما شاء أن يصالح نصف حياته .

في السنوات الباكرة في القدس كانت شخصية بارزة تثير الاهتمام ما عرفته فيما بعد . "إدمان والدي على لعب الطاولة ما كان له حدود" وأثناء لعبه كان يظهر رجلٌ كبير السن بشوارب تلفت النظر وببذلة غامقة اللون وعلى رأسه طربوش يدخن السيكارات بلا انقطاع يضعها بـ: امزك[1] من سن العاج ،

1 لا أعرف التعبير بالعربية الفصحى.

سعاله كان يقلق المشاهد ، إنه خليل بيدس ابن عم والدي ومدرس اللغة العربية في مدرسة سان جورج ولم أكن رأيته في المدرسة . بعد ذلك بأربعين عاماً أخبرني ابن عمي يوسف أن بيداس كان معلم اللغة العربية في مدرسة سان جورج . وعلمت مؤخراً أنه ابن عم يوسف بيدس الذي عمل لـ :

Palestine Educational Company

وكان شاهد زواج والدي، بعد عمل وظيفي في البنك العربي ، ذهب للبنان كلاجئ ليصعد في خلال عشر سنوات إلى رجل اقتصاد فاعل وصاحب بنك انترا الذي يسيطر على شركات طيران ومرافئ بحرية وشركات اقتصادية منها قسم من مركز روكي فيلار وكان له تأثير بالغ على الحياة الاقتصادية في لبنان حتى إفلاسه بانهيار بنك انترا في عام ١٩٦٦ . سنوات قليلة بعد ذلك توفي في لوزان بعد مرض السرطان وكانت عمتي نبيهة تعتني به . حيث كانت قبل فترة قد انتقلت للعيش في سويسرا . الصعود السريع والسقوط أعاده البعض للخلافات اللبنانية الفلسطينية في السبعينات . أما بالنسبة لي رأيت ذلك عنواناً للشرخ في حياتنا نحن الفلسطينيين، الذي حدث نتيجة أحداث ١٩٤٨ التي فرضت علينا . في وقت لاحق علمت أنه لم يكن مدرس لغة عربية فقط ، بل أيضاً في مدرسة الجالية الروسية (الماسكوبية) التي هي اليوم مركز اعتقال وتعذيب للفلسطينيين من قبل الإسرائيليين . وكان تلقى تعليمه في روسيا مدعوماً من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية . وعندما عاد إلى فلسطين شارك في عمل (الندوة) في ماسكوبية الناصرة والتي هي الآن مخفر شرطة إسرائيلية . مشبعاً بأفكار العلاقات الثقافية الروسية المسيحية من دوتويفسكي وبيرد جايف Dostjewski, Berdjajew وقد نال تقديراً وشهرة .

في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي ساهم مساهمة فعالة بالتصدي للمستوطنين الصهاينة. عزلي عن الأحداث السياسية ومنعي من الانشغال بها يظهر عدم معرفتي الكلية بالسيد بيدس ومكانته وفاعليته وكل ما عرفت عنه تدخينه وسعاله العنيفين ولعبه الطاولة مع والدي. ولحظة ما عاش ألم ضياع وطنه ما بقي من نصيب أولاده كلاجئين.

اليوم تسيطر عليّ قوة الأحداث واقتلاع الجذور الذي حل بعائلتنا وأصدقائنا والتي "في الواقع" عاصرتها كشاهد جاهل غير دار بما يحصل. كطفل في الثانية عشرة ونصف من عمره شاهدت الحزن والأسى في وجوه الناس والشكوك، الأناس الذين عرفتهم من فلسطين كأناس عاديين من الطبقة الوسطى. ما كنت قادراً أن أفهم أو أستوعب ما حدث بالفعل.

ابنة عمي ايفيلين يوسف تحدثت على طاولة الطعام في القاهرة بحرارة عن أملها بالقاوقجي، اسم لم أكن سمعته، سمعت مرة "القاوقجي سوف يأتي ويطردهم" وبعد إلحاحي على والدي من هو القاوقجي، أجاب دون تقدير "جنرال عربي". عمتي نبيهة شكت مراراً غاضبة عندما كانت تتحدث عن فظائع دير ياسين وكيف يحملون البنات في سيارات شحن معتقدة أنهم ينتهكون أعراضهن ولم تكن تدري أنهم يسوقونهن إلى المذابح، ما كان بوسعي أن أتصور أو أعي الأحداث. في القاهرة كان التحفظ على الأحداث خلال وجودي قائماً لكن لاحظت تغيرات وتصرفات لم أكن شاهدتها من قبل. بدا وكأن فلسطين ضاعت إلى غير رجعة ولن نعود إليها لكنها افتقدت بشكل سري وكتمان. كنت بعمر يكفي لألاحظ التغيرات التي حدثت رأيت كيف أنّ

ابن عم لوالدي سبير شماس رجلاً ذا هيبة وإشعاع غني كيف ظهر في القاهرة أكبر من سنه، محطم النفسية، يرتدي دوماً نفس البذلة ونفس القميص متكئاً على عصا يأخذ مكانه على الكرسي بكل بطء وحذر ساكتاً. بناته العازبات الجميلات اليسا وتينا واحدة تعمل في إدارة قناة السويس والأخرى في القاهرة، أولاده دفعهم يأسهم لكيل الشتائم للمصريين والبريطانيين واليونان والأرمن واليهود. والدتهم أولغا أصيبت بالعصبية تشكو دوماً من صعوبة دفع الفواتير، من سوء السكن وقلة فرص العمل.

زرناهم في عمارة متدنية ذات طوابق عدة في هيليوبوليس حيث لم يكن يوجد مصعد، وجدران العمارة متخدشة. اذكر أن فراغ المنزل من الأثاث والجو المشحون فيه أثارا قلقي وخيبة أملي.

والدتي ما كانت تتحدث عما جرى، لم أسأل والدي لأن الكلمات كانت تنقصني رغم شعوري بأن الأمور في غاية التعقيد والصعوبة وفي لحظة قال والدي، ما يخص سبير، لقد فقدوا كل شيء وبعد لحظات أضاف ونحن أيضاً.

سألته مجدداً ماذا يعني وقلت له أن كل شيء على ما يرام، مخازننا، بيتنا، أساليب عيشنا فقال: "فلسطين" بشكل مقتضب. لم يكن يحب البلد بشكل خاص، لكن هذا الجواب المقتضب السريع كان نوعياً. ما ذهب، ذهب، ذهب إلى غير رجعة.

الرجل الذكي له ما يكفي من الحاضر والمستقبل قال تكراراً وأضاف "لورد بيكون" Lord Bacon ليختم قضية حول ما لا يريد الكلام عنه. فوجئت بهذا الموقف التعنتي من الماضي رغم تأثيراته على الحاضر. ما بكى أبداً ولم يكشف

عن مشاعره في أصعب وأحرج المناسبات. ألححت على والدتي أن تقول لي فيما إذا كان بكى حين دفن أخاه أسعد في يافا أجابت لا، كان يحمل نظارات غامقة ووجهه بدا شديد الحمرة لكنه لم يبك.

كون البكاء كان من خصائصي، حسدته على قوته. اثنان من أخوالي ظهرا في القاهرة بعد منتصف شهر كانون الأول ١٩٤٧. إميل الأصغر، عمل في طنطا المدينة المعروفة بكثرة غبارها لكنها من كبرى مدن الدلتا حيث كان يعمل في معمل زجاج كان يخص ما لفينا فارس من أقارب جدتي. بربطة، عيونها السوداء، وطباعها الشبه جنونية أخرجتنا من توازننا. آليف (Alif) الأخ كان أكبر من والدتي ببضع سنين متزوج وله أربعة أطفال.

كانت هوايته الأحجار المتقاطعة وترتيب وتصنيف مكتبته الصغيرة وسماع الموسيقى.

كان يعمل في البنك العربي في نابلس أما في القاهرة فقد عمل لدى الأونيسكو، بعد انتقاله من بغداد إلى بيروت عاش في الخامسة والثمانين من عمره في سياتيل Seattle ضحية عام ١٩٤٨، ثورات مصر والعراق والحرب الأهلية في لبنان. في القاهرة عاش وزوجته سلوى Salwa مع خيبة الأمل والشعور بالإذلال. شكاوى إميل، تغير أماكن سكنه المتواصل، شروط العمل، وغيره من الصعوبات هز حياتنا التي بدت وكأنها مستقرة آمنة. إميل أعطى انطباع إنسان أعزب غير سعيد، يبحث عن طريقه في القاهرة. بعد سنوات علمت أنه كان متزوجاً من امرأة مسلمة وله منها طفلتان، ما أخفاه عنا طالما كنا صغار السن.

قضية فلسطين ذكرت قليلاً مع تعليقات والدي بين الحين والآخر عن الانهيارات الكارثية للمجتمع والتي أدت لاختفاء الوطن. قال مرة عن عائلة شماس، إنهم استهلكوا عشرة براميل زيت في السنة ما يدل على الرفاه والغنى، كان هناك وطن وأشجار زيتون كل شيء ضاع الآن. أضاف جيراننا في الزمالك الحلبي، ميرا، وسامي بمنزلهم الضيق الصغير والمعوقات السكنية فيه بينما كانوا ينعمون بالرفاه في يافا. علمت أن ميرا كانت الابنة المحببة لوالدين غنيين أتقنت اللغة الفرنسية ما لم يكن مألوفاً في محيطنا دليل على فرص تعليمها وسفرات متعددة إلى فرنسا وكانت تتميز بوقار طبيعي رغم ادعاء والدتي بأنها ليست سعيدة تخضع لضغوط. وكانت هناك عدة عائلات عمل أربابها من الآباء والأمهات عندنا إما في المنزل أو في مخازن والدي. ماريكا لاجئة مسيحية جعلتها عمتي تزور القداسات العربية في كنيسة: All Saints Cathedral كنيسة إنكليزية كنا نزورها نحن كإنجيلكانيين ولاحقاً عملت خادمة عند والدتي.

عمتي نبيهة حرصت أن يبقى الوضع الفلسطيني المؤلم دائماً حاضراً أمامنا، كانت تزورنا كل يوم جمعة لتناول طعام الغذاء. بطاقاتها ونشاطاتها التي تضاءلت تكلمت عن أتعابها اليومية باهتمامها بالعائلات الفلسطينية المبعدة وقيامها بزيارتهم في شوبرا وزياراتها المراكز الحكومية المختلفة باحثة لهم عن عمل وإذن إقامة، دون تعب وكلل كانت تزور المؤسسات الخيرية باحثة لهم عن معونات. اليوم يبدو لي جلياً أن القضية الفلسطينية بضياع فلسطين ونتائجه كان له بالغ الأثر على حياتنا وحياة

أقاربنا ومعارفنا عبر أجيال يؤثر على حياتنا يومياً، بينما أهلي يحيطون القضية بالكتمان والتجاهل. فلسطين كانت بلدهم حيث ولدوا ونشأوا رغم أن مصر ولبنان قدمتا لهم مجالاً آخر للعيش.

كأطفال كنت وأخواتي نعزل وبالأخص أدمغتنا عن ما وصفته والدتنا بالـ: "الشريرين" وإبعادنا عن الأحداث في فلسطين والتغيرات كان ما يسعى له والدانا؛ لأنهما كرها السياسة وابتعدا عن المناقشات السياسية خوفاً من تهديد وجودهم في مصر. السياسة كانت تعني كل الناس ما عدانا. عندما بلغت العشرين من عمري بدأت أهتم بالسياسة ما قابله والدي "بالرفض. السياسة سوف تؤدي لهلاكك قال لي، والدي قال أنت أستاذ أدب، ابقَ على ما أنت عليه، كانت هذه آخر كلماته قبل وفاته مضيفاً أنا قلق أن يلحق بك الصهاينة أذى. احذر. والدي وأربعة من أولاده كنا محصنين بجوازاتنا الأمريكية مقارنة مع من لم يكن الحظ إلى جانبهم في أوقات الحرب وبعدها، الذين تخطوا حدود الجمارك وشرطة الحدود بصعوبات بالغة. بعد ضياع فلسطين حاول والدي قدر استطاعته الحصول على جواز سفر أمريكي لوالدتي دون نجاح وحاولت هي بعد ما أصبحت أرملة وأيضاً دون أن توفق بذلك. بوثيقة سفر لوالدتي كنا في السفر نعاني الكثير. كانت الوثيقة توضع في وسط جوازاتنا على أمل أن لا تبدو مختلفة من قبل موظفي الحدود، وأيضاً دون نجاح. في كل مرة كان الموظفون يستدعون أعلى رتبة ليأتي بوجه مقطب وكلمات محذرة غير لطيفة، يأخذ والديّ جانباً محذراً واعظاً بينما أقف أنا وأخواتي حائرين مرتبكين ننتظر عودتهم. سألناهم هل سوف يسمح لنا بالعبور دون أن نتلقى جواباً. وجود والدتنا غير الطبيعي مجسداً في وثيقة نتيجة تأميم الشخص.

وما ما أن ندخل لبنان، اليونان، أو الولايات المتحدة لسرعان ما كنا نتناسى مآسي الحدود ونعود إلى حياتنا المألوفة.

بعد عام ١٩٤٨ بدأت العمة نبيهة التي أصبحت تسكن بقربنا على بعد ثلاث عمارات منا، تنذر حياتها للعناية باللاجئين الفلسطينيين في مصر بتامين المعونات لهم من الجمعيات الخيرية. في البدء زارت مؤسسات الكنيسة الانجليكانية Church Mission Society وجمعيات إنجليكانية بريبترياني Anglikan Presbyteerian mission همها الرئيسي كان الأطفال والمرضى. ثم كانت تبحث عن أعمال للرجل والنساء وتأمين السكن. أتذكر بالدرجة الأولى وجهها المتعب وصوتها الشاكي دوماً من عناء ومشاكل اللاجئين والصعوبات مع الحكومة المصرية التي ما كانت تمنح إذن إقامة لأكثر من شهر.

هذه المصاعب تجاه أناسٍ لا حول لهم ولا قوة، سرقت أموالهم وأوطانهم وأبعدوا عنها لم يهدأ لديها ساكن. كانت تروي حكايات مؤلمة عن سوء التغذية، عن مرض الإسهال، اللوكيميا، عن عائلات مكونة من عشرة أشخاص يقطنون في غرفة واحدة عن نساء ضاع أزواجهن، عن الأطفال المحتاجين، عن أمراض الكبد والرئة المزمنة، عن البلهارسيا، أسبوع بعد أسبوع عشر سنوات على الأقل.

والدي كان أول صديق وملاذ لها، علاقتها بوالدتي كانت تقوم على الاحترام مع قليل من المحبة، كانت تغار، عندما تزوجته قالت والدتي. السيدتان عقدتا تحالفاً على ما يبدو بعد زواج والدي. شعاره التعاون، حسن الضيافة، تقاسم الهموم لكن دون تقارب.

كانت تربطني بها علاقة مميزة وارجع إليها في بعض الأمور. منها تعرفت على فلسطين وتاريخها وتعرفت على أسباب البؤس والشقاء اللذين يعاني منهما المهجرون، منها أدركت ماذا يعني للإنسان أن يكون بلا وطن، بلا أرض، بلا مكان يعود إليه، لا يلقى حماية من دولة أو مؤسسة ليس ما يملكه من الماضي غير الحزن والمآسي هذا ما عدا الحياة اليومية والوقوف في صفوف طويلة بحثاً عن لقمة العيش والعمل فقر وجوع وإذلال، عرفت كل ذلك من أحاديثها ومعاناتها وانشغالها اليومي بالهموم الفلسطينية. كانت تمتلك من المال ما أهلها لامتلاك سيارة وتشغيل سائق صبور. أوسطى إبراهيم ببذلة غامقة أنيقة وربطة عنق غامقة وطربوش كان من علائم الطبقة الوسطى المصرية حتى الثورة المصرية عام ١٩٥٢ التي وضعت نهاية له. يبدأ عمله في الثامنة صباحاً ليحضرها في الثانية للبيت لتناول طعام الغذاء، يأتي في الرابعة لتعود وتزاول أشغالها، المساكن والمستشفيات والمدارس والمؤسسات الحكومية كل هذا كان مجال نشاطها حتى الثامنة أو التاسعة مساء يوماً بعد يوم.

في يوم الجمعة تبقى في البيت، وكان يتوافد عليها فلسطينيون سمعوا عنها بسعيها للحصول على مساعدة للفلسطينيين. فوجئت يوم الجمعة في زيارة لها وقبل أن أصل باب العمارة بصدمة، "كانت تسكن في الطابق الثاني" عندما رأيت الازدحام في تقاطع شارع فؤاد العوال في زاوية حيث توجد محطة شل للوقود وتحت منزلها مخزن للمواد الغذائية ليوناني فازيلاكيس على مدى الطابق الأرضي مزدحم دائماً والسيارات المتوقفة بسبب الازدحام تصخب بالـ: "زمور" والصخب من كل حدب وصوب. كل ذلك لم يزعج عمتي وكانت تشعر

وكأنها في انتعاشة الصيف. قالت أشعر وكأني في كازينو، ليس كازينو لعب القمار لكن كازينو كمقهى في الخضراء.

وعندما حاولت دخول العمارة زاد صخب الشارع صخب عشرات الفلسطينيين الذين تجمعوا أمام منزلها بعد ما عطّل البواب السوداني قصداً مصعد العمارة.

في هذا الازدحام والفوضى كان قدراً من النظام، عمتي دأبت أن تستقبل شخصاً واحداً بعد الآخر ما لم يقلل من عدد الزوار.

حين دخلت المنزل وجدتها جالسة على كرسي دون طاولة أو أوراق، كانت تستمع لامرأة متوسطة العمر تغطي وجهها الدموع تحكي عن الفقر والمرض. قلت لك لا تأخذي هذه الحبوب تجعلك تعبة وغير صاحية مخدرة، اعملي ما أقوله لك، قالت لها عمتي، سوف أحصل لك على خمسة جنيهات من الكنيسة وعديني أن تقبلي بغسل الغسيل الذي يجلبوه لك.

لا تنسي أن تقولي لزوجك عليه أن يذهب للدكتور حداد. سوف أؤمن ما يكتبه له من دواء. ذهبت السيدة لتدخل بعدها سيدة أخرى بصحبة طفلين. بقيت ساعتين صامتاً بينما استمر عرض المآسي. كانت عمتي تذهب للمطبخ لتجلب كأساً من الماء أحياناً لكنها جلست دون كلل أو ملل تستمع لشكاوي ومآسي الزوار واحداً بعد الآخر توزع نقوداً، نصائح طبية وبيروقراطية بكيفية التعامل مع المؤسسات الحكومية. كما ساعدت في تسجيل الأطفال في المدارس. توسطت لنساء للعمل خادمات أو في أعمال مكتبية والرجال كحمالين، حراس ليل، عمال معامل أو ممرضين. كنت ذاك الحين في سني الثالثة عشرة ونصف

ولازلت أذكر بدقة وجوه وشكاوى وصوت عمتي الموضوعي الهادئ لكني ما كنت أستوعب أن هذا كله نتيجة سياسة وحرب جرتنا وعمتي إلى هذا المصير. كانت تلك الفترة أول احتكاك لي لتفهم الهوية الفلسطينية التي ظهرت لي عبر عمتي وعبر أوضاع اللاجئين الفلسطينيين المزرية التي تطلبت عوناً ومؤازرة وتقاسم المشاعر، ما عدا العوز المالي والغضب. الانطباع الرئيسي من ذلك الوقت كان وكأنه وضع طبي شاذ. دون عون مؤسسة بدا لي جهد عمتي مستحيلاً، تقديم عون لأناس شاءت طوعاً واختياراً مساعدتهم، كانت كالطبيبة الوحيدة مزودة بالانضباط فوق العادة ومهمة أخلاقية أن ترعى مرضاها. كان اللاجئون الفلسطينيون وكأنهم فقدوا صحتهم بفقدان وطنهم.

البيئة المصرية الجديدة لم تكن تقدم لهم الغذاء فقط بل أرهقتهم رغم ادعاء حكومات ما قبل وما بعد الثورة المصرية بتقديم المساعدات لهم.

كانوا يقولون إنهم سوف يطردون العدو الصهيوني. حتى هذا اليوم ترن في أذني أقوال الإذاعات المصرية وأرى أمام عيني عناوين الصحف الكبيرة باللغة العربية والإنكليزية والفرنسية التي تطرق آذان المستمعين والقراء الطرشان. بالنسبة لي كانت تلك التفاصيل حياة المرضى، قلق وبلبلة البشر الذين كان عزاؤهم الوحيد التلاحم الشخصي لامرأة في منتصف العمر حاولت اجتياز الصعوبات دون أن تفقد إرادتها وعقيدتها.

لم يجرِ الحديث أمامي عن أفكارها السياسية التي كانت وقتذاك كمالية وكان في نواة الأحداث متاعب اللاجئين التي شاهدتها كل يوم صباحاً، ظهراً ومساء وجعلتها قضيتها.

ما حاوَلَت إشراك آخرين في جهدها وما قامت بالوعظ للتحسس بمشاكل اللاجئين، عملت بمحض إرادتها وحيدة دون عون الآخرين - بعد أربع سنين ظهر شاب وقيل عنه إنه سكرتير لها ما لبث أن صُرف لتعود وتبقى وحيدة في عملها، ويبدو أن أحداً غيرها لم يستطع المثابرة على هذا النوع من العمل.

شريكاها كان الدكتور وديع باز حداد، طبيب عائلتنا، رجل قوي البنية بشعر أبيض من سكان القدس كان افتتح عيادة في شبرا من أفقر أحياء القاهرة منذ أنهى دراسة الطب في بيروت.

بعد وفاته في شهر آب عام ١٩٤٨ أدار العيادة ابنه فريد، عمتي اتكلت على أخيه الأصغر كامل الذي كان يمتلك صيدلية على الطرف الآخر من الشارع وكان يزود عمتي بأدوية مجانية. دكتور وديع لم يُذكر شأنه ذلك الوقت، لكنه بين الفقراء لعب دوراً هاماً ليس فقط بعمله الخيري بل بقدرته الفائقة على تشخيص المرض.

كانت له علاقات جيدة بمستشفى CMS الذي كان يقع آنذاك بعد المعادي خلف القصر العيني وكان مجمعاً حكومياً وتعليمياً وكنت على ثقة بأن عمتي استطاعت بمساعدته علاج مرضى اللاجئين الفلسطينيين إما مجاناً أو بتكاليف أقل. وأذكر كيف كان يحمل حقيبة معه تحمل إبراً وغيرها من المستلزمات الطبية. عندما يعاني أحدنا المرض، يأتي إلى البيت، يشخص المرض والعلاج، ليغادر بسرعة دون أن يشرب القهوة أو الليمونادة. وكما قال والدي أدعى أنه كان ينسى كتابة فاتورات. دكتور حداد ما كان يعرف الراحة، دائماً موجود عند الحاجة وما كان الاتصال به هاتفياً سهلاً لكن كان

بيته هو نفسه عيادته وكان ثلاثة أيام بعد الظهر يتواجد في البيت، تجمع دوماً عدد كبير من المرضى المصريين الفقراء أمام منزله وما كان ليبقى أطول من الوقت اللازم، زوجته إيد ألمانية - سويدية نحيفة الجسم كانت مسيحية أصولية تحدث المنتظرين لزوجها في غرفة الانتظار عن يوسف ومريم وابنهما الصغير. فريدة قربان لبنانية أكبر سناً والتي كانت تدعي لدى الكثيرين "العمة أو مس فريدة" كانت الأم في مدرسة بنات كانت تعرف ايدا و تحدثنا دوماً عن المجنونة ايدا التي كانت تحاول دوماً أن تدفع فقراء حي شبرا لاعتناق المسيحية.

كيف دعت الناس من الشارع وأدخلتهم إلى غرفة الجلوس، أطفأت الأنوار تعرض عليهم صوراً دينية تحدثهم دون ملل عن العائلة المقدسة والنجاة والمحاسن المسيحية. الحاضرون الذين أصابهم الملل والحيرة مما يحدث، وقد لاحظوا أن العجوز الأجنبية لم تعد تعي وجودهم اغتنموا الفرصة وأخذوا كل ما كان غير ثابت مثل: فازة، سجاد، علبة واختفوا خارجين من غرفة جلوس دكتور حداد. بعد حوالي ساعة تصبح غرفة الدكتور حداد فارغة من محتوياتها بينما كان هو في الطريق يعالج المرضى وزوجته غائبة في أعماقها الدينية الروحية.

خلال زيارتنا الأولى للولايات المتحدة في صيف ١٩٤٨ وصلت لوالدي برقية تخبر بوفاة الدكتور حداد وترجو منه أن يرسل نقوداً لتكاليف دفنه. دكتور حداد لم يخلف لعائلته سنتاً واحداً، زوجته ايدا ليست في مستوى الحدث، ابنه فريد الأكبر قبع بالسجن كونه شيوعياً، وكان قد أنهى دراسة الطب قبل أن يعتقل لكنه أطلق سراحه بعد أشهر من اعتقاله. كوالده أصبح

يساعد عمتي ما استطاع في جهودها عاش متواضعاً كوالده لم يهتم بالمال أو الشهرة المهنية غير أنه بقي مهتماً بالسياسة طول حياته حتى وفاته بالسجن في عام ١٩٥٩ . كان متوافقاً مع عمتي في كل توجهاتها وكانت المصاعب مبعث قوة له بدلاً من أن تقض مضاجعه. أربعون عاماً بعد الحدث اكتشف أن أصدقاءه في الحزب الشيوعي ينظرون إليه بكل قدسية ليس بسبب خدماته غير العادية، بل لخصاله المتزنة المتوازنة.

في خلال سنتي الأخيرة في الكولج في منتصف الخمسينات التقيت فريد مراراً، كان مثلي خريج المدارس الاستعمارية البريطانية، لكنه كان متحفظاً بشكل مبالغ عندما يجري الحديث خارج نشاطه الطبي. فلسطين لم تكن في أحاديثنا خلال عشر سنوات. إنه يكبرني باثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة، كان شاباً، تزوج آدا وأنجبت له طفلين أو ثلاثة.

استطاع أن يقسم حياته العائلية في هليوبوليس حيث كان منزله وعيادته لأناس الطبقة الوسطى وعمله في مستشفى CMS وبين نشاطه السياسي السري. عندما أمضيت سنتي الأولى في Princeton وكنت في الثامنة عشرة من عمري وكان ظهوري مزيجاً من أمريكاني مبتدئ وعربي بورجوازي من نسيج الاستعمار الذي يهتم بشؤون الفلسطينيين الفقراء، سألته ماذا يعني عمله وحياته السياسيين. أتذكر أيضاً ابتسامته الجذابة، أجاب يجب أن نشرب معاً القهوة لنتناقش في الموضوع. ثم نتلاقى في مجتمع ما. عندما انشغلت بالتاريخ العربي والسياسة تصورت جواباً يفسر ما أصابه نتيجة الأحداث في مصر عقب تصاعد المشاعر القومية في سنوات عبد الناصر الأولى كان ناشطاً،

عضواً مقتنعاً في الحزب الشيوعي طبيباً يتابع مسيرة والده. ناشطاً لإيديولوجية اشتراكية وطنية ما أتيحت لنا المناقشة بسبب فوارق العمر بيننا.

ما كنت أعلم أن عائلته ووالدي شددتا الضغط عليه في عام ١٩٥٨ أن ينسحب من الحزب. رغم الضغط الذي مارسته عليه، ما منعها ذلك أن تتعاطف مع أفكاره. في يوم من شهر كانون الأول ١٩٥٩ عندما اعتقله أمن الدولة من منزله في هيليوبوليس، كنت أنا بعيداً في الكولوج.

أسبوعان بعد ذلك أتت زوجته آدا منفعلة تصرخ تكاد تكون عارية إلى كنيسة هيليوبوليس الإنكليكانية وقاطعت الصلوات الأسبوعية باللغة العربية، تصرخ أتت الشرطة للبيت وطلبوا مني أن أجلب زوجي من مخفر الشرطة، اعتقدت أنهم سوف يطلقون سراحه، لكن الشرطة قالت لي اذهبي وعودي مع ثلاثة أو أربعة رجال أقوياء. ولما سألت عن السبب أجابوا ليحملوا نعشه. كانت هائجة لتروي الأكثر، أحضرها واحد من أبناء الكنيسة للبيت بينما ابن عمي يوسف ذهب مع ثلاثة أصدقاء إلى مخفر الشرطة. قادتهم الشرطة إلى مقبرة متردية في العباسية حيث انتظرهم ضابط وشرطيان، كانوا يحرسون حفرة في نهايتها سحارة. قالوا يمكنكم ترك السحارة في الثقب لكن أحداً يجب أن يُوَقع. لا يسمح لكم فتح السحارة أو توجيه أسئلة أياً كان نوعها. أصدقاء فريد الفلسطينيون فعلوا ما طلب منهم والعساكر رموا الثقب وقالوا لهم الآن يجب عليكم أن تذهبوا وأكد عليهم من جديد عدم السماح لهم بفتح السحارة.

حياة فريد ووفاته يشكلان دوافع عميقة في حياتي، أربعون عاماً بعد ذلك رغم أن الأعوام الأربعين ما كانت أعوام كفاح سياسي فعال حيث عشت في

الولايات المتحدة بعيداً عن الأحداث عن المحيطات الاجتماعية والسياسية، شعرت أني أحتاج إلى سنوات لأعرف ماذا حصل له بعد اعتقاله. في عام ١٩٧٣ في باريس عرفني سياسي فلسطيني على شيوعيين مصريين وأخبروني أن فريد توفي في مخفر الشرطة نتيجة تعذيبه ما لم يروه بأعينهم، بل حسب معلومات وثيقة كما قالوا، من تقاليد العالم الثالث المهترئ بعدم معرفة الحقائق.

لما كنت في القاهرة عشرون عاماً بعد ذلك وعملت على استقصاء الحقيقة، عرفتني الصديقة منى أنيس على قبطي متقدم بالعمر أبو سيف وزوجته أليسا أصدقاء مقربين من فريد.

وعرفت أكثر أن أبا سيف كان الرئيس المباشر في الحزب لفريد. أنا ومنى زرنا أبا سيف وزوجته حيث كانا يعيشان منزويين في طابق أرضي على طرف النيل باتجاه بولاق في مبنى كبير بني علي الطراز الروماني وكأنهما أرادا أن يبقيا في عالم النسيان.

المنزل كان حاراً وغبارياً وعتماً رغم الموبيليا المرتبة وشاي وكعك أليسا. سألتهم فيما إذا كان أولاد فريد تركوا عنوانهم أو حاولوا الاتصال بأصدقائهم بعد هجرتهم إلى أستراليا. كلاهما نفى حزينين كما لو كانا يقولان أن ملف فريد تم إغلاقه. أبرزت أليسا صورة قديمة لفريد وزوجته بألبستهما الأنيقة وألقينا نظرة على حياة زوجية ماضية ـ ثم أهدتني الصورة ربما بسبب اهتمامي اللامنقطع بقضية تم نسيانها ودفنها. وجلب فريد للسجن، شاهدت ذلك بأم عيني، خلعت ملابسه كما خلعت ملابسنا، فرقة من الشرطة تجمعت حولنا وانهالوا علينا ضرباً بالعصي ما كان يقال عنه "الاستقبال الودي"، فريد أخذ

للتحقيق رغم جروحه الكبيرة وبدا وكأنه غائب عن الوعي يتلوى بالمشي، سألوه إذا كان طبيباً روسياً، أجاب كلا أنا طبيب عربي، الضابط لعنه وانهال عليه بالضرب عدة مرات على رأسه لينهار ميتاً. بعد مغادرتنا خطر على بالي أن أسألهم فيما إذا كانوا يعرفون أن والد فريد فلسطيني لكن فات الوقت، كان بالنسبة لهم بالدرجة الأولى رفيقاً، من أقلية مسيحية وربما كان في نظرهم شامياً.

وأعتقد أنه بسبب وجود يهود أعضاء في الحزب الشيوعي، لم يكن الكلام عن أصل فريد. لأنه ربما كان يؤدي ذلك لتشنجات. كوني في حياة فريد لم أتحدث معه مرة عن فلسطين، ذلك مثل آخر كيف عزلت فلسطين عن حياتي في الماضي. فلسطين لعبت دوراً غامضاً في علاقات والدي مع شركائه نتيجة التجاهل والصمت ومن ناحيتي نقصان المعرفة.

أولاد عمي، عمتي نبيهة، جورج ابنها الثاني وزوجته هدى قدموا إلى القاهرة بضعة أشهر قبل سقوط القدس. فترة قصيرة بعد ذلك جاء عبر عمان يوسف وزوجته عائدة، حصل بين الشابين ووالديَّ توترات. كعائلة كنا مندمجين ملتصقين حيث لم تعد هناك "القدس" التي يمكن العودة إليها. المعضلة كانت من يدير الأشغال التجارية، اختلف الرأي بين طرفي العائلة. والدتي لعبت دوراً رئيسياً وتاريخياً. قالت إنه من المؤكد أن العم بولوس (ابن عم من الدرجة الأولى لوالدي وزوج أخته) أسس في عام ١٩١٠ محلاً في القدس لكنه كان متجراً صغيراً للكتب واللوازم المدرسية حتى عاد وديع من الولايات المتحدة.

استثمر كثيراً من المال في محل ابن عمه: Palestine Educational Company لكن والدي لم يسجل كمية الأموال التي تبرع بها ولم يكن يعرف

مقدارها ليصبح أولاد العم شركاء متساوين. حسب روايات والدتي أحضر والدي معه أفكاراً أمريكية ما أتى للمحل بثمار غير متوقعة.

بعد بضع سنوات أتى والدي للقاهرة لأن فلسطين بدت له صغيرة وضيقة وأسس في القاهرة Standard Stationery وحصل على عدة وكالات لـ: Royalآلات كاتبة, Sheaferأقلام,Aft , موبيليا، Monroe آلات حاسبة.

ما كان لي معروفاً منذ طفولتي. وسرعان ما فاقت الأرباح المحل الفلسطيني.

في هذه الفترة بين ١٩٢٩ و١٩٤٠ هذا ما أكده أولاد عمي الكبار وعمتي نبيهة وقالوا إن بولوس كان يدير الأعمال واستشهدوا بمئات الأوراق التي كان كتبها، بينما كان والدي يعتمد على ذاكرته وقليلاً ما سجل بعكس ابن عمه الذي سجل كل شيء بدقة بالغة وكان أولاد العم يحتفظون بنسخ ما أكد أن والدي كان له دور ثانوي خضع لخبرة وإدارة ابن عمه.

جورج ويوسف كانا يثيران الأزمة بعد الأخرى في أعمال والدي وربما كانت عمتي تحمسهم في إثارة الأزمات.

لكنها تمكنت بطريقة عجيبة من الحفاظ على علاقات جيدة مع أخيها والدي، كنا نسمع قليلاً عن ذلك من تلمحيات غير مباشرة من والدي وإيضاحات ناقصة متعمدة من والدتي.

والدي ما كان يرغب بتحليل وتقييم الماضي كان يعبر عن غضبه واستيائه فقط تجاه زوجته. ولا يرد على استفزازات أبناء العم. كان يتهم بأخذ قروضٍ كبيرة من البنوك ويقولون عنه بانتقاص "بياع" وأنه لا يريد أن يُحمِّل الشباب مسؤولية في الأعمال التجارية.

سألني مرة ماذا كان علينا أن نفعل غير أن نبيع. فترة قصيرة بعد وصول يوسف إلى القاهرة، كُلف بإدارة المحل التجاري في الإسكندرية ولكن بعد أشهر قليلة في "الريف" كما ادعى عاد إلى القاهرة. رغم كل هذه التخبطات التقت العائلة مراراً حسب التقاليد العائلية على طعام الغذاء، طعام العشاء، ثم النزهة دون أن نشعر نحن الأطفال بتوترات في العائلة.

عندما غادرت القاهرة في عام ١٩٥١ للسفر لأمريكا للمنفى، كما رأيت، تصدعت العلاقات بين عائلتنا الكبرى في مصر والقدس على ما ظهر إلى غير عودة. أنا بدوري عزوت ذلك لضياع فلسطين، لكن ما كان أحدٌ من عائلتنا بمقدوره أن يقول ما هي الأسباب.

كان كل شيء في رأيي يعود كوننا عشنا غرباء في مصر دون أن نعود لأصلنا الفلسطيني. تكرر العبارات مثل جوازات سفر، أذون إقامة، هويات شخصية، جنسية، انتماء وطني، في الأحاديث زادت كما تنامت أخطارنا على قاعدة التطورات السياسية في مصر وفي العالم العربي.

في أعوام ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٠ تراجع النفوذ البريطاني في مصر وتضاءلت سلطة النظام الملكي في تموز ١٩٥٢ حدثت ثورة الضباط الأحرار لتكون مصالحنا كعائلة غنية أجنبية عرضةً للتهديد. الغالبية المصرية ما كانت لتحمي مصالحنا. حسب انطباعي ما كان أبناء عمي مهددين بالخطر أكثر من والدي ربما بسبب شبابهم وانتمائهم العربي وقابليتهم في التعامل مع الواقع. هذا الوضع ضاعف التوترات ضمن العائلة، والدي لم يقل لأولاده شيئاً عن هذه الأمور لكني عرفت من والدتي أن جورج الذي ظهر لي بهيبة "برفيسورية"

يحمل نظارات وعندما جاء لتناول الطعام وعزف على البيانو قطعاً لشوبان وشوبرت كال لوالدي ضربات. ما رأيته أمراً مثيراً غير عادي وكنت حائراً بين أمرين أولهما، نوع من الارتياح إن هناك من هو أقوى من والدي والأمر الآخر أن يكون والدي ضحية منافس أقوى. كانت تدور الأمور حول من كان له الحق أن يقرر وكون هذا الحق لم يشتق من القدس والماضي، كان والدي دوماً مستعداً للكفاح، بينما كنا نحن تركيبة بوضع آخر (عمتي وأبناؤها، ونحن سبعة أشخاص) تكاتفنا دائماً. كنت على معرفة أن هناك بعضاً من المواضيع لا يمكن أن أتعرض لها إطلاقاً كالجنس مثلاً، عن ماضي والدي، عن أمواله، عن فلسطين وأمور العائلة الداخلية الدائمة التوتر.

والدتي ذكرت مراراً إنه من شديد الأسف والدكم أو "الديدي" لم يجب على رسائل بولس التهمية كما لم يحتفظ بها وترك يوسف دوماً يلوح بمحتوياتها. كان والدي يقع في مواقع ليست من صالحه والجو كان مشحوناً بتهم وتهم معاكسة ضمنية غير ملفوظة. وصل ذلك إلى حد حُذرنا من الكلام بوجود عمتي وأن لا نقبل دعوات الطعام.

فجأة في ربيع ١٩٤٨ تشنجت الأزمات العائلية والأوضاع السياسية وقال والدي سوف نذهب إلى أمريكا، فقط الأخوات جويس وغريس خمس سنوات وسنتين من العمر يبقيان، هذه الخطوة فوق العادة لم أفهمها. تلك السنة كنت منشغلاً بدور أسند لي في مدرسة CSAC فوجئت به في حفل موسيقي (Musical) اعتقدت لأن مظهري شرقي.

سمي الحفل "الجزيرة السحرية" وكان أمْرَكة عاطفية لإقامة شوبان في جزيرة مالوركا مع جورج ساند. الدافع العاطفي اختلق بإدخال عائلة إسبانية

وقعت ابنتها في غرام شوبان. الدور الذي لَعبتُه كان الأب غوميس، الفتاة مارغرين اوسبورن من الصف العاشر لعبت دور الأم غوميس ودور شوبان لعبه أمريكاني وجهه مليء بحب الشباب لكن صوته مسرحي.

فكرة التقدم المسرحي كنشاط مدرسي كانت جديدة. وفي مدرسة GPS قدمت بعض المقاطع وقام بالأعمال الجسدية الصعبة خدام المدرسة. اللعب كان مراقباً بشدة من المعلمة، والمخرجة من جهاز التعليم عاملت التلميذات معاملة سيئة وكأنهم لعب أطفال Puppe بمن فيهم ميشيلين ليندل أنجب تلميذة. في مسرحية الجزيرة السحرية كان لأصغر التلاميذ دور، بينهم كان النجارون والدهانون والملقنون والكومبارس. كانت تشرف علينا مس كيتشوم معلمة اللغة الإنكليزية في السادسة والعشرين من العمر ذات الأسنان الكبيرة.

أذكر كيف أزعجت هدوء الصف عندما سألت بصوت عالٍ ماذا تعني كلمة "اغتصاب" مس كيتشوم التي كانت تُدعم أحياناً من المعلمة العصبية الأكبر مس جيل، مرنتنا على أداء الجزيرة السحرية وكان دوري كأب لـ: كونشيتا أن أحول اهتمامها بشوبان إلى الشاب القروي خوان حيث هو أنسب لها، وكانت الفرص بين عرض وآخر تملؤها موسيقى عسكرية ليست في محلها.

كل ذلك كان مربكاً لي، شاب في الثانية عشرة من عمره يمثل رجلاً في منتصف العمر أب وإسباني في إطار تزويري ممزق لشوبان بغض النظر عن الجو الأمريكي الذي أبرز لي غربتي. في خضم ذلك كان سفرنا إلى الولايات المتحدة ما تحدثت عنه لزملائي. تكون الحفل من عرضين، وحضر أهلي العرض الثاني وما أعجب والدي أنه كان لي زوجة في العرض، والدتي عانقتني بينما ما قاله والدي

أحرجني، وقفنا مع أهل التلاميذ، تبادلنا الأحاديث، شربنا "بنش" (مشروب كحولي) مع معلمات. المعلمة مس كلارك فقط وقفت بعيدة منزوية تدخن وتتناول مشروبها. شعرها الكستنائي اللون ربطته إلى عقدة تلفت النظر. والدي قضى وقتاً بالبحث عن المبعوث الأمريكي حيث لم تكن في القاهرة بعد سفارة أمريكية. البريطانيون استمتعوا بدور الأقوى رغم تضاؤل نفوذهم.

كل ذلك كان قبل رحيلنا من الإسكندرية. والدتي جرتنا أنا ورزي وجين إلى ظهر الباخرة الإيطالية "ساتورنيا". والدي تبعنا ووزع "البخشيش" الإكراميات على الحمالين الذين حملوا جملة من حقائبنا. رغم ما سمعته عن البواخر كان أول احتكاك بالباخرة وحيداً من نوعه سواء اللغة، البذلات البيضاء البراقة، للضباط والـ: ستيوارت، وطاولات المطعم والأكل غير العربي والكابينات مع نوافذها. وبينما كنت أراقب رحيل الباخرة، فاجأني والدي بقوله: ادي بوي "ما استعمله من تعبير منذ دخلت مدرسة CSAC، زوجتك هي أيضاً على ظهر الباخرة.

عيونه كانت تبرق وقال إنه يعرف إحراجي عندما أخبرني بذلك. دون أن يكون لي أي تصور ما تعني الزوجة غير ما ألفته في عائلتنا. فوجئت أن والدي كان يقصد دوري كبابا غومس وزوجتي في المسرحية مارغاريت اوسبورن هي بطريقة الصدفة أيضاً على ظهر الباخرة.

صادفتها مرة واحدة وقد كانت تمر بجانبي على الدرج دون أن تعيرني أي اهتمام أو تذكرني. والدي سألني مراراً عنها ما أزعجني وباعدنا. ما كنا نعرف أن هدف السفر كان لعلاج والدي وما كان قد سبق كلام عن أي مرض يعانيه، والدتي ألمحت إنهم يريدون استشارة طبيب مشهور دون أن يعاد الحديث عن

ذلك خلال السفر. والدي كان يلعب البريدج. كان يجلس معنا للطعام في مطعم الدرجة الأولى ونلتقي على ظهر الباخرة أحياناً، كنت قلقاً وتذكرت أياماً في رام الله في صيف ١٩٤٢ في لحظات غضبه عن الـ:

ووعظه عن المساوئ ووقفتي غير المستقيمة وإسرافي في المال[1]، ما جعلني أنسى ترف السفر على الباخرة. كنت ألعب تينس ومساءً بينغو Bingo مع تجوالي في أروقة الباخرة.

لسروري اكتشفت أني ما كنت معرضاً لمرض الدوخة في البحر. لما عبرنا مضيق ميسينا بقية أفراد العائلة مكثوا في كابيناتهم (مقصورات) بينما كنت أنا أستمتع بأروقة الباخرة الخالية من المسافرين.

وجدت الكثير من المجلات الأمريكية، في المساء كانت تعرض أفلام، وفرقة عزف للرقص، عزفت في قاعات خالية والعديد من البحارة بزيهم الأبيض غير المعروفين مثلي ما عدا الأكل الطيب. ساتورنيا مرت بأثينا، نابولي، جنوا، مارسيليا، وعبرت مضيق جبل طارق.

مررنا بمدن مدمرة من الحرب، تناولنا طعاماً مجهولاً على اليابسة قبل أن نعود إلى الباخرة. نابولي بدت مميزة بعد زيارة عابرة في بومبيجي Pompeji حيث ما سمح لنا مشاهدة موزائيك ممنوعة للأطفال، جلسنا قرب الميناء وأكلنا سباغتي. وهناك استمعنا لبحار غنّى "سانتا لوسيا" لحن مفضل لوالدي يسمعه على أسطوانة لـ: كاروزو Caruso. من تجوالنا اليومي بقي لديَّ في

1 لا أعرف التعبير العربي والمقصود هو استخراج السائل المنوي للشباب في سن المراهقة، العادة السرية.

ذاكرتي أننا كنا فرقة صغيرة مغلقة كمركب فضائي يسبح فوق أماكن غريبة، تجولنا في مدن أجنبية دون أن نحتك بها. لما وصلنا نيويورك تصدرت مشكلة والدتي الأحداث كونها "ليست مؤهلة" بعد سقوط فلسطين. لتحصل على جواز أمريكي، يتوجب عليها الإقامة لمدة طويلة في الولايات المتحدة ما لم ترغبه. في كل مكان دخلنا مكتب محام، مبنى حكومياً، أعادوا علينا نفس الشرط. والدايّ ما كانا يرغبان في تنفيذ الشرط، واستمرت المحاولات طيلة ثماني سنوات لتحصل على جواز أمريكي دون هذا الشرط دون نتيجة.

فشل محاولات والدتي يعود كونها استطاعت عام ١٩٥٦ بمساعدة السفير اللبناني في القاهرة الحصول على الجنسية اللبنانية. حتى وفاتها في عام ١٩٩٠ انتقلت بجوازها اللبناني الذي حُول فيه مكان ولادتها بصورة غاية في السرية من الناصرة إلى القاهرة. في الخمسينات عشرون عاماً قبل اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، "كان أصلاً مصرياً أفضل من أصل فلسطيني".

كل شيء سار على ما يرام حتى أواخر السبعينات، عقد بعد وفاة والدي، بدأت لها المشاكل بسبب جوازها اللبناني. كل مرة كانت تطلب فيزا لأوربا أو أمريكا عند ما تعبر الحدود.

فجأة أصبح اللبنانيون في أعين الغرب إرهابيين وهكذا رأت نفسها الحساسة الفخورة في خانة معينة. حاولنا من جديد الحصول على الجنسية الأمريكية فرأى الأمريكان فجأة أنها كزوجة أمريكاني شارك في حرب أمريكية أرملة وأم لخمسة أطفال أمريكيين تستحق الحصول على الجنسية وقيل من جديد إنه يجب عليها تحويل مكان إقامتها إلى أمريكا. ما لم تقبله وفضلت

حياة في بيروت دون هاتف، دون كهرباء، ومياه جارية عن حياة الرفاه في نيويورك، أو واشنطن. حتى ظهرت أعراض مرض سرطان الثدي من جديد بعد ما كان جراح لبناني في بيروت قد أجرى لها عملية في كانون الثاني ١٩٨٣. عرفت أن النهاية اقتربت ورفضت العلاج الكيماوي لخطورته خوفاً من الأعراض الجانبية كما قالت لي.

في عام ١٩٨٧ اشترت منزلاً في شيفي شيز Shevy Chase في ولاية ميري لاند Mary Land وعاشت هناك بالفيزا الزيارية. في فترات طويلة. زارت طبيبها بشكل منتظم لكنها لم تعمل بنصائحه. عندما فقدت الوعي في شهر آذار عام ١٩٩٠ انتهت فاعلية الفيزا وأختي جريس التي كانت تسكن معها وتعتني بها، كانت تتعرض في أيام والدتها الأخيرة لتهديدات الإبعاد.

ما دفع القاضي غاضباً أن يضع حداً لذلك بتعنيفه محامي مصلحة الهجرة الذي أراد إبعاد امرأة في غيبوبة في منتصف السبعينات من عمرها. بعدما رفضت الإقامة في أمريكا توفيت في أمريكا ودفنت فيها، البلد الذي حاولت تجنبه وفي أعماقها لم تحبه. البلد الذي قيدت به بسبب زوجها وأولادها وأخيراً بسبب مرضها. كل ذلك بدأ حين دخلت الباخرة ساتورنيا في أوائل شهر تموز ١٩٤٨. ميناء نيويورك.

فلسطين سقطت ودون أن نتوقع توجهت حياتنا إلى الولايات المتحدة وهناك بدأ الأمر الذي في مجراه ظهر السرطان الذي شاء أن ينهي حياة والدتي وحياتي في الولايات المتحدة. لدى وصولنا إلى مرسى الشركة البحرية الإيطالية في أمريكا لا أعرف ماذا شعرت عندما شاهدت أطراف العالم

الغريب الذي دخلناه، أتذكر الفوارق الكبرى بين صالونات الدرجة الأولى في الباخرة الإيطالية والمكان الهزيل مع طاولة وبعض الكراسي في قاعة الجمرك والجمع الغفير من المهاجرين الذين شاهدتهم لأول وآخر مرة.

لا أنسى أول نظرة لأمريكا الشمالية ودون معرفة كما قال والدي إن الضباب والريح جعلانا نصل إلى الشمال ما لم يكن هدفنا. في الصباح الباكر قبل وصولنا بثلاثة أيام خرجنا إلى سطح الباخرة حال دخولنا إلى مرفأ هاليفاكس. كان الضباب كثيفاً ولم نر سوى بضعة أمتار أمامنا وفي البعيد يقرع جرس لحناً حزيناً. على الخارطة رأيت كيف انحرفنا عن الطريق ووصلنا إلى الغرب ليس إلى هوليود بل مدينة صغيرة ما كنا لنرى معالمها من على سطح الباخرة بسبب الضباب.

في نيويورك نزلنا في فندق كومودوري Commodore في شارع East Forry – Second والدي كان نزل فيه في عام ١٩٤٦ حيث يقع بالقرب من شركة رويال للآلات الكاتبة في تقاطع افينيو Park Avenue وشارع Thirty Fourth – القفازات البيضاء لعمال المصاعد وسرعة الصعود إلى الطابق الخامس والثلاثين وسرعة النزول كل هذا ترك انطباعاته لدينا. حنفية الماء المبرد حازت على إعجاب والدتي، وديع لماذا ليس عندنا في القاهرة مثلها سألت والدتي، مضيفة تجعل الحياة أسهل، والدي لم يجب.

هكذا كان رده طيلة حياته مع والدتي ومعي حيث يصنف السؤال كسخيف.

الشوارع المستقيمة، الغابة من الأبنية الشاهقة، المترو الصاخبة السريعة، خشونة سكان نيويورك كل ذلك كان متناقضاً مع شوارع القاهرة الملتوية والفوضى

لكن لم يكن مهدداً. لم يعرنا أحد اهتماماً في نيويورك، وإذا كان الأمر على العكس كما قالت والدتي كان السبب كوننا معاقين بلهجتنا ومظهرنا اللباسي الأنيق النظيف. كنت نفسي موضع سخرية الناس عندما ذهبت إلى مطعم آلات أوتوماتيكية مطعم Horn and Hardart وأردت حليباً ونسيت أن أضع الكأس تحت مخرج الحليب، ومرتين ما فَرَقت بين الحليب العادي وحليب الزبدة ونسيت مرتين الكأس الذي دفعت ثمنه دون أن آخذه لأشربه.

أسبوع كامل أنجزنا برنامجاً سياحياً، متروبوليتان Meteropolitan، متحف، كنيسة سان باتري، الحديقة المركزية، فقط القاعة الموسيقية لـ: راديو سيتي أعجبت بها ليس بسبب المسرح الجميل، بل بسبب فلم موعد مع جودي Adate with Judy مع Lauritz Melchior Jane Powell, Georg Brent, Carmen Miranda

تطابق ذلك مع تخيلاتي عن أمريكا، خلال عرض الفلم نسيت أمريكا في الخارج وأنا مرتاح في المقعد المخملي إضافة لشرودي حيث علمت أن والدي سوف يخضع في شهر أيلول لعملية جراحية وفي الوقت المتبقي من أربعة إلى خمسة أسابيع يجب إيجاد مأوى للأولاد. أذكر زيارة طويلة لوالدتي في مكتبة مجلة Parents في ساحة Vavderbilt حين تصفحت مجلات عن مخيمات صيفية للصبيان وللبنات واختارت لي مخيم Maranacook في Maine وميومادايو Myomadayo أيضاً في Maine لروزي وجين.

زودتنا بما نحتاجه بعد ما سجلتنا هاتفياً وامتطينا القطار من محطة Grand Central إلى بورتلاند Portland.

في الصباح التالي اعتراني نوع من الدوخة وفقدان القوة لأول مرة في حياتي سوف أكون لمدة طويلة بعيداً عن أهلي. مديرا المخيم مستر دولي ومستر هيالمان استقبلانا في محطة القطار، كلاهما كانا يرتديان بذلات كتانية ممسطرة وأحذية بيضاء ليصطحباني إلى مدينة فنيتروب، قبلة سريعة من الوالدة وعناق دبيّ من الوالد "حظ سعيد يا ولدي" وانتهى التسليم. سافرنا صامتين أنا في الخلف في سيارة الجيب وهما في الأمام.

بقيت شهراً في مارانا كوك ووصلتني رسالتان وبطاقة من والديّ من شيكاغو كنت مع فرقة من ستة صبية من عمري في خيمة واحدة ورئيس الفرقة جيم موراي في السابعة عشرة من عمره.

كنت أُزاول ركوب الخيل، السباحة، رياضة الكرة، قذف كرات الحديد، وركوب القوارب الصغيرة في النهر كل ذلك بشكل روتيني وكأني أعيد حياة القاهرة، كوني الأطول والأقوى لسرعان ما كان لي شهرة وسُميت "إد سعيد" الصبي النابغ من القاهرة. من الفرقة أتذكر اثنين الأول صبي لطيف من نيويورك جون باغي والمسرحي الطليق الكلام توم ميسر الذي كان يتبول كل مساء أثناء نومه ولهذا يحتاج لكثير من الشراشف. كانت الحياة في المخيم روتينية حتى أن حدثاً أظهر لي جلياً غربتي وهويتي المؤقتة.

بعض الأمسيات سافرنا في قوارب إلى جزيرة قريبة في بحيرة مارانا كوك لنأكل هناك ونشعل النار ونغني ونقص الحكايا، كان ذلك المساء بارداً رطباً انتظرنا إشعال النار لشوي الطعام شعرت بالعزلة، أين أنا، ماذا أفعل في هذا المحيط الغريب، لم أجد علاقة بين المكان وبين ما عرفته في المدارس الأمريكية في القاهرة. الكل كان ضئيلاً وسلطة البطاطا أيضاً.

بعد الطعام تجولنا على الشاطئ، غنينا قليلاً ثم بدأ قائد الفرقة متوسط العمر ببعض خصلات شعر أبيض على رأسه يذكرني بالهندي الأحمر الشرير في أفلام عن الهنود الحمر، برواية قصة عن النمل الأحمر الذي دخل في أذن رجل نائم وخرب دماغه.

دون توقف كنت أتجول حول النار مبتعداً عن القصاص المغضبة. كنت لا أزال جائعاً وأكلت ما تبقى على طاولة الطعام ظاناً أن أحداً لم يرني. بعد عودتنا للمخيم أشار لي "موراي" أن أتبعه للبحيرة وبدأ يعنفني قال رأيتك وأنت تسرق ما تبقى من الطعام لماذا فعلت هذا، كان لكل نصيبه، ليعتريني الخجل الشديد، صمت قليلاً ما كنت لأرى وجهه في الظلام، لكني تأكدت أنه يظهر الغضب وربما الكراهية. قال إذا لم تغير سلوكك سوف أشكيك للسيدين دولي وهايلمان ليعيداك إلى أهلك، لا نريدك هنا.

وجدت نفسي في الهاوية ورجوت بكل ما أستطيع عدم إرسالي لوالديّ لأن ذلك سيجلب لي مصاعب جمة. تصورت دموع والدتي وغضبها ووالدي يدخلني إلى غرفة وينهال علي "بالضرب". ما كنت أعرف أين أهلي وألم بي الخوف والعذاب فيما إذا أتوا إلى بورتلاند ليأخذوني معهم. هذا ما عدا العقوبات الشديدة والخجل الذي سوف يسيطر عليّ.

لم أسمع الأكثر من مستر موراي وتركني أعود لسريري البارد الرطب. سنوات بعد ذلك عندما قرأت ستيندال Stendhal اكتشفت نفس الطريقة من التقريع في وصف يوليان سوريل Julien Sorel الذي أصيب بالدوخة عندما رأى راهباً ينظر إليه مباشرة.

شعرت بنفسي في عالم معزول أراد موراي ومس كلارك وضعي فيه. أصلي ومرجعي الاجتماعي وهويتي الحقيقية تحول كل ذلك إلى مشكلتي ومعضلتي. لم أر إمكانية طرد الأرواح التي كانت تلاحقني من مدرسة إلى أخرى، من جماعة إلى جماعة، من وضع إلى آخر. لهذا صممت أن أعيش كروح شفافة، لن أتكلم عن أهلي وعن مصدري أكثر مما هو متوجبٌ وإذا اقتضى الأمر بكل تحفظ. سوف أصبح كالآخرين مجهولاً ما أمكن، الفصل بين إدوارد وسعيد ما وصلت إليه.

الفصل بين مظهري بين أناي وبين داخلي الذي لا يشعر بمسؤولية، الغارق بالخيال، المبعثر للأمور أصبح طابعي. لاحقاً كانت الهزات والتصدعات في داخلي صعبة السيطرة.

ما تبقى من الوقت في مخيم مارناكوك انقضى روتينياً لأني لم أعد أشعر بالرضاء ولا التفاهم مع رفاقي. موراي لم يعد ليتكلم معي وأنا أيضاً، معه في حدث آخر تجلت بصورة خاصة حياة المخيم وفقدت المتعة والسرور بل تحولت إلى عبء، فرقتي تنزهت على القوارب مع نوم خارج المخيم وتخلل ذلك رحلة عبر الغابة من بحيرة إلى أخرى.

كانت رحلة طويلة تارة مشياً عبر الغابات وأخرى في القوارب الصغيرة عبر النهر. تحت شمس حارقة ومياه بنية اللون طينية، في قاربي جلست أنا في الخلف وآخر في الأمام وبيننا قائد الفرقة، أندى باسم تشيكي طويل.

كان يلبس بذلة سباحة حمراء اللون، يدخن الغليون، ويقرأ في كتاب لم أر عنوانه.

وللغرابة ما كان ينتهي من قراءة صفحة ليخلعها من الكتاب ويحولها لكتلة صغيرة ويلقيها في الماء، تساءلت ماذا يعني ذلك وعزوت ذلك إلى عادة أمريكية ما استطعت فهمها.

بعد عشرين عاماً عدت للمكان الذي كان فيه المخيم ووجدت ما يشبه غرفاً خشبية فارغة مهجورة كما تحول المكان لـ: موتيل Motel"[١] وعندما سألت عن مخيم مارناكوك لم يكن أحد يعرف شيئاً عنه. النصف الثاني من شهر آب والنصف الأول من شهر أيلول قضيناهما في نيويورك بينما كان والدي قد دخل مستشفى: Columbia – Presbyterian أنا ووالدتي دخلنا بنسيون بالقرب من المستشفى، شقيقتاي كانتا عند إميلي أرملة عمي "آل" مع أولادها آبي، شارلي ودورتي. كلهم أكبر مني ينتقلون بين الـ: كوينس Qeens ومانهاتن للعمل.

آبي كان يعمل في بنك، شارلي في محل أدوات قرطاسية، ودورتي في مطبعة دليل هاتف. عملية الكلية لوالدي كانت تتصدر الأحداث وهدف السفر لأمريكا والخطر بدا لي جلياً عشية يوم العملية. ألفت أزمتين صحيتين لكن هذه المرة تصورت لأول مرة خطر وفاة والدي والحياة بدونه. الأزمة الثالثة كانت بعد ذلك بعشرين عاماً وكانت الأبشع، لكن أزمة ١٩٤٨ أقلقتني أكثر. حيث زادت المخاوف من المستقبل والعزلة.

والداي دعوا الدكتور فؤاد صبره لبنانياً موهوباً كان يعمل في نفس المستشفى الذي دخله والدي، في الأمراض العصبية، إلى عشاء في مطعم لبناني

1 فنادق طرقات السفر تسمى في الغرب موتيل

"أرز لبنان Cedars of Lebanon" في شارع ٢٩ وذلك قبل إجراء العملية بيومين وعرّف الدكتور فؤاد والديّ على دكتور فريد أسترالي يعمل في قسم الأمراض البولية تحت رئاسة الدكتور المشهور جون لاتمير John Latimer الذي سوف يجري عملية والدي.

فريد شرح لنا كل الأخطار الممكنة لدى إجراء العملية مثل العدوى، مشاكل قلبية، فقد دم الخ ... ما ترك لدى والدي تخوفات جمة رأى في ذلك مدعاة للقلق لكنه أمر لابد منه أنا ووالدتي رغبنا في عدم إجراء العملية أو على الأقل تأجيلها. فؤاد حاول إيقاف فريد بالكلام عن الأخطار والمضاعفات الممكنة دون جدوى. سنوات بعد ذلك بعد ما عاد دكتور فؤاد إلى لبنان وزاول مهنة الطب فيه وتزوج إللن بدر ابنة عم والدتي الصغرى وأصبح بروفسورا للأمراض العصبية في الجامعة الأمريكية في بيروت، تذكرنا المساء مع الطبيب الاسترالي فريد وتوصلنا إلى أنه ليس من الضروري قبل العملية كل هذا الكلام وضحكنا كثيراً والدي والبروفسور فؤاد تبادلا المزاح حول الأمسية الماضية مع الدكتور فريد .؟

عملية الكلية لوالدي تمت بنجاح وكانت الكلية تحوي على كيس مائي فقط دون وجود ورم. رغم ذلك توجب استئصال الكلية، ما تبقى كان ندبة طويلة من الظهر إلى الصدر، لأسبوعين خلال إقامته وظفت والدتي ممرضاً بريطانياً ليعتني به. عندما خرج والدي للنزهة في أروقة المستشفى على كرسيه المتحرك مع الممرض، كنت أمشي معهما. بينما كانت والدتي تجلس على طرف سرير والدي، كنت أنا أراقب الناس في غرف الانتظار، أحداث أخرى تتقهقرت

أمام الوضع الحالي لوالدي كضياع فلسطين. استأجر والدي جناحاً في الفندق الغالي: Essex وأقمنا فيه شهراً لنقاهة والدي الذي ما لبث يستقبل زواراً ويحدثهم عن الآلات الكاتبة رويال وأقلام الحبر شيفر وغيره وأصر على تواجدي رغم أني لم أجد حاجة لذلك.

بَوَّابْ حذرنا من النزهة في سنترال بارك، وعندما تسنح لي الفرصة، كنت أتجول في شوارع نيويورك بين المارة والمخازن والمسارح ودور السينما، أتفرج على السيارات، والباصات، والشرطة النشيطين والمساعدين بعكس شرطة القاهرة الذين كان معظمهم من أولاد الريف، وما كانوا يعرفون أسماء الشوارع التي يتجولون فيها. ضخامة عمارات نيويورك جعلتني أشعر وكأني "ذرة" وشككني في ضرورة وجودي، ما شعرت به لأول مرة. خلال إقامتنا في نيويورك ظهرت القضية الفلسطينية فجأة للوجود وسرعان ما اختفت. حين تصفح والدي ذات صباح جريدة وهو في فندق Essex سمعت لأول مرة عن تأييد الرئيس ترومان للصهيونية.

منذ ذلك الوقت يمثل بالنسبة لي الاسم "ترومان" رمزاً شريراً وقوة خافية مازلت حتى اليوم أحتفظ بهذا الانطباع ككل فلسطيني من الأجيال الثلاثة المنصرمة أراه مسؤولاً عن نقل ملكية فلسطين إلى الصهاينة واللاعب الأول.

ساعة بعد عودتنا إلى القاهرة عندما سألني أحد أقاربنا بصوت مرتجف "كيف يعجبك ترومانك"، كيف تتحمله، دمرنا. أحد أعمامي قال إنه في مركز روكفيلر أولاد صغار يجمعون تبرعات حاملين لافتات كتب عليها "ادفع دولاراً واقتل عربياً" لم يكن هو في نيويورك وأراد مني تأكيد هذا الخبر ما لم أستطع

فعله. منذ عودتي النهائية للولايات المتحدة أشعر بتباعد عميق للترابط الأمريكي الإسرائيلي بشكل أعمق وأكبر مما يشعر به أولاد وطني الفلسطينيون الذين يرون في الولايات المتحدة قوة صهيونية، لكنهم لا يرون تناقضاً في أن يرسلوا أبناءهم إلى المعاهد الأمريكية أو إقامة علاقات تجارية معها. حتى ١٩٦٧ كنت أفرق بين كوني أمريكياً، وبين تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل وكوني أنشد مستقبلاً جامعياً فيها، أذهب لمعاهدها ولي أصدقاء يهود في المعاهد. بُعْد فلسطين عني التي ولدت ونشأت فيها، سكوت والديّ عن مغزى الأحداث وعمقها وغياب فلسطين عن حياتنا وتذمر والدي من هذه القضية بصورة خاصة والسياسة بصورة عامة وعدم احتكاكي بفلسطين أحد عشر عاماً خلال تحصيلي العلم في الولايات المتحدة كل ذلك أبقى على ذكريات الألم والغضب.

ما كنت أتحمل ترومان لكن موقف آيزنهاوار مقابل إسرائيسل إبان حرب ١٩٥٦ عادل الموقف تأييد اليانور روزفيلت للكيان الصهيوني الحماسي أغضبني. رغم ما زعم عن إنسانيتها، لم أر أية محاولة منها لدعم لاجئينا الفلسطينيين. نفس الموقف المتحمس العاطفي لمارتين لوثر كينغ الذي أحببته من أعماق قلبي، تجاه إسرائيل في انتصارها في حرب ١٩٦٧، لم أستطع فهمه. نتيجة سفرنا عام ١٩٤٨ إلى أمريكا طغت على حياتنا المنزلية في القاهرة السياسة الأمريكية التي كانت تتداول دوماً. المؤرخة الامريكية دوروثي ثومبسون Dorothy Thompson كانت تعني الكثير بالنسبة لنا أولاً لأنها ظهرت مرة في القاهرة لداعٍ معين وكان والدايّ حاضرين وثانياً لأن والدتي اشتركت بمجلة Ladies, Home Jouranl وكانت ثومبسوت تكتب فيها

مقالات تساند القضايا العربية. ما كنت قرأت المجلة لكني أتذكر مكانتها تماماً مثل المار بيرغار وبعده الفريد ليلينتال Elmar Berger, Alfred Lilienthal "يهود ضد الصهيونية". لكن كل هذا كان بعيداً. ما أذكر من نيويورك كانت محلات دافيغا Davega في وسط نيويورك والقاعات الكبرى لمحلات .Best and Co في الساحة الخامسة حيث اشترينا لوازم المخيمات الصيفية ما عدا المقاهي العديدة التي كنا ووالدتي نرتادها لتناول طعام الغذاء أو القهوة بعد الظهر.

عدنا إلى مصر على متن الباخرة اكسكاليبور Excalibur للشركة الأمريكية Amerikan Export Line وكانت تحوي على درجة واحدة، كانت أصغر من ساتورينا وليست بتجهيز وأناقة ساتورينا ما كدنا نغادر نيويورك حتى تعرضنا لعاصفة قوية، والدي الذي لم يكن معافى كلياً من عمليته بقي في مقصورته أمي وأخواتي تعرضن لمرض البحر. ثلاثة أيام كنت لوحدي ولم يكن لمرض البحر أي تأثير عليّ ما سمح لي بالصعود إلى السطح وأتمتع بالمظاهر البحرية تناولت سندويشاتي لوحدي في البار وكان رجل البار الوحيد الذي يتبادل الكلام معي.

كانت الإقامة في الولايات المتحدة محطة على الطريق قبل أن نتابع سفرتنا الحقيقية إلى مصر وثم إلى لبنان. كبلد مفقود لم تعد فلسطين تذكر ما عدا حالة استثنائية خلال سنتي الأخيرة في مدرسة CSAC.

مباشرة بعد مناقشة حادة حول Joe Louis, Jersey Joe Walcott فهمت ما كان يقصد صديقي البرت كورونيل Albert Coronel عندما قال:

"ستة ضد واحد" التعبير أوجد انتفاضة في أعماقي، ظهر وكأنه يعاكس ما كنت أعتقده إن فلسطين سرقت منا من الأوربيين الذين أتوا مع البريطانيين الذين كانوا منظمين وأكثر قوة منا . فوجئت أن شخصاً مثل البرت يدخل الحلبة كان صديقاً عزيزاً لي وكان وأخته كوليت معي في مدرسة GPS ثم في مدرسة CSAC أهله يهود بجوازات إسبانية شعروا، بالقلق بعد عام ١٩٤٨ بوجودهم في بيئة عربية معادية بعد أحداث فلسطين. فوجئت بمشاعري المتغيرة تجاهه.

كيف كان الستة عنفويين وغير أخلاقيين. عانيت بانفصام الشخصية بما يتعلق بفلسطين ما لم أفهمه لليوم وما استطعت التخلص منه. ضياع فلسطين، الشعور الغاضب، الألم، الحزن، كل ذلك ترسخ في مجرى حياتنا إلى جانب الاعتقاد أن البلد بلدٌ موعودٌ لهم ولكن ليس لنا . هذا الشعور مرافق بشعور الضعف الذاتي وفقدان القوة ما لم أمتلك سلاحاً ضده. سنتي الأخيرة في مدرسة CSAC ١٩٤٨/ ١٩٤٩ في الصف التاسع كانت تحت ضغوط مدرسية واجتماعية فترة حزينة ومقيدة. كان لي في المدرسة أربعة أصدقاء ومعلمة مس بيريزي، امرأة متقدمة بالعمر كانت تعاني من ارتجافات مرعبة عندما تثار أعصابها درست بيولوجي، حساب، تاريخ واللغة الإنكليزية، بينما دروس الفرنسية والعربية كانت تحصل من معلمين محليين. ما كان يوجد صف عاشر وهكذا تم القرار أن أنقل إلى مدرسة أعاضد فيها كما ورد في رسالة وجهتها مس بيريزي إلى والدي. هذا كان يعني أن أجري فحص انتساب باللغة الإنكليزية لمدرسة في هيليوبوليس، الأسئلة كانت غير ممتعة لكنها بينت قلة معرفة بسهول إنكلترا الخضراء . سنوات المدرسة في CSAC ما كانت مجدية لبيئة ومنهاج المدرسة الجديدة.

كانت بيئة معهد فكتوريا يسيطر عليها الرجال بشكل أكثر خشونة، خصائصي الغريبة حالت بيني وبين الاختلاط بالطبقة المميزة بعكس أخواتي اللواتي أعطين أحسن مثال للتلميذات المجدات وكان لهن الكثير من الصديقات عُزِمْنَ مراراً لشرب الشاي أو لأعياد الميلاد.

آخر ربيع في CSAC أرهقني أكثر من قبل، بدت المدرسة وكأنها مدرسة ريفية بصف واحد تدار من قبل المعلمة العصبية مس بيريزي، أغلب التلاميذ الأكبر مثل ستان هنري، دتش فون شيلينغ، أخته، بوب سيمحا، مارغاريت أوسبورن، جين باديو، ذهبوا ومعهم اغلب المعلمين ما عدا كبار السن ومن كان من الصعب توظيفهم مثل مستر بلو مس بيريزي.

تربيتي الروحية والخلقية كانت من خلال دروس كنيسة أسبوعية في كنيسة: All Saints Cathedral في شارع ماسبيرو. كانت الكنيسة قسماً من مبنى كبير على النيل شمال ثكنة قصر النيل، ثكنة العسكر البريطاني، وهو اليوم فندق هيلتون، البناء بمدخله مَثَّل ثقة كبيرة بالنفس وجسد قوة ونفوذ البريطانيين في مصر. على جانبي الكنيسة كانت هناك مبانٍ تحوي على مكاتب ومنازل للموظفين في الكنيسة ورجال الدين. المبنى هدم في الثمانينات حين تم بناء جسر على النيل. عبر الأب فيدن والكاردينال أللين الذي كان يدير الكنيسة، تعلمت كتاب صلاة الكنيسة الإنكليكانية والكتب الإنجيلية وبصورة خاصة كتاب يوحنا، فيدن كان منفتحاً وإنسانياً لكني رأيت هفوة بين الرجل الأبيض وبين العربي، ولغته ليست لغتي، أذكر كيف بدا القول "في البدء كانت الكلمة، بوجه جديّ

وكيف كان يشرح الثلاثية" . "في اليوم الثالث نشأ من الأموات، ذهب للسماء وجلس إلى يمين الرب القوي" .

لازلت أحتفظ بكتاب صلاة من ذلك الحين وأقرأ فيه أحياناً . زميل لي في الدروس الكنسية طالب جامعة أمريكي ، أكبر مني بثمان أو تسع سنين ، قبطي جيمي بيشاي ميال إلى علم النفس انجذب إلى الكنيسة الإنكليكانية . كان أحياناً يتجادل مع فيدن . أعجبت بإيمان فيدن دون أن أقتدي به والقضية بدت لي مهمة لأن أهلي أصروا على مناهج الـ : Kon Firmation[1] . ظهور الكاردينال أللين النادر كان موضوعياً ومنبهاً ، كان على ما أعتقد أستاذاً في أكسفورد ورقى على مدى السنين إلى كاردينال غوفيري أللين يرأس الكنيسة المصرية والسودانية وربما الحبشية وغيرها وكان رجلاً ذا سلطة ووزن إداريين. عندما صادفته كان يرتدي ملابسه الحمراء توحي بابتعاد وعدم المبالاة والقرب من السفارة وغير ذلك من أمكنة السلطة . وعندما كان يظهر برفقة فيدن كان الفرق الكبير بينهما واضحاً لكن فيدن كان يتقن المجالات الدينية وما يتعلق بياكوب الأول وهوكار . كل ذلك في بلد بتاريخه العريق، الطويل ، الكثيف من الفراعنة حتى الملك فاروق، لم يأت ذكر كل هذا بكلمة واحدة .

جرت الـ : كونفيرماسيون Konfiermation لي وتناولت العشاء المقدس في يوم أحد في أول شهر تموز ١٩٤٩ . الشاهدة كانت عمتي نبيهة، فيدن كان

---

1 ما يسمى عند الكاثوليك "تعميد" يسمى عند البروتستانت كونفير ماسيون، لا أعرف التعبير العربي.

موجوداً دون دور بينما قاد الكاردينال اللين المراسيم بكل اتزان ورونق. شموع، صلوات، صلبان، سيوف معكوفة، أغاني غريغوريانية [1] أورغل سيراً عبر الصفوف، كل ذلك من أجلي واجل جيمي بيشاي. بعد ما انتسبنا إلى صفوف المقدسين والمؤمنين العاديين أنهكت نفسي أن أشعر شعوراً آخر. شعرت رغم ذلك شعوراً تناقضياً. أملي أن أدخل لأعماق الأشياء وتفهم أحسن للإله الانكليكاني أثبت أنه كان مفترضاً. سماء القاهرة الصافي، القبعة الكبرى على رأس العمة الصغيرة نبيهة، النيل، يسير في عرضه غير مكترثٍ ونحن على ساحة الكنيسة كل شيء بدا كما هو وكما كان مثلي أنا لم يتغير.

بحثت عن ما ينتشلني من الوضع الذي وجدت نفسي فيه مندثراً فلم أجد شيئاً ما. انتهى وقت المدرسة CSAC وقريباً في شهر تشرين الأول تبدأ الدراسة في معهد فكتوريا، في الـ: كونفيرماسيون لم أجد شيئاً ما. وجدت نفسي في وضع مقلق بين والدي ووالدتي، أخبار القاهرة كانت تتحدث عن مختفين وعن اجرام. عندما بلغت الخامسة عشرة من عمري أخذ صوت والدتي شكلاً مقلقاً، حذرتني دوماً أن لا أعود للبيت متأخراً في المساء، أن لا أشتري من العربات المارة، أن لا أقترب من الناس في الباصات أو الترام، أن أقضي أوقات فراغي في البيت. بينما أيقظت تطوراتي الجنسية فضولي وكثرت أحلامي وما كان يمكن العمل في القاهرة. عام مؤثر في حياتنا كانت جهود العمة نبيهة في مجال دعم الفلسطينيين

1 آلة موسيقية في الكنائس تشبه البيانو لا أعرف الاسم العربي.

قد بدأت تتضاءل، رغم التشنجات بين أولادها وعمهم (والدي) كانت تأتي دائماً يوم الجمعة لطعام الغذاء، اهتمامها بدروسي الدينية استمر كالخاتم الذهبي بحروفه ES الذي كانت أهدتني إياه في يوم حار صافي السماء بعد صلاة كنسية وما زلت أحمله حتى هذا اليوم.

الفصل السابع

في صيف ١٩٤٧ بعد الانهيار العصبي لوالدي، وسبعة وعشرين صيفاً بعد ذلك قضينا أغلب أوقات الأشهر تموز، آب، وأيلول في القرية الجبلية ضهور الشوير، والدي أحب هذه القرية ووالدتي ادعت بكرهها رغم أن عائلتها "بدر" تنحدر منها. ضهور الشوير كانت منعشة في الصيف، منازل وفنادق انتشرت على طرفي الشارع الضيق المرتفع الذي تلوى حول ثلاثة جبال من لبنان الأوسط وانتهى بالساحة ليشكل قوساً حول الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ليتحول إلى اليسار ثم إلى الوادي لقلب المدينة عين القس.

القرية المسيحية قدمت أصحاب المحلات والعاملين لفصل الاصطياف. كطفل اعتقدت أن السكان في الشتاء الثلجي المظلم يقبعون في بيوتهم. أقارب والدتي عاشوا واشتغلوا في بيروت وزاروا ضهور الشوير في موسم الاصطياف. ما عدا فارس در عم والدتي الأكبر والأقدم ببذلته السوداء وشواربه العريضة الضخمة بوجهه الأحمر، والنظارة الغامقة، وطربوشه الأحمر مصطحباً دوماً شمسية سوداء قديمة. أول صيف لنا في ضهور الشوير قضيناه في فندق: Grandhotel عام ١٩٤٣ أو "القصوف"، تربع بجلالية في نهاية الشارع بدأ من الساحة و٢كم إلى القرية الأخرى باتجاه الغابة "بولونيا" : Bois de Bouloge

القصوف كان نسخة من الـ Chateau: بدرجه الطويل الأنيق وأحجار بنائه الضخمة. في قاعة الطعام الحمراء في قصوف تعرفت على النبيذ الأحمر والخل ونظرت لأول مرة قاعة البكره والروليت. كان رواده من الأغنياء من سوريا ولبنان ومصر رغم أن أمثالنا وجدوا فيها ملاذاً آمناً في أيام ضهور الدافئة ولياليه الباردة على عكس شمس القاهرة المحرقة. هؤلاء الزوار قضوا أغلب الوقت مثلنا على بلكونات القصوف وقليلاً ما تمشوا على الشارع غير المعبد مع أخطار السير. بين القصوف وساحة المدينة ما كان يوجد متجر واحد.

وكون الطريق بعيداً، بقينا والأطفال مع مربياتهم في محيط الفندق. والدتي كانت في ذلك الصيف حاملاً بجويز وظلت أغلب الوقت في غرفتها، بينما والدي كان يقضي أغلب الأوقات على طاولات البريدج كل بعد ظهر وعلى الأقل ثلاث أمسيات في الأسبوع.

في عام ١٩٤٤ بدأت أتعرف على خطط والديّ للصيف المقبل مع نهاية الفصل المدرسي. في نهاية شهر أيار شعرت بقرب السفر دون أن يقول أحد لي شيئاً ما، قمصان جديدة، أحذية جديدة بدأ شراؤها تبع ذلك مواعيد تصوير للعائلة في مكان يدار من أختين كبيرتين بالعمر في الطابق الثالث في عمارة قرب فندق شيفاردس.

الأختان كانتا أطمتين واقتصرت تعبيراتهن على الغمز وحركات الوجه. الدكتور حداد زارنا ليلقحنا ضد التيفوئيد، وفجأة اختفت الموبيليا تحت دهان بلون الصدأ، ومرة بلونٍ أبيض أو أخضر كاشف. حتى عام ١٩٤٨ كنا نتجمع في يوم معين أمام مدخل المنزل في شارع عزيز عثمان رقم ١ لنركب سيارات

القافلة من ثلاث، أحياناً أربع سيارات مع خادمات لتأخذنا إلى محطة باب الحديد لنستقل عربات نوم القطار متجهين إلى الإسماعيلية أو القنطرة.

من هناك عبرنا للطرف الآخر لنسافر خلال الليل عبر سيناء إلى حيفا كنا نصلها ظهر اليوم التالي. السفر بالقطار كان رومانتيكياً، أحببت الجدران الخشبية، المقاعد الجميلة، اللمبات الزرقاء، الخدم اليونانيين، والمفتشين الفرنسيين، الذين جاؤوا بعد الطعام ليحضروا أسرة النوم، فرحت بدخول قاعات الطعام بأدوات الطعام الفضية واللمبات المحلاة بلؤلؤات. عندما يهتز القطار كانت تُحدث أصواتاً جميلة ومع كل ذلك السفرجيون بملابسهم البيضاء وخدم المطعم الأرمن بالسموكينغ. الطعام بدأ دوماً بالرز يتبعه لحم خاروف وأخيراً كاراميل حلو الطعم. طعام يختلف عن طعامنا في البيت من سبانخ وجزر وحمص وأحياناً لحم دجاج أو عجل مشوي ما سماه والدي "رجيم".

عندما تلفعت بالشرشف في سريري الخاص وتناولت كتاباً من الشبكة جانباً على الجدار حيث عزلت ما يخصني عن الأهل وأشعلت اللمبة الصغيرة للقراءة، النوم جاء متأخراً ومعه شروق شمس الصحراء. حزن الصحراء والشكل غير المتبدل للطبيعة صاحب ذلك وحدتي بينما كان الكل نائمين شعرت بالارتخاء والتخلص ولو لفترة من الضغط الذي يسيطر عليّ إني لا أفعل شيئاً مفيداً.

في حيفا كانت تنتظرنا سيارتا أجرة من شركة العلمين إما لتأخذنا إلى القدس وغالباً عبر الطريق الشمالي الغربي من فلسطين مروراً بعكا إلى القرية الحدودية اللبنانية ناقورة منها إلى قرية صيادي السمك الصرفند وكنا نتناول طعام الغذاء من السمك المشوي لنغادر باتجاه شمال غرب إلى صور وصيدا،

مررنا ببيروت دون توقف وتابعنا السفر إلى ضهور الشوير. وبكفيا. في السنوات الأولى ازداد عدد السيارات التي كنا نصادفها عند سفرنا عبر الطريق الضيق الملتوي الكثير المنعطفات إلى بكفيا البلد الكبيرة، تحت ضهور الشوير حيث الدراق المشهور ودكان ألعاب الأطفال "قيصر عامر" ما أذكرهما. في وقت لاحق علمت أن البلدة هي بلدة عائلة جميل، بيير الجميل متأثر بحاملي القمصان السوداء الألمان الذين رآهم أثناء الألعاب الأولمبية في برلين في عام ١٩٣٦، أسس الحزب الماروني اليميني المتطرف "الكتائب". وكان أباً لرئيسين للجمهورية اللبنانية، بشير الذي كان اغتياله في عام ١٩٨٢ سبباً في ارتكاب مجازر صبرا وشاتيلا تجاه اللاجئين الفلسطينيين التي ارتكبها أبناؤه من المؤيدين للإسرائيليين. وأمين مع نظامه غير الصالح والمرتشي. بكفيا اشتهرت بعدائها المرير للفلسطينيين ما جعلني أتجنبها مع ضهور لمدة عشرين عاماً. فوق بكفيا كان الطريق جبلياً متصاعداً وخطراً والرؤية كانت صعبة بسبب ضباب بعد الظهر أثناء سفرنا بسيارتينا الاثنتين الثقيلتي الحمولة ووصلنا في النهاية إلى ضهور عبر بلدة دوار، وكان يراودني شعورٌ بالحزن وخوف مهدد. لصيفنا استأجرنا منزلاً غير مفروش في ضهور لأن والدي لم يأتمن لممتلكات خارج فلسطين كما أكد دوماً ولهذا كنا نعيش في بيوت مستأجرة خارج فلسطين.

لعب هذا دوراً في خططنا الصيفية وكانت البيوت بسيطة عادية دون مميزات كمالية.

في عام ١٩٤٤ وصلت شحنة موبيليا عادية بخلاف البذخ الذي ألفناه في القاهرة.

صاحبتنا هذه المفروشات البسيطة في البيوت الصيفية المختلفة في ضهور حتى عام ١٩٤٦ حين استأجرنا طابقاً في الدور الثاني من عمارة فخمة وبقي مقرنا الصيفي للأربعين عاماً، منزلنا الصيفي بشرفته الكبيرة الجميلة. الأسرة السبعة كان لها إطارات معدنية وراصورات قوية وكأنها جاءت من غرفة تعذيب من القرون الوسطى. في غرفة الجلوس كانت هناك مصطبات واطئة فرشت عليها والدتي أقمشة جلبتها معها من القاهرة مع بعض المخدات ولم تكن على الجدران صورة واحدة. خلف كل هذا كانت بساطة ريفية مع أقل قدر ممكن من الراحة دون البذخ والرفاه كما تعودنا عليه في القاهرة. حتى ١٩٤٩ لم يسمح لنا باقتناء راديو، أتذكر بشدة بعد ظهر يوم في شهر آب من عام ١٩٤٩ سمح لنا باقتناء هاتف وفي ١٩٥٦ سيارة هذا ما عدا خادمتينا إنصاف وأختها سعاد وطباخنا حسن الذي سماه السكان "العبد" وبقي خمس سنوات في خدمتنا. إلى أن وظّف والدي طباخاً محلياً امرأة كبيرة السن "أم نجم" التي كان من مهامها الغسيل وخبز الخبز. في السنوات اللاحقة أتت امرأة شابة للقيام بالأعمال المنزلية الأخرى. بسبب عدم وجود مياه ساخنة توجب علينا الانتظار ساعات لتحضير الماء الساخن باستعمال الحطب تحت الخزان. جهز لي والدي خزانة كتب وضعت في غرفتي بدلاً من غرفة الجلوس حتى لا يبدو فيها الغنى والرفاه وما كان لدى "من الكتب اقتصر على ما أحضرناه من القاهرة والكم والوزن لعبا دوراً في ذلك. المكتبة الوحيدة لبيع الكتب في ضهور كانت عبارة عن فرع لـ: ستيماتازكي Stematazky في كراج قام على إدارتها رجل كبير يلبس شحاطة مفتوحة، يحمل نظارات غامقة، من جملة ما كانت تحوي

مكتبته كان كوميكس Comics مجلات أفلام، وكتب جيب لروايات جنائية ما كنت شعرت يوماً بجاذبيتها.

بحثت في بيوت أقارب والدتي عن كتب واستطعت شراء البعض منها في بيروت.

ضهور حرمتني من القراءة رغم الوقت الكافي ما لم يكن متسعاً لي في القاهرة وشددت شعوري بالفراغ في حياتي.

بالنسبة لوالدي كانت ضهور تتيح له المجال للابتعاد ونسيان أعماله التجارية في القاهرة والبعد عن كل ما يتعلق بذلك السيارة والمستخدمين والموظفين والهاتف وملابس المكتب، أوزاق هدوء، هدوء وهدوء. كان هو نفس الشيء أن يقضي ساعات غير معدودة على طاولة البريدج سواء في الصباح في فندق سلوى أو مساء في مقهى سيرك Cirque، أو في لعب الطاولة على البلكون مع صديق من المنطقة أو مع زائر من بيروت، القاهرة.

لولا ضغط والدتي الدائم لاحتفظ بنفس ملابسه التي كان يلبسها من الصباح حتى ساعات النوم. إن كان القميص الرياضي الأخضر أو الكستنائي اللون، البنطلونات الواسعة البيجية اللون، والأحذية المهترئة البنية إضافة إلى القبعة مع العصا.

لم توجد صحف صباحية توفر له إمكانية قراءتها، وهكذا كان أول ما يفعله في الصباح أن يزور نقولا توما رجلاً ذا، مظهر جميل وخلوق في منتصف العمر من شوير والذي كانت عائلته الأكبر في المكان. مخزن نقولا توما للمواد التموينية كان يحوي على كل شيء من الخضار والفاكهة، صابون وزيت

وبهارات حتى ورق المرحاض. لأسباب لا أفهمها ما كان والدي يدفع نقداً، بل جعل الأثمان تسجل، وعندما كان الحساب يصلنا بعد أسبوعين ويقع في أيدي والدتي، كانت تصرخ غاضبة "يا له من محتال" لا أتذكر كل ما سجله.

والدي الذي هو بالطبع رجل أعمال عنيد، ما كان ليعير ما يسجل نقولا من أشياء اهتماماً، علاقاتهما كانت اجتماعية الطبع والدي يجلس مع فنجان قهوة على طاولة نقولا في المتجر يشاهد الشارد والوارد، يطلب خمسة كيلوات من هذا وذاك، بطيخ أحمر، ٢ كغ جبنة، خمسة مطربانات مربيات، كيلو تين ما ندر أن يكون موجوداً في المتجر ليحمل كل ذلك مستخدم على دراجته الثلاثية العجلات جاراً أمامه الدراجة على الطريق المتصاعد إلى بيتنا.

بعد زيارته لنقولا يتوجه إلى محل آ ب ث. لأدوموند حلبي بضع عمارات بعد نقولا ويطلب كميات من حاجات الحمام التي ما كان أحد منا بحاجة لها. بعد ذلك يأتي دور اللحّام ثم بائع القهوة وبالختام الصيدلي وكانت هذه الطبيات ذروة النشاط اليومي لوالدي.

ثم يذهب لطاولة البريدج حتى يلازمه الجوع ليعود للبيت. في الوقت نفسه كانت والدتي تستقبل، كل مرة بصيحة من الغضب، المستخدمين المُحملين بالطلبات لوحدها دون هاتف مع أطفالها وكثيراً ما كانت ترجع الطلبات وتستقبل والدي عند عودته للبيت بمدفع من غضباتها بصوتها غير الرحيم، يقابل ذلك بَرد مقتضب هادئ بينما كان منشغلاً بأكل لحم الدجاج غير مكترثٍ بانفعالاتها، بعد فرصة الظهر "فييستا" يخرج من البيت باحثاً عن لاعبٍ في البريدج ليعود في اليوم التالي ليستأنف تسوقه كما في اليوم الفائت.

كان يرى في ضهور الإمكانية للهرب من مسؤولياته الجمة في أعماله في القاهرة كرئيس وأب منتظم ومنضبط. في ضهور كان والدي صديقي الدائم بغض النظر عن صداقات صيفية قصيرة مع شباب من عمري من الجيران. والدتي كانت مسؤولة عن الأعمال المنزلية دون مساعدة أحد على غير ما كان الحال في القاهرة ما كان بالنسبة لها أمراً صعباً.

كوننا في الفترات الأولى لم يكن لدينا هاتف ولا سيارة ولا سائق، أجبرت والدتي على وضع انعزالي لا مناص منه ما ضايقها كثيراً. لكن قناعتها بدورها كربة منزل أفقدها القدرة على الاعتراض لدى زوجها بتحسين الوضع. أختي الصغيرة غريس ولدت في شهر آذار ١٩٤٦ عندما كانت أختي جويز في الثانية والنصف من عمرها وهكذا توجب على والدتي الاعتناء بالصغار والكبار.

عام ١٩٤٦ كان بالنسبة لها عاماً صعباً، قال والدي إنه يتوجب عليه السفر لأمريكا لأسباب مهنية لأول مرة منذ غادر أمريكا في عام ١٩٢٠ عندما عاد لفلسطين.

بعد أسبوعين وما كدنا نرتب أمورنا - في ضهور، اتخذ والدي الطريق المتعبة عبر القدس إلى القاهرة ومنها مع الخطوط الجوية (تفآ TWA) إلى نيويورك مباشرة أول اتصال جوي مباشر من القاهرة إلى نيويورك. خلال شهرين من غيابه وكان أرسل بعض الرسائل وبطاقات، أصيبت والدتي بنوع من الانشغال، كانت تريدني أن أخرج من البيت وتبعدني عن أخواتي النشيطات ما أمكن. كلفتني بمهام متواصلة كإرسالي للحام والخباز بينما كانت الشوارع خالية حتى أبو بحبوجة الذي كانت تنقصه عدة أصابع ويأخذ مكانه

أمام الكنيسة، يحضر ويبيع فستق العبيد، وأبو فارس بالنظارات الغامقة ببنطلونه الخاكي إلى جانب الكنيسة لم يبدأ بعد بتلميع دراجاته للإيجار. بعد سنة استأجرت من عنده لأول مرة دراجة ما كان والدي ليقبله لخطورته كما قال. ما عدا منتظري السفر إلى بيروت بالتاكسيات كانت الساحة خالية من الناس بغض النظر عن نجيب فارس بسيارته الفورد موديل ١٩٣٦ الذي فضل أن يعمل مع سيارته في ضهور، وإلا كان قليل من أصحاب المحال يتهيأون لفتح محلاتهم، والزيات والنحال ينتقلون من المشمش إلى اللحم. تقريباً بعد ساعة عدت للبيت بالخبز، ولسرعان ما طلبت والدتي مني أن أبحث عن السنكري ليصلح لنا حنفية المطبخ. وصلت الفواكه، فكان علي أن أعود ببندورتين ثلاث باذنجانات أربع ليمونات، عشر خوخات عاطلة لإبدالها بغيرها. قالت والدتي أبوك دلل التاجر فجعله يعتقد أنه يمكنه بيعنا بضاعة فاسدة، إدوارد قل له أني غاضبة جداً.

هذه المرة استغرقت رحلتي وقتاً أطول في المدينة حيث صعب عليّ أن أنقل للرجل اللطيف نقولا ما طلبته والدتي مني، ظهر وكأنه حجز كل لطفه لوالدي أفضل زبائنه. ولما وضعت ما جلبته معي على طاولته وسألني ما هو الأمر لم أستطع الكلام وقلت فقط "أمي" فقال ببرودة اتركهم في مكانهم أتطلع إليهم فيما بعد هذا يعني أنه لم يرد فحص النواقص حالاً وتساءلت ما علي فعله أن أعود بيدين فارغتين لترسلني والدتي ثانية له وتعرضني لنظراتها الحادة وفي حيرتي طلبت سندويشة بالجبنة والخيار ليوعز لأحد عماله بتحضيرها. اكتبها على الحساب قلت له وذهبت.

في وقت متأخر من نفس اليوم عدت إلى البيت معوضاً البضاعة الفاسدة، لترسلني والدتي من جديد للبلدة بمهمات جديدة حتى أصابني التعب في المساء واستطعت قراءة بضع صفحات قبل ذهابي للنوم. التعب ما كان مهماً بقدر الابتعاد الذي فرضته والدتي. علاقتنا الوطيدة اختفت لتحل بدلاً عنها علاقة أذكرها متأثراً.

في صباح يوم حار أرسلتني إلى فندق قصوف لآخذ معي مكواة كهربائية لصديقة لها: أويجيني فرج الله نزيلة الفندق. عدت بعد ساعة ونصف إلى البيت شديد التعب، عطشان بعد طريق طويل تحت الشمس دون ظل، دون مشرب (نبع)، دون مقهى، أو مطعم على طريق ضيق جبلي ودون أن أشاهد مارة.

أذكر أن والدي في تلك السنة كان اشترى لي قبعة ثقيلة تلبس في البلاد الحارة وأمرني بحملها. بائع في محلات أفيرينو Avierino في القاهرة لبيع اللوازم الرجالية كان نصح والدي بشرائها لي. عندما اشترى والدي من المحل نفسه في الأزبكية قبعة له. رباط القبعة الداخلي كان مشبعاً بعرق مقرف وكانت القبعة نفسها ثقيلة على رأسي. كانت ثقيلة لحملها باليد بعد نزعها عن الرأس وهكذا فضلت إبقاءها على الرأس. عندما عدت للبيت أصعد الطريق الجبلي الشاق واقتربت من البيت، شاهدت والدتي على البلكون في لباس منزليٍ غير لائق ودون تجميل make up. شعرها كان ملفوفاً بحطة استعملتها ذلك الوقت، لوحت بيدها وكأنها تسلم عليّ كما تصورت، لكن في الحقيقة كانت تريد لفت نظري قبل وصولي للدرجات الأخيرة.

في يدها اليمنى كانت تحمل شريطاً كهربائياً وقالت باللغة الإنكليزية، على غير عادتها "حبيب نسيت أن أعطيك الشريط الكهربائي للمكواة، ماذا تقول أويجيني مكواة بلا شريط.

سيطر عليّ التعب المضني وخيبة الأمل. قُربنا عندما كنا نقرأ معاً شكسبير تبدل رغم تأكيد والدتي أن شهور ضهور لم تغير أشكال حياتنا الماضية. ما عدا كتاب أغاني عربية ممزق في البيت وجد في البيت في ضهور كم من كتب إنكليزية لأغاني عائلية كنا أحضرناها معنا من القدس والقاهرة. رغم عدم محبتي لها، غنيت بصوت منخفض: The Minstrel Boy, John Peel

وعندما كانت والدتي تسمعني من غرفتها تؤازر بحنان غنائي ما يعوض لي نهاراً شاقاً مضنياً. غرفتي إلى جانب غرفة الجلوس الكبيرة العالية بجوار غرفة الطعام زادت شعوري بالعزلة ما كان بالنسبة لي جو ضهور السلبي ولم يغير الأمر بعضاً من جمال الحديقة.

طاولة تينس، أرجوحة، لعبة كروكيت، ما سمح والدي باقتنائه غير راضٍ.

إذا ألقيت نظرة إلى الوراء على تلك السنين، أدرك الخوف الذي تركه انسحابها لديّ وحاجتي أن تعاد العلاقات كما كانت عُرقلت من العراقيل التي بنفسها وضعتها أمامي. تحولت إلى مراقبة، عليّ أن أنفذ ما تمليه عليّ. حيرني الفراغ الذي شعرت به بعد تنفيذ المهمات التي كلفتني بها وتمنيت أن ألقي منها دفءاً أو على الأقل شكراً.

العلاقة بيننا اضمحلت وتحولت إلى ضهور إلى مهمات كانت تكلفني دوماً بأدائها وعزلتني عن كل شيء. وكما هي نفسها قالت بعد سنوات كيف كانت تختلق المهمات لترسلني بعيداً عن البيت للتخلص مني للمشاكل التي كنت أزعجها بها كطفل.

من خطط والديّ كان إبعادي عن اللحم (يقصد الجنس) في الصيف وجعلني أركز في مكان هادئ حيث لا أتعرض فيه للمغريات. البنات الوحيدات في السنوات الأولى في ضهور كانت صديقات أخواتي وما كن يعرنني أي اهتمام. في نهاية تموز ١٩٤٦ ظهر فجأة خالي الأصغر قادماً من فلسطين ولأنه يحب الخروج، أخذنا مساء يوم إلى مقهى نصر لمشاهدة "نوميرو" كما كان يسمى وقته عرض في كاباريه في محلين قرب الساحة يبعد الواحد عن الاخر حوالي مائة متر، المحل الآخر كان مقهى حاوي. المحلان كانا يخصان عائلة واحدة. مقهى نصر كان يديره إلياس نصر وزوجته، مقهى حاوي كان يديره الأخوان إسكندر ونقولا حاوي والمحلان وقعا في تنافس شديد.

نصر ضاعف جهوده باستقدام فرق عالمية كما أعلنت إعلاناته من راقصات وبهلوانيين أبرز ما قدموه على ما أذكر اليوم كان ضآلة الملابس للراقصات. ذلك المساء أخذنا مكاننا في الصف الثاني أمام المسرح. ذروة العرض كانا بهلوانيين جورج واديلي على ما أعتقد من أصل هنغاري كان هو في منتصف الأربعينات وهي أصغر قليلاً ترتدي "بكيني". العرض كان مقرراً للساعة التاسعة، لكنه بدأ في الحادية عشرة على ما يبدو من حركات الجرسونات لحمل الزوار على الإكثار ما أمكن من طلب المشروبات قبل بدء الـ: "نوميرو". وأخيراً قرعت الطبول ليظهر العارضان بملابس فضية والضحك المصطنع يعلو وجهيهما وأحدهم كان له عدة أسنان ذهبية.

الحركات والعرض عامة كان مخيباً للتوقعات على عكس ما روج الجرسون الأرمني وعدنا في منتصف الليل للبيت وكانت والدتي مستاءة من العرض وخصوصاً الأجساد العارية ما قابلته بالقرف.

اليوم أرى أن الزوبعة التي أثيرت حول مقاهي نصر ببرامجهم الأسبوعية وتنافسهما بدت يومذاك أكثر أهمية مما هي والسبب أن في ضهور لم يحدث شيء ما مثير يذكر.

أذكر عندما كانت والدتي تستقبل في الصباح ضيوفاً للقهوة وبعد الظهر للشاي وكيف تناديني من غرفتي لفترة قصيرة للتعرف عليّ ومن ثم تعيدني لغرفتي أو ترسلني لقضاء مهمة مفتعلة.

كل هذه الزيارات كانت روتينية ويُخبر عنها قبل حدوثها والبعض كان يحدث دون علم سابق. كان من المتعارف عليه أن يزور المصطافون بعضهم البعض مثلاً طبيب الأسنان، ابن عم ابن العم، شخصيات محلية، رجل الدين البروتستانتي وهكذا.

قبل الظهر كانت الزيارات دوماً الساعة الحادية عشرة وحين يأتي الزوار متسلقين الطريق الجبلي والدرج، كان الرجال في المقدمة تتبعهم النساء.

تقدم القهوة تتبعها الشكولاتة ثم فيما بعد كانت تقدم والدتي جيلي[1] مع كعك، ما تعلمته عند ماري نصار.

لاحقاً تبدلت العادة وأصبح يقدم عصير قمر الدين وشراب التوت. وتوضع سكاير على الطاولة. بعد ساعة عندما يحاول الضيوف الذهاب، كان يتوجب القول أن الوقت لازال مبكراً.

1 جيلي Gelee هي نوع من الحلوى.

بعد الظهر جاء الضيوف الساعة الرابعة والنصف وكان الرجال يرافقونهم حيث انتهى العمل في بيروت. لم يكن من واجب والدتي أن تتواجد دوماً في البيت لاستقبال الضيوف فقط، بل توجب عليها أيضاً رد الزيارات. كان الانطباع وكأن الناس يسجلون من كان عند من؟ من أتى؟ ومن لم يأتِ؟ في القاهرة كانت الأمور تختلف وكان لها طابع خصوصي أكثر رغم واجبات والدتي مثلاً تجاه عائلة درليكيس وعائلة جندي. في ضهور كانت دائماً منشغلة بالواجبات الزيارية. بكبرها تضاعفت تلك الواجبات ونفذتها بحذافيرها رغم كرهها لها.

لما عاد والدي من الولايات المتحدة شعرت أكثر بانعزالها حيث عاد لعادته القديمة البريدج، كانت تكن الكراهية لشركائه في لعب البريدج وما كان أحدٌ منهم دخل بيتنا، منهم كان سائق تكسي، مستخدمي مغسلة، وغيرهم من مقاهي البلد.

طلبت منه أن يبحث عن لاعبين من مجتمع أفضل ويلعب معهم في البيت، ما فعله وكان منهم أميل نصار وابن عمه فائز ما عدا أصدقاء جدد أنيس ناصيف، سالم قربان ابن عم العمة فريدة من بيروت. من فترة لأخرى التحق بهم أنيس مقدسي أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت. بيته كان يقع على الجبل فوق بيتنا وهناك تعرفت على ابنه الأصغر سمير الذي كان بعمر ألفريد نصار الذي تزوج أختي جين. والدتي حاولت أن تشارك باللعب وتعلمت لعب الورق "كاناستا وكونكان" لتتحول بعد وفاة والدي إلى لاعبة بريدج بارعة.

عودة والدي من الولايات المتحدة في نهاية آب ١٩٤٦ كانت لأسباب سخيفة أقل سعادة. كتب لها من الولايات المتحدة طالباً قياساتنا لأنه أراد

شراء ملابس من محلات "بيست" أرسل سحارتين كبيرتين إلى القاهرة وعاد هو بطريق البر إلى بيروت. أنا ووالدتي استقبلناه في محطة العلمين في وسط بيروت وسافرنا معاً لضهور. وما أن وصلنا حتى قال لي أنت سمين ولما استغربت ما قاله، قال إن قياسك في الخاصرة يبلغ ٣٤ تسول، الناس في بيست اندهشوا والدتي كانت قاست بالسنتمتر وحولت القياس دون قاعدة إلى الـ: تسول.

المفاجأة كانت في القاهرة بعد شهرين عندما فتحت والدتي السحارات لتجد فيها ١٢ بنطالاً من الصوف السميك ما لا يصلح لجو القاهرة وهي كبيرة القياس، وكان ذلك نفس الأمر ببقية الملابس ما اقتضى الأمر التخلص من كل الملابس. على ما يبدو اشترى والدي كما كان يشتري الخضار عند نقولا في ضهور دون النظر للنوع والكم.

اذهب للغاب والعب قالوا لي وكأن الغاب ملعب رأيته حارة تعج بالذباب والنحل. أكثر ما يميز محيط ضهور كان نقص المياه والجفاف الذي ما كان يقلل من شأنه نهر أو بحيرة أو مسبح على الأقل.

جفاف الصيف في ضهور تخلصنا منه عندما سافرنا في نهاية شهر تموز إلى بيروت وإلى البحر بدأ ذلك بسفر بالتكسي استغرق بضع ساعات إلى سان سيمون وسان ميشيل، شاطئان رمليان جنوب المدينة حيث سبحنا كل الصباح في البحر كما سافرنا في قارب مستأجر عبر البحر.

ذكريات احتفظت بها طويلاً، لا والدي ولا والدتي نزلا الماء لكنهما سرّا بقضاء اليوم على الشاطئ تحت واقية من الشمس وفي المقاهي حيث تناولنا

طعام الغذاء . أحياناً كان أصدقاؤنا في القاهرة ديرليكس يدعون برقياً لقضاء يوم معنا بحيث لم يبق والداي "وحيدين على الشاطئ" .

بينما كنا نتناول طعام الغذاء في سان سيمون قفز والدي فجأة من كرسيه وكاد ينهال على شاب من طاولة مجاورة وصاحت والدتي لا لا وديع ، اقلع عيونك صرخ والدي متجهاً للشاب ، لن أسمح لأحد أن ينظر لبناتي بهذا الشكل . قلت ما في الأمر إذا نظر لهم لتتدخل لوريس ديرليكس قائلة هناك فرق بين نظر ونظر . حسب رأي الكل ما عداي تجاوز الشاب الحدود . أختي جين بدت وكأن الأمر لا يهمها . هذا بينما كان رأيي حينذاك نزعة والدي التملكية دفعته لهذا الانفعال وما رأيت أمراً غير عادي أن ينظر أحد لأختي . الحدث ولّى كما أتى ، شعرت يومذاك بخوف هيجان رجولة والدي ، ما كنت أخشى منه . ماذا لو وقعت عينه عليّ واستشعر مشاعري تجاه نساء أقرباء . دون المدرسة وحمايتها والروتينية اليومية لكنت متعرضاً لهجومية والدي المهددة الذي يكاد ينفجر بعنفه البركاني .

حوالي الثالثة والنصف أخذنا دوشاً ولبسنا ثيابنا واتجهنا صوب رأس بيروت لنزور ابنة عم "بدر" ونتناول الشاي مع الكعك وبعد ذلك توقفنا عند محل حلويات "سويس" في باب إدريس في قلب المدينة حيث أكلنا الشوكولاتة والبوظة . تعبين ، شبعانين ، مع قليل من حرق الشمس ، في يوم فريد غادرنا فيه حدود ضهور لننعم بسماء وزرقة المتوسط ، عدنا لقريتنا لنقضي أسابيع الكسل وفعل لا شيء . نادراً ما سافر والدي إلى بيروت وإذا فعل كان الأمر لصرف النقود . في ضهور لم يوجد بنك وغالباً كان يأخذني معه

ويقتصر وجودنا في بيروت على وسط المدينة الصاخب بعيداً ما أمكن عن الشاطئ. هدفه كان بنك سوريا ولبنان، في البنك كان يقابله شاب غريب خالٍ من الشعر ذو صوت أنثوي بملابسه يشبه المخصيين.

كان ذلك الوقت وقت رسائل الـ: كريديت"، قص بالمقص عدة مربعات وذهب إلى أكثر من طاولة يجلب التوقيعات ثم يعود بربطات من العملة عدَّها وأعطاها لوالدي عبر الشباك ليقوم والدي يعَدها من جديد ليتأكد من المقدار.

بعد ساعة ونصف في البنك ذهبنا لنشتري ما لم يوجد في ضهور. قرطاس، صحون وفناجين، شراشف، محارم، أكياساً من السكر والرز واستخدمناحمالاً بسرواله ممن ينتظرون تسخيرهم المتجمعين على موقف الترام وغالباً ما كانت الحمولة تقارب ١٢٠ كغ يحمل الحمال على ظهره المبطن يربطه بحزام على جبينه. وكنت متخوفاً من المنظر، توقفنا قليلاً عند مقهى "أتوماتيك" بزبائنها من الرجال فقط، كانت تعج بالناس وما أن أكلت البوظة ووالدي فنجان القهوة حتى تابعنا طريقنا. الحمال مشى إلى جانبنا حتى وصلنا موقف التكسي إلى ضهور الشوير في أسفل ساحة القانون لنسافر إلى الجبل. أتذكر تلك الأيام مع حر بيروت القاسي والصخب والسكوت الذي كان يسود بيني وبين والدي وما كان عليّ غير أن أكون معه.

على بلكون منزلنا تعرفنا على عائلة نصار التي كانت تسكن طابقاً أسفل منا. عائلة نصار كانت مختلفة عنا، البطريرك[1] أميل نصار الذي أطلق عليه

1 لم يكن بطريركاً بالمعنى الديني، يقصد بذلك رب العائلة ما يستعمل أحياناً بالغرب.

خلف ظهره "لورد غريشام" لأنه كان الممثل لشركة التأمين اللندنية غريشام وما فتئ يتحدث عنها دوماً، ويعمل لها، يبحث عن شريك لعب بريدج، من يسافر معه بالتاكسي، ومن يقنعه بشراء سندات غريشام.

كان يسافر في الصباح الباكر إلى مكتبه في بيروت ويعود بعد الظهر لتناول طعام الغذاء، ونومة الظهر ثم لعب البريدج. على خلاف والدي كان دوماً يرتدي طقماً، وفرش البيت الصيفي كالبيت في بيروت، كانت موبيلياهم أنيقة، عندهم هاتف، وراديو مع آلة سماع اسطوانات أو ما كان يسمى "بيك آب"، برادي أمام المنافذ، وسجاد طاولة طعام فاخرة تهيئ مرتين في اليوم لتناول الوجبات الساخنة بعكسنا إذ تناول وجبة واحدة ما عدا وجبة المساء البروتستانتية الباردة تتكون من جبنة، زيتون، شاي، وقليلاً من الفاكهة والخضرة وكعك جاف على نمط الحياة الصيفية التي أرادها والدي. حياة نصار كانت متطورة أكثر.

أولاد نصار الثلاثة رجاء، الفريد، ومنير كانوا عشر سنوات، ست سنوات، وثلاث سنوات أكبر مني، والدتهم توفيت وهي شابة ووالدهم تزوج من جديد امرأة مرحة تتكلم الفرنسية "ماري" علاقتها بأولاد زوجها ما كنت أعرف شيئاً عنها. عائلة نصار كانت أول عائلة منقسمة أصادفها. ما كنت أتصور أن أسس عائلة تختلف عن أسسنا والطلاق كنت أراه وأخواتي نوعاً من الإجرام.

المرأة ذات الشعر الأحمر والسيكارة في الفم التي كنا نصادفها في القاهرة بالشارع كانت مثلاً.

رجاء وألفريد سموا ماري "عمة"، منير الذي كان صغيراً لدى زواج والده الثاني سماها "ماما" وكان هناك الصغيرة وداد طفلة ماري من إميل التي كانت تعامل من منير كالأخت الصغيرة. من الأخوة الأكبر كبنت أخت.

شعرت بميل لهم لكني كنت متردداً لأننا كنا نختلف عنهم ووالدتي كانت تريد أن أقلل من زيارتي لهم حتى لا أكون ثقيلاً عليهم وهكذا شعرت بالتطفل رغم أنني لم ألاحظ شيئاً من هذا القبيل من طرفهم وبدا لي أن والدتي تريد أن ننطوي ضمن عائلتنا. بقدر السرور الذي كان يراودني حين ندعى للطعام عند نصار، بقدر ما شعرت أني لست مرغوباً به.

الطعام كان متنوعاً، كثيراً من السلطات والكبة والرز وأنواع الحلوى وكنت أتمتع بالأكل ما دفع والدتي لتعنيفي لدى عودتنا للبيت محذرة أن الطعام الكثير في المساء ليس صحياً، لن تستطيع أن تَخْلُد للنوم صدقت تنبؤاتها. لسوء حظي كان منير وأخوته قليلاً ما يتواجدون في ضهور في أيام الأسبوع لأنهم إما كانوا يعملون أو يتمتعون بحرية المنزل في بيروت دون رقابة الأهل. سمحوا لي بالاقتراب من كتبهم وسررت بصداقتي مع منير خلال دراستي في الكولج وفوجئت بمتعته الزائدة بالجامعة في بيروت وبالدراسة ما كنت لأشاركه. موضوع المناقشات التي كان يطرحها على مغزى الحياة، عن الفنون والموسيقى على سبيل المثال رفع مستواي الثقافي لكنه ما ساعد في تقاربنا. منير وصديقه المقرب نيقولا صعب كلاهما طلاب طب، أسهمت مناقشاتنا في تغييب نواحي الحياة في ضهور المملة. الفلسفة كانت أهم مواضيع مناقشتنا ما كنت لست ضليعاً به، لكن منير تأثر بأمريكيين هما ديك يوركي وريشارد

سكوت اللذين كانا يتمتعان برؤية دنيوية بعيدة عن رؤية دينية، ما فتح لي مجالاً مهماً بعد قليلٍ من التردد. في هذه المناقشات سمعت للمرة الأولى بـ: كانت، هيغل، وبلاتو، ما دفعني أن أستعير كتاب منير لأطلع على الفلسفة الغربية كما فعلت بشراء اسطوانات لـ: فورتفنغلر بعد ما سمعت الكثير عنه.

هذا الانشغال الجدي غيّر الوضع الروتيني الممل الذي عشته في ضهور دون أن ألاحظ نمط العيش الذي أراده والدايّ لي كان من ضمنه "إلعب كريكيت"، لا تستدن ولا تقرض، احم أخواتك، افعل أحسن ما تستطيع، كل هذا كان يجب أن يكون ادوارد.

والدتي حاولت كسر هذا الطوق وكانت تختلف في رؤاها عن والدي. رغم هذا بقي بيننا اتفاق ضمني فيما يخص الموسيقى، الأدب، والفنون رغم المهمات المصطنعة التي خطرت على بال والدتي. أتذكر أني في سني الخامسة عشرة تحدثت معها عن الـ: "الأجدب" بعد ما علمت من منير وأصدقائه عن هذا الكتاب. كانت هي أيضاً قد قرأته ونصحتني بقراءة كتاب "الذنب والغفران" وأيضاً هذا الكتاب استعرته من منير. النشاطات المقصورة في ضهور طرأ عليها تغير بعد سفري للولايات المتحدة في عام ١٩٥١. بذور هذا التطور زرعت في عزلتي في ضهور حيث كان يشغلني التجوال في الشوارع الخالية متعرضاً للحر الصيفي.

في الخامسة والسادسة عشرة من عمري وجدت طرقاً في أن أجد روابط بين كتب وأفكار.

على سبيل المثال فكرت أن أتعرف على دور المدينة الكبرى لدى دوستويفسكي وبلزاك وحاولت أن أجد علاقات بين مختلف الشخصيات

(مقرضو المال، مجرمون، طلاب) الذين تعرفت إليهم في الكتب وأعجبت بهم وبين أشخاص عرفتهم في القاهرة وضهور أو ممن سمعت عنهم.

من اكبر مواهبي كان أن أتخيل مقاطع من الكتب أبعث فيها الحياة بخيالي أتلاعب بالمنظر والشخصية. هيأ لي ذلك لحظات ذكريات ممتعة أتخطى بها حدود التصور بعيداً عن التفاصيل. ما عرفت في هذا السن التشكيل وماذا يعني غير أنه كان موجوداً وشعرت تأثيراته. مثلاً ما هي العلاقات بين العقيد فائز نصار وابن أخيه هاني، بين عائلة بدر ونوع خاص من الموبيليا، بيني وبين أخواتي، معلمون، أعداء، ملابس، أقلام، ورق وكتب.

إذا نسجت روحياً شيئاً مع آخر حصل ذلك بين الواقعية السطحية والمشاعر العميقة من حياة أخرى مليئة بأجزاء متصلة من أفكار، مقاطع من الأدب والموسيقى، من التاريخ، وذكريات شخصية. ما غذّا ذلك من "ادوارد" الذي حاولت عائلتي، أساتذتي، وغيرهم إنتاجه، بل من أعماقي بعيداً عن ادوارد يقرأ، يفكر ويكتب. تحت "الشخصية المعقدة" أفهم نوعاً من الانعكاس والانعكاس الذاتي رغم أني لم أستطع التعبير عن هذا طيلة سنين.

كان أمراً خاصاً منعزلاً مدنياً بالقوة عندما كان إدوارد معرضاً للفشل. والدتي تحدثت مراراً عن برودة عائلة "بدر" عن الابتعاد والتحفظ التي أشاعها بعض من الأعمام والعمات وأولاد العم كان الكثير من وراثة بدر. قالت والدتي مثلاً لك حدبة بدر، مثل أخوتي لست رجل أعمال قديراً، ينقصك الذكاء والإبداع. ربطت هذا الشعور بالتباعد والانطواء وجعلته كقاعدة لأدافع عن "أنا الآخر" ليس ادوارد. أغلب أوقات حياتي عشت هذا الابتعاد البارد البعد الذي ما أوجد طريقاً للخسارة أو الحزن.

في صيف ما دخل حياتي صديقان في ضهور توافقا مع التطور الذي جرى في حياتي الداخلية. جون ريسي أكبر ابن لزميلة والدتي من المدرسة وأتقن مثلي الإنكليزية، أحب الموسيقى وكان بارعاً في الرياضة. كان بعيداً عن بيتنا. كان يكبرني بخمس سنين وأعجبت بإتقانه تركيب الجمل باللغة الإنكليزية. حدثني كثيراً عن كتب وموسيقى، أعارني تلحين بيانو لبيتهوفن "الصيد" من تسجيل لـ: كلاوديو ارراو، كان يتقن لعب الشطرنج الذي ما كنت ذا خبرة به. في أحاديثنا كنت أرد عليه بـ: نعم أو لا وكنت أسأله دوماً لأترك له المجال للحديث وأصغي له وأنا في حالة سحرية، سنوات بعد ذلك حيث أصبح مختصاً بعلم النفس، وتزوج ممرضة أمريكية، عاش في البدء في روشيستر حيث التقيت به عام ١٩٥٦ في مستشفى "سترونغ ميموريال" ثم في أريزونا ولم أره بعد ذلك. والدته سمية ذكرتني أني سألتها في عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠ حزيناً "اين جون" أفتقده. ربما كانت صداقتنا ليست صداقة بالمعنى الدقيق لأنها كانت أحادية الجانب، لكن جوني فتح لي عالماً جديداً غنياً ما لم أكن وجدته في ضهور.

صديقي الثاني كان أيضاً من أيامنا في ضهور، كان رمزي الزين والده أستاذ للتاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت وكان بهائياً التقينا به في القاهرة. كان روائياً بارعاً وساعدني في أول زيارة لمتحف الأشكال الشعبية أن أقف متعمقاً أمام الأشكال الشمعية لـ: محمد علي، بونابارت، إسماعيل باشا، عرابي، دنشواي، منذ ما كنت في السادسة عشرة من عمري لم أعد أره لكن أعلم أنه خلال حرب لبنان الأهلية بين ١٩٧٥ و١٩٩٠ كان له موقف سلبي

جهري ضد المسلمين والفلسطينيين وأنه لم يغادر منزله في الثمانينات حتى وفاته وحيداً منعزلاً في التسعين من عمره. رمزي كان شاباً وحيداً مثلي وكانت عائلته بنت عرزالاً من الخشب في كرم عنب ليس بعيداً عنا مثل هذا العرزال لم أرَ من قبل. كان عنده أرنب وعمل نفسه "مطاطة صيد" بدا لي رمزي لو كنت مثله، ابن الطبيعة، سعيد الحظ، في بيئة ضهور غير المرغوبة وراضٍ عن نفسه. زَيَّنَ المنطقة بشيء مثالي غير معتاد.

مثل جوني لم تدم إقامته طويلاً في ضهور. مضت الصيفيات وبنظرة خلفية كان ذلك الوقت بالنسبة ثميناً وللأسف لم تقم علاقات بيني وبينهما بعد أيام الشباب واختفيا من حياتي.

كما وان والدي أراد تعويض غيابه الطويل في الولايات المتحدة، نظم لنا بعد عودته عام ١٩٤٦ رحلات عبر لبنان وكان تعرف على جميل يارد الذي يملك "تاكسي" بسبعة مقاعد وردية اللون. بهذ التكسي الطويلة التي تلفت النظر سافرنا إلى شلالات حمانا، عين زحلة، كسروان، مرتفعات قديشا، بيت الدين. هذه الرحلات كانت فرصة لمغادرة ضهور. لكن قضاء ساعات على الطرق وتناول الطعام في مطاعم اختارها لنا يارد ثم العودة إلى ضهور ما كان يعني استراحة بمعنى الكلمة مرض أختي جين ذات الست سنوات من العمر أثناء السفر أضاع نشوة السفر أما والدي لم يكن كعادته مبالياً. الطعام لم يتبدل إلا أن انطباعات خلفت تعبيراً مثلاً، كان الماء في عين زحلة بارداً حيث تفجرت جبسه. في بشارين، عمنا، قمنا بجولة قصيرة في بيت خليل جبران كما تركه بسرير غير مرتب وسلة مهملات لم تفرغ. أثناء السفر لم يكن

لدى يارد خريطة ويسافر على التقدير كنا نتوقف لنسأل عن الطريق. في لبنان لم توجد ذلك الوقت لوحات دعاية أو إشارات طرق أو مؤسسات سياحية. ما أن وصلنا ريفون حتى كان الأمر وكأننا دخلنا عالماً جديداً، تجمع الناس حولنا وحاولوا، فهم الخليط من اللهجتين الفلسطينية والمصرية لوالدي، تساءلت والدتي وهي تعني والدي كيف يتصور أن الناس هنا يفهمونه عندما يقول بدري بينما تعني اللهجة المصرية "في الباكر" كان الناس متحفظين تجاهنا وكأننا جئنا من خلف البحار. من ذلك الوقت تأتي عادتي أن أرتدي نفس الملابس لأهل المكان الذي أتواجد فيه.

ما يدهشني ليس كثرة السفرات التي قمنا بها قدر أننا لم نتعلم من خلالها شيئاً عن لبنان أو الأماكن التي زرناها. رجع ذلك إلى السائق الذي لم يكن يعرف شيئاً" نفسه عن البلد واقتصرت معرفته على الطعام مثلاً: العنب هنا طيب، الجوز يجب أن نشتريه فقط في هذا المكان، نفس الحال بمعلوماته الجغرافية وأحسن ما كان يعرف هو أن عين زحلة أخفض من ضهور أحياناً كنت أصغي إلى حديث والدي في المطاعم مع المستخدمين إذا كانت القرية يقطنها دروز مارونيون أو أرثوذكسيون. المشاعر الدينية الطائفية التي لاحظتها في منتصف الخمسينات في لبنان كمنت تحت السطح.

ظهر لقريب والدتي بدر البروتستانتي وضع خاص، ارتباطه بالكاثوليكية بدا للوضوح منذ نهاية الخمسينات حتى مدخل السبعينات. عائلة بدر هي من أصل خنشارة مدينة متوسطة الحجم في الشمال الشرقي هجروا إلى شوير منذ مائتي عام، جدي الأكبر يوسف بدر كان رجل دين بروتستانتي في الأول في

مرجعيون في الجنوب (اليوم تحت احتلال إسرائيل) وبعدها في بيروت. وصف في مذكرات المبشر الأمريكي جري ييسوب "ثلاثة وخمسين عاماً في سوريا" أنه كان في عام ١٨٨٠ أول رجل دين بروتستانتي في لبنان. كأقربائهم البروتستانتيين في فلسطين، حافظت عائلة بدر البروتستانتينية على العلاقة بالبعثة الأمريكانية التبشيرية في لبنان وتملكوا الاستعداد للدفاع ماذا يعني أن يكونوا مسيحيين في عالم إسلامي.

أولاد العم والعم منير كانوا في الجامعة الأمريكية التي كانت تسمى فيما قبل المعهد السوري البروتستانتي تلقوا علومهم. كلهم كانوا متدينين وعمقوا ذلك بزيارات للولايات المتحدة وعلى ما بدا لي مؤخراً شاركوا الأمريكان في نظرتهم للإسلام كدين مرفوض وخطيئي. شعرت بهذه العداوة خلال اللقاءات العائلية في ضهور شوير. شغفهم للمسيحية ما ألفته في أوساط المتدينين في القدس. ادوارد سعيد وجدت نفسي محسوباً على المسيحيين في لبنان واليوم ورغم الحرب الأهلية المدمرة أتعرف وأقر أني لست مؤهلاً أن أشعر أني كمسيحي مهددٌ من الإسلام.

ايفا وليفي بنات عمي، بنات عم والدتي وأقرب صديقاتها، وزميلات صف قدامي صعقت من أقوالهن عن العرب والعروبة وتحفظاتهن لأن لغتهن، ثقافتهن، تربيتهن، حبهن للموسيقى، تمسكهن بالتقاليد العائلية، سلوكهن عمل سيئ بمقارنتهن بنا، كل ذلك كان غريباً بكل معنى الكلمة.

في وقت لاحق اقتنعت بأن هذه الإيديولوجية المسيحية العدائية عجيبة وغير مقبولة وما شعرت يوماً في وسطنا العائلي بنوع من العدائية تجاه الإسلام.

رغم هذا تميزت علاقاتنا مع أقرباء والدتي اللبنانيين في الأربعينات والخمسينات بودية. العم حبيب، والعمات منيرة ومليا بدر رأوا فيه عماً لطيفاً مرحاً عاش مع زوجته وأطفاله في السودان لعدة سنوات، زوجته حنة كانت مرحة ومحبوبة وأعجب الكل بها، ابنها الوحيد فؤاد ابن عم والدتي كان محبوب العائلة بأجمعها، كان من الكبر ما صعب أن يكون صديقاً لي ورغم ذلك كانت روابطنا عميقة. لعبنا في الخمسينات معاً تينس وأعجبت بسلوكه تجاه النساء ومزاحه، وأخيراً كان ثلاثة بدر من جيل والدتي الذين التقينا بهم بين الحين والآخر في ضهور. ليلى وزوجها ألبرت، الابن الأصغر وزوجها فؤاد صبرا أخ وداد وصديقنا منذ لقائنا في مستشفى كولومبيا بريسبيتيريان وأخيراً إيفا الكبرى وزوجها الفيلسوف والدبلوماسي شارل مالك الذي كان له دورٌ في تطوري الفكري في ضهور.

العلاقة الطيبة غير المثقلة التي تربطنا بآل بدر في لبنان تصدعت بسبب المرض وحالات الوفاة، بالسفر وبعض المشاكل وانقطاعات بين الحين والآخر ولطالما كانت في الأربعينات والخمسينات أظهرت حياتنا المنعزلة في ضهور. زيارة للعم الكبير حبيب كانت تعني لي شوكولاتة طيبة وليمونادة وحديث عن الحياة في الخرطوم بعد الحرب العالمية الأولى وعندما يزورنا أحدٌ منهم لتناول الطعام كانت مأكولات فاخرة تغطي طاولة الطعام. في عام ١٩٤٧ بعد ما تعرضت والدتي لفحص عينة نسيجية وظهر أنها غير خبيثة لا تدل على سرطان الثدي، توج والدي هذه الفرحة بحفل غذائي في عين النعس (أو النعاس) كتبت كما يلي: ain Al Na,as نبع مشهور بالقرب من بكفية مع

مطعم من الدرجة الممتازة. كل بدر صغاراً وكباراً دعوا لهذا الحفل. كانت تلك المرة الأخيرة لحفل عائلي سعيد قبل عام ١٩٤٨ وما تلاه من اضطرابات وقلاقل في لبنان. الكل شرب العرق ودخن الأرجيلة ووالدي أقام في الزاوية مكاناً للعب البريدج، أغرمنا بالأرجوحات في الحديقة التي كانت أفضل من أرجوحات ضهور. في تلك السنة قرر والدي أن يزاول الصيد بعدما أغراه مشارك في لعب البريدج في متعة الصيد.

ذات مساء أتى للبيت وفي يده بندقية صيد وفي الأخرى خرطوشات وكمر وشغفه كان ملفتاً للنظر وقالوا إنه كان منفرجاً. في يوم بعد الفطور ربط حزامه، تسلح ببندقية الصيد وخرج من المنزل. هدفه كان كرم تين على بعد مئات الأمتار من المنزل. بعد ساعتين عاد فارغ اليدين، بدل ثيابه وذهب لصبرا لينفذ روتينيته الصباحية. أحد الصيادين قال إنه يتوجب عند البحث عن الطيور أن يأتي الصياد قبل السادسة، لا يمشي بل يختبئ خلف شجرة وينتظر الفرصة.

في اليوم التالي ذهب باكراً وأخذ معه مخدة ليجلس عليها مستريحاً تكرر الأمر وبعد مضي أسبوع لم يعد مرة بطائر واحد. كان يمضي وقتاً في تنظيف البندقية ليعكف عن ذلك لأن الطلقات القليلة لا تدعو لذلك العناء. بعد عشرة أيام عاد للبيت ومعه ستة طيور ليستقبل من والدتي معبرة عن قرفها من الطيور الميتة وتختفي بالمطبخ. قدمت الطيور لنا للطعام وأحطت والدي مع أخواتي وكأننا نحتفل به كبطل بنجاحه ولو جاء متأخراً ولما سألناه عن تفاصيل نجاحه أجابنا بشكل مقتضب ليختفي في غرفته. في وقت بعد ذلك اعترف لوالدتي أنه اشترى الطيور من صياد شاب فضل قليلاً من المال على الطيور.

وضع والدي حداً لهوايته الجديدة وأعطاني بندقيته. صعوبتي في تجولي بين الأشجار أني ما كنت أستطيع إغلاق عين واحدة.

لهذا السبب صنعت لي جدتي ربطة أضعها على عيني حين أستعد لإطلاق الرصاصة، لكن ذلك تطلب وقتاً ما استغله الطير للفرار. أذكر أني تمرنت طويلاً بربط الربطة حتى سئمت من ذلك وأخذت أرفع نصف وجهي الأيسر لتغلق عيني. خلال خمس سنوات في مساعي الصيد لم أوفق أن أعلو عن مستوى المبتدئ. والدتي رضيت مستفيدة بتطويل المهمات التي كانت ترسلني لقضائها. تعرفت على أكثر مناطق الغابة ما وجدته غير مجدٍ وداعياً للملل، مرة أقنعت أختي جين بالذهاب معي ما أعجبت به.

أول فرصة سنحت لي في المجال التعليمي كانت في صيف ١٩٤٩ عندما استفدت من ساعات إضافية في الهندسة لاجتياز فحص دخول كولج فكتوريا، أحد شركاء والدي في لعب البريدج أعلن استعداده وهكذا كنت أذهب ثلاثة أيام في الأسبوع على الدراجة لمنزله في منتصف الطريق إلى عين القسيس عزيز نصر كان إنساناً خلوقاً، مهندساً متقاعداً وكان عمل طويلاً في العراق قبل أن يعود لقريته. وكان ابن عم صاحب قهوة (مقهي). أعجبت برسومه التوضحية أكثر من منطق الهندسة وكان والدي حصل على كتاب يحتوي على سؤالات الفحص لدخول أكسفورد وكامبريدج واعتنى عزيز نصر بشرح المحتوى صفحة بعد الأخرى وفي خلال الفحص الذي استغرق أسبوعين ما كان ليكتفي بالشرح بل حثني على الاستنتاج وحل المشاكل الصعبة.

وللأسف ما لم أوفق به ولم ينقص عزمه أو يمل في محاولاته وبعد عشرة أسابيع كتب تقريراً أورد فيه إنجازاتي القليلة مع ذكائي لكن قلة التركيز والانتباه وعدم بذلي أقصى جهدي.

ذكرني بأقوال والدي "ادوارد لا تجهد نفسك ولا تقدم الأفضل". والدتي تشاءمت من دخولي الكولج ونتائجه وسألت ماذا سيحل بك ادوارد، هل تريد الإخفاق دوماً، أذكر مس كلارك، متى تتحسن الأمور. أُقر بأبشع سلوك قدمته في صيف ضهور والسبب هو عزلتي المفروضة في غرفتي الصغيرة البعيدة عن كل سرور، عندما كان يقال لي اخلع ثيابك واذهب للنوم انتهى وقت القراءة. أذكر كيف كنت في سريري أبصق على الجدار وأفرش الجدار الأبيض ببصاقي ما أوصل والدتي في غضبها إلى درجة الغليان. في كل وقت الصيف لم تتخلله كلمات عذبة أو رقة.

علاقاتي بإخواتي جين وروز كانت شوكية تتخللها المشاجرات، كان يراودني الشعور أننا فقدنا الثقة والقرب ولم نتفاهم مع بعضنا إطلاقاً.

حتى وفاة والدتي كانت علاقتها بنا ذات طرفين أرادت أن تكون المفاوضة حين تنشأ بيننا خلافات لكني لا أذكر أنها كانت على نفس البعد من كل منا. قالت مرة لماذا لست مجداً مثل أختك روزي وأخرى لا أحد من أخواتك يتمتع بنفس الموهبة التي تتمتع بها بالموسيقى.

جين أكثر مرحاً من روزي، روزي أقوى من جين، سلوك ادوارد سيئ. عشنا حسب ما أرادات والدتنا ولعبنا الأدوار التي أرادتها، لست اليوم متأكداً أنها احتفظت لنفسها بما أفصحت لها عن مشاعري الحزينة ولم تروها لوالدي أو

أخواتي. انفتحت عليها وعلمت أنها سوف تستخدم هذا لتتلاعب بي. حاولت دائماً التقرب منها وكسب حبها. في ضهور كنت دوماً هدفها، وفي النهاية حُزت على اهتمامها وانشغالها بالتفاصيل دون أن تكون منفرجة.

كانت تملك ذكاءً حاداً حساساً ما جذبني لكنها كانت دوماً تخفيه لتبدو وكأنها لا حول لها ولا قوة تجاه والدي. أتذكر جهدها بإنجاز علومها الفرنسية والعلوم الدينية لكن بعدما عانت من إدمان والدي على لعب الورق والبريدج صابرة انشغلت في النهاية بلعب البريدج وأصبحت بعد وفاته لاعبة بارزة. اسمي ذلك "سيندروم ضهور Syndrom[1]".

ظهر لأن والدتي فرض عليها أن تتأقلم مع الأحداث لنفسها وتجد المخارج، إنسان غير كامل، حائر، يجرب دون نجاح أن يتوافر مع ما تراكم أمامه من مصاعب كالبهلواني الذي يحمل عدة صحون ويحاول التوازن بها. لم أشك يوماً أنها تفهمني رغم براعتها في التلاعب بنا. وجدت نفسي مجذوباً لأناس من معارفنا ما لم تعرفه، حياة أخرى، أتحرى قصصاً أخرى، ما تحوّل لهواية لي للبحث عن بدائل لسيطرة والدتي. وهكذا أصبح الدكتور فائز نصار وزوجته الثانية "فينا" سيدة مرحة جذابة مصدراً للتعرف على غير المعروف بعيداً عن اليوم الممل في ضهور. كنا تعرفنا على فينا وابنيها الاثنين مطلع الأربعينات في القاهرة. كانت متزوجة من مصري توفي بعد ذلك. كأرملة شامية في القاهرة التقت فائز وزوجته. بعد ذلك أحضرها فائز وأولادها إلى بيروت. أميل نصار ابن عمه وجارنا طابق أسفل عرفنا عليه.

---

1 سيندروم يستعمل في لغة الطب وهو ظاهرة تدل على المرض لا أعرف التعبير العربي.

نشأت بيني وبينه علاقة منذ ما كان يزورنا بشكل منتظم ويلعب مع والدي بريدج وطاولة.

مثل أغلب آل نصار، كان عددهم هائلاً، توسع محيطي البروتستانتي إلى شبكة كبيرة من مطلقين، أولاد متبنين، فائز كان قصير القامة بديناً مع قصة شعر أمريكية، تكلم وتحرك بوقار.

تعرفنا عليه كـ: دكتور فائز ولكن بعد ما كان يلعب مع والدي دوماً طاولة وبريدج علمنا أنه عقيد بالجيش المصري وكان في السودان. ليخاطبه والدي بوقار السيد العقيد ثم يخاطبه الكل بالعقيد. رغم ظهوره الجدي الوقاري وكونه كان دوماً يتكلم معي يأخذني بمعنى الجد، كان الرجل الوحيد في ضهور الأكبر بالعمر الذي اعتبرته صديقاً.

سكوته المصحوب بالتفكير، تحفظه، أثار إعجابي. أجل لعب بريدج مرات مخططاً في منزله ليروي قصصاً عن الصيد. رواها بلغة إنكليزية رفيعة المستوى ورد فيها تعابير استعمارية مثل: "حُمالي المحليين" وتعبير "الوحيد القديم" دلت على إفريقيا كما عرفت من كتب طرزان ومن الأفلام التي أحببتها. لما أصبحت أكبر سناً تأكدت أن بعضا من قصصه عن القطط الكبار (الأسود) ما كان فعلاً حقيقياً بل ليروي عليّ قصصاً تحوز إعجابي.

مع ذلك الوقار بقي غير متبدلٍ واستمر عبر الوقفات بين القصة والأخرى. في خلال سنواتي الباكرة كان عندي الانطباع أنه كان يروي القصص بكل عناية مع وقفات ليزيد تشوقي ومتعتي بقصص الصيد في الغابات الإفريقية. لما كبرنا معاً لاحظت مع الأسف أن ذاكرته وقواه الفكرية بدأتا بالتراجع. لاحقاً

قالت لي إحدى قريباته ربما بقصد خبيث، إنه كان له معشوقة سودانية وكان معروفاً كمغتصب نساء صلابته برأيي يحتاجها خلقه وسلوكه وهي جزء من وقار نادر في مجتمع مثل مجتمعنا.

الصداقة مع العقيد كانت ما أريد أن أسميه سماً مضاداً ضد الجو الذي فرض من والدتي.

في كل ما قدمه كان وراءه نظام، انضباط، معرفة وسرور. مع مرور السنوات بدأ بيتنا يعج بالحياة ومن الأسباب أن كثيراً من أقارب والدتي بدؤوا يستأجرون بيوتاً في ضهور لكامل العطلة الصيفية. لما كبر العقيد سناً، كان يشاهد وهو يمشي على أرصفة ضهور غير المعبدة ببطء. وكان دائماً يلبس الطربوش رغم كونه لم يعد مألوفاً.

وبدأ العقيد يختفي رويداً رويداً من حياتنا ولم يخلفه أحد بمكانته وخصائصه. مكانه أخذه شاب من عمري من الذين دخلت محيطهم، ضهور بدت وكأنها أصبحت أكبر وشبه عالمية.

لما بلغت الثالثة عشرة من عمري حصلت سينما فلوريدا على "بروجيكتور أو بروجيكتور" (لعرض الأفلام) التي كانت تقع قرب مقهى "سيرك"، فقط بروجيتكور واحد توجب لهذا عمل وقفة كل عشرين دقيقة لتغيير البكرة، الأفلام كانت لها شقوق وإضاءة أكثر.

في عام ١٩٥٢ بُدِلت السينما بأُخرى أجمل، أحدث وأكثر راحة في مقاعدها "سيتي سينما" وكانت الأفلام تعرض دون توقف. عندما كنا نذهب للسينما كنا نصادف كما من أولاد العم أو أصدقاء تم لقاؤهم في النهار أو لعبنا معهم تينس وآخرين من شباب نصار برفقة أصدقاء من بيروت.

المدينة بدأت تتغير، افتتحت صالتان للعب البريدج، وملعبٌ جديدٌ للتنيس، وبعض المحلات لبيع اللوازم الرياضية، وكثيراً من السكان بدأوا يمتلكون سيارات ما أضفى على المدينة جواً آخر.

رغم توسع الأفق كنت أذكر بطريقة موقظة أني لا في ضهور ولا في لبنان كنت أشعر بوجودي في وطني.

ذات يوم بعد الظهر دعاني منير نصار لزيارته في البيت وأراد أن يعرفني على أحد أصدقائه من المدرسة نقولا صعب أذكى طلاب الصف. بعد عشر سنوات.. انتحر وهو على عتبة الشهرة كطبيب، كانت تربطهما علاقات صداقة قوية منذ سنوات واستعملا لغة سرية بمصطلحات فريدة كنت أنا مستثنى منها وغيري من الغرباء. أتذكر مناقشة حادة بينهما حول محاسن "برامز" مقابل "موزار" الذي كنت أنا أفضله. كنت لتوي أكتشف "سيمفونية لينتز" لموازر ووجدت في تفاصيلها قمة وضوح التعبير، دافعت عن موقفي ما استطعت لكني غلبت من الاثنين الأكبر سناً مني بقولهما إن موزار خفيف التعبير وفقير الأفكار. الحكم على "برامز" "عميق" بقي في ذاكرتي مترسخاً تعبيراً لم أفهمه وما استعملته من قبل. عميق، غامق، مقلق، مليء المعاني، هكذا وصفا السيمفونية الأولى لبرامز. ولما وضعت الأسطوانة على "البك آب" لاحظت تعابير الوجه بالتأييد والتأكيد على حكمهما. ما كنت أستطيع النقض، برامز كان مفضل العريفين بينما موزار وأنا كان لهما دور جانبي أقل اهتماماً. في النهاية حاول إرضائي صعب قائلاً لاشك أن موزار دون عيوب. لما بلغت الخامسة عشرة من عمري سمح لي السفر لبيروت مع منير نصار، أخذني معه لشاطئ الجامعة الإسمنتي، يكاد من ينوي السباحة أن

يحرق قدميه ماشياً فوق الأرض الإسمنتية. هناك عرفني على زملاء الدراسة الذين رحبوا بي بكل ود ثم أخذوا يروون نكتاً باللهجة العامية، لغتهم على ما بدا لي ولم تكن لغتي. كانت لي الفرصة الأولى لأرى فيها اللغة كعقبة رغم عدم فهمي لما رووه. لهجتهم كانت لبنانية مثلي بغض النظر عن آثار فلسطينية ومصرية، ببيروتهم كانت "ببيروتتي" فقط لأني صدفة كنت مع منير. لم أشارك فعلياً بينما هم تابعوا ثرثرتهم. عندما ذهبنا إلى عرض سينمائي في سينما كابيتول في وسط بيروت أعطاني ظلام السينما غطاءً بينما تساءلت فيمَ إذا كنت على مستوى الشابين، تحدثت لاحقاً مع والدتي كيف شعرت بالعزلة حين كنت أستمع لأحاديثهم، قالت لو سألتهم عما يتكلمون ولماذا لم يتركوك تشارك في أحاديثهم؟ وعزت السبب لخجلي. سررت بمؤازرتها وكنت على قناعة أني ما كنت لأوجه لهم سؤالاً من هذا النوع. في منتصف الخمسينات حيث امتلكنا سيارة وهاتفاً في ضهور درست فصلي الأول في "برينسيتون" وفجأة اختفى الشعور بالأسر والملل اللذين سيطرا عليّ في ضهور. الحياة في ضهور لم تعد مقتصرة على الساحة ومحيطها، بل امتدت حتى برمانا عشرة كيلومترات للجنوب وإلى مروج بضعة كيلومترات بعد فندق قصوف. مركز النشاط كان ملعب التينس.

ملعب الحلبي كان مفتوحاً لمن شاء ودفع الرسوم. الملعب كان يحظى على عناية وإدارة جيدتين لكني تعرفت على سامي صاوايا (أو ساوايا) قريب صاحب محل بيع اللوازم الغذائية. وشوقي دموس قوي البنية في الأربعين من العمر وكان معلم رياضة في المعهد الدولي معهد تحضيري للجامعة. سامي كان طويل القامة نحيفاً يكبرني بخمس سنوات يقضي أغلب وقته في الملعب واجتماعي بطبيعته

لطيف المعشر. سامي أدخلني جو الملعب الصاخب الذي يختلف عن الجو الانعزالي الممل الذي ألفته. كانت تحدث مشادات كلامية في الملعب ويتوسط بحلها شوقي بصلعته الكبيرة الجلالية وعندما كان يصرخ تتوقف المشادات الكلامية.

كنت ألعب مع سامي، نلعب ازدواجياً مع بنات تعرفت عليهن في المعلب. كان لضهور فرص التمثيل في لعب التنس وكان يمثلها ابن عمي فؤاد بدر وتقام مباراة مع IPC (Iraki Pertoleum Company) من طرابلس ومع فريق من برمانا.

التنس فتح لي آفاقاً بعيدة عن أهلي وعن نظرات والدتي التفحصية. في عام ١٩٥٤ حدث تحسن في الحياة الاجتماعية حين اشترت عائلة مسلمة "طبارة" بيتاً جميلاً قرب ملعب التنس وحولته إلى نادٍ، لعب فيه شوقي دموس الدور الأول وكان النادي يبعد كيلومتراً عن فندق قصوف ما كان يوجب امتلاك سيارة وأحياناً كان المرء يقنع السيارات المارة بالسفر معها.

بعد تأسيس النادي تعرفت على أخوات عماد إيفا ونيللي البنات الأصغر لنايف عماد باشا من عين الصفصاف بالقرب من ضهور الذي كان يمتلك معمل صابون وعاش في طنطا شمال القاهرة مكان معامله. عائلة عماد سكنت مقابل نادي طبارة في بيت كبير يشبه القصر.

لم أدخل القصر ولم أصادف عماد باشا رغم الصداقة التي كانت تربطني بأولاده، إيفا كانت أكبر من نيللي (وتكبرني بسبع سنوات)، كانت عازبة، غنية، لكنها معزولة عن المجتمع وكانت أول سيدة تقربت لها رغم أننا كنا في أغلب الصيفيات محاطين بالآخرين.

أتت في الصباح للعب التنس وذهبت ظهراً لتناول الطعام وعادت بعد الظهر أما للعب التنس أو البنغ بونغ أو لعب الورق.

الفصل الثامن

في خريف ١٩٤٩ عندما بلغت الرابعة عشرة من عمري ما كنت لأعلم عندما دخلت معهد فكتوريا أن سنتي الأخيرتين في القاهرة دخلتا في مرحلة النهاية. لأول مرة سميت "سعيد" واختفى اسمي الأول أو اختصر إلى " E" وخفيف الحمل دخلت عالماً بأسماء مختلفة ومختلفة الأصول. زكي، سلامة، موتيفلليان، شالوم، علقت بها أحرف كادت تكون عديمة المعنى مثل: Salama, c, Salama A, Zaki, A. A. وغيرها ما علق بها حرفان ما كان مدعاة للهزء تحول إلى Zaki, Ack, Ack.

قبل بدء السنة الدراسية كنت قلت لوالدتي أني أريد أن أصبح طبيباً وأجابت إنها ووالدي سوف يشترون لي عيادة. وكانا مقتنعين أن هذه الهدية سوف تكون مقتصرة على القاهرة.

هذا رغم قناعتنا جميعاً أن هذه المدينة لن تكون على المدى البعيد وطناً لنا. أخبار غامضة عن اغتيال وخطف رجال ذوي شهرة ونساؤهم جميلات كانت شاهداً على فساد الملك البدين ومزاولاته الليلية وإقاماته الطويلة في أوربا والقلاقل التي سادت البلاد بسبب حرب فلسطين الـ: ٤٨ بأسلحتها الفاسدة وجنرالاتها غير الكفوئين وقوة العدو، ما أوصل البلد إلى حالة تشبه

الثمل المتلوح، إلى الحضيض. ظهور الإخوان المسلمين المفاجئ زاد من قلقنا نحن غير المصريين وغير المسلمين. حرب العصابات في منطقة السويس أدت لانسحاب البريطانيين والممرضات والمعلمين والبروقراطيين كانوا أشد بكثير مما مضى. بدا لي ذلك واضحاً عند دخولي معهد فكتوريا وكان أستاذ الجغرافيا مستر هيل قال لي إن المعهد سيكون قدوة للشرق الأوسط كله.

ما عدا معلمي اللغتين العربية والفرنسية كان المعلمون بريطانيين رغم عدم وجود طلاب بريطانيين على عكس مدرسة GPs. والدي أخذني بسيارته إلى المعهد الذي كان مؤقتاً في بناية مدرسة إيطالية في حي الشبرا في أكثر مناطق القاهرة كثافة بالسكان ليس بعيداً من مستشفى دكتور حداد، قال لي مودعاً "أتمنى لك الحظ يا ولدي". للمرة الثانية في حياتي لبست زي مدرسي بعد مدرسة GPS جاكيت أزرق "بليزار"، بنطال فضي، كرافات زرقاء فضية مخططة وقبعة. وتم شراء الزي من عند آفيرينو. هذا الزي أظهرني بكل وضوح طالب معهد فيكتوريا. قبل أن يقرع الجرس لدخول الصف مشيت عبر الزحمة إلى الصف يراودني الشعور بالعزلة وعدم الثقة بالنفس. خجولاً ألقيت نظرة على المكتب باحثاً عن إشارة تدل على الصف الخامس ليشير لي "فراش" الطريق عبر الباحة، وفي المقابل كان الصف الخامس. حين تقدمت عبر الصفوف في لعب الكرة بين طلاب أكبر سناً مشاغبين بأصوات مرتفعة، شعرت بالغربة في المكان وحدي، جديد، وغريب، معتدى عليه، وملخبط الأفكار.

عندما وجدت صفي ودخلته، وجدت شاباً صغيراً يجلس على المنصة وينقل من كتاب كبير كان بجانبه، آخرين جلسا معاً وقرأا بصمت بينما قارن ثلاثة آخرون

وظائفهم المدرسية، سألت الذي كان ينقل من الكتاب عن اسمه فقال: شكري، سألته ماذا يفعل فأجاب عمل عقابي وشرح لي أن العقاب يكون بنقل خمسمائة أو ألف سطر من كتاب ممل كقاموس أو دليل هاتف وما شابه وقال إنه يحضر العمل العقابي سلفاً ليوفر على نفسه العناء لاحقاً فيما إذا فرض عليه العقاب.

هنا تأكدت أن هذه المدرسة أكثر قسوة وصلابة مما عرفت حتى الآن، الضغط أكبر، المعلمون أكثر قسوة، المنافسة بين الطلاب أشد، الجو سوف يكون مليئاً بالتنافس والتحديات والعقوبات وما كنت مهيأً في البيت لهذا الجو، كنت رأيت نفسي معتمداً على نفسي فقط، غير معروف، غريب، معرض دوماً للخطر أن أُبتلع في آلية كبيرة أسوأ مما عرفته للآن. كل صف كان يتألف من مجموعتين منفصلتين، مجموعة "ألف" للمجدين والمجتهدين ومجموعة "ب" للكسالى.

هذا الفصل كان بسبب التحضير لدخول الجامعة. أو للحصول على البكالوريا العادية.

مجموعة "ألف" كان أفرادها يتميزون بتفوقهم بالرياضة والذكاء وكنا نناديهم بلقب "كابتن" والذي كان يميزهم إشارات فضية على جاكيتاتهم وقبعاتهم. أميزهم كان ديدي باسانو وميشيل شلهوب وتميز شلهوب أكثر باختراعه العقوبات الأشد قسوة تجاه الطلاب الأصغر.

لتماسك نحو من ألف طالب قسمتنا الإدارة إلى بيوت ترسخ إيديولوجية الاستعمار وتعمقها فينا.

نسبت إلى Kitchener Haus بيوت أخرى سميت Cramer, Darke Frobisher, فكتوريا القاهرة كانت أقل وجاهة من فكتوريا

الإسكندرية التي كان مضى على تأسيسها ثلاثة عقود ومن جملة طلابها كان الملك حسين ملك الأردن ، كانت تشتهر بمبانيها الجميلة وملاعبها الرياضية في عاصمة الصيف على البحر المتوسط .

ساحة فكتوريا القاهرة بدت وكأنها مرقعة ، كانت استؤجرت أثناء الحرب لإيواء طلاب الإسكندرية حيث كانت فكتوريا الإسكندرية مدرسة داخلية بالأصل . أغلب الطلاب كانوا قاهريين ما كانوا من عائلات أريستوقراطية على عكس الإسكندرية . كانت الصفوف والقاعات غير نظيفة والغبار كثير رغم ملاعب التنس وكرة القدم بشكل لم أشاهده من قبل . بينما كنت أنتظر بدء الساعة التدريسية في الصف ، كان يمتلئ بالطلاب حاملين حقائب ضخمة مليئة بالكتب والأقلام والدفاتر يصخبون بالثرثرة . كطالب وحيد جديد كنت أعتقد أني سوف أبقى لمدة طويلة على الهامش حيث ظهرت لي شبكة الروابط لزملائي الخمسة والعشرين محكمة السد ، لكن في نهاية اليوم الأول شعرت وكأني في بيتي . معلم الصف مستر "كايت غاتيلي" كان أبيض الشعر ، بديناً وله ندبة على طول الوجه ، كالآخرين كان خريج أكسفورد أو كامبريدج ممن أبقوا في مصر بعد الحرب أو أتوا خصيصا لعدم توفر فرص العمل في بريطانيا . كان أغلبهم عازبين وعرفوا في أوساط الطلاب كمصابين بشذوذ جنسي يشبعون رغباتهم الجنسية بعديد من الخدم أو بالطلاب الصغار العمر .

غاتيلي سمي "بالخول" وزعم أن الندبة في وجهه نتجت عن شجار بينه وبين "قواد" اختلف معه على الأجور ، ما كان من الصعب معرفة حقيقة الزعم .

خلفية هذا الزعم بدت لي واضحة خلال أول ساعة اللغة الإنكليزية. التي كان عنوانها "ماذا تريدون" مع قطعة موسيقية غير مناسبة "الحب للموسيقى" لحنها يشبه حركات يد تمارس العادة السرية. غاتيلي طلب منا قراءة المقطع الأولي وتفسيرها ليعم الصف ضحك غير منقطع مصحوب بتعليقات عربية جنسية تطابق نصوص: Herzog Illyrien والمشهد كان جنسياً واضحاً غير مغلف ولم يكن بمقدوره رؤية الحركات الواضحة للطلاب لضعف بصره. في خلال ساعات قليلة نزعت مني تربية سنوات جادة كنت حائراً بين أن أنتمي للبقية المتضامنة مع المعلمين البريطانيين القساة غير الشخصيين والمتسلطين. زاد الاعتقاد أن أغلب المعلمين جرحي حرب ومن وجهة نظرنا غير الرحيمة استحقوا إصاباتهم وآثارها من تشنجات عصبية وعلل حركية. في نهاية الدرس نهض غاتيلي فجأة ليظهر بطنه الكبيرة تحت القميص الضيق وبنطاله المبقع والذي يشبه الكيس لينهال "دون سبب على طالبين يتحدثان" بالضرب ليسا داريين بالكارثة الآتية. لم أر هذا المشهد من قبل، رجل بدين يلاقي صعوبة بالحفاظ على توازنه ينهال بالضرب على طالبين صغيرين أصابهم مرة وأخرى استطاعا النجاة صارخين "نوسير" لا تضرب سير، ماذا فعلنا سير، بينما تجمع الآخرون محاولين إبعاد الضربات عن الصغيرين.

بعد هذا الحدث كانت ساعات رياضيات وكان المعلم "ماركوس هيندس"، كان يشبه غاتيلي في كل شيء. رأى نفسه صاحب نكتة يؤكد ذلك بلسانه الحاد. دقة الجبر والهندسة ما كنا لنجدها في دروس غاتيلي وسميناه شعر أجنبي، سكوت هنيدس كان أخطر من شرود غاتيلي بمساحة كبيرة الحجم

صنعت خصيصاً له، أحد وجهيها كان من الخشب ينهال بها بالضرب على طالب تبادل بضع كلمات مع جاره أو ما فهم قاعدة جبرية. في ساعتي الأولى مع هيندس صاحبني سوء الحظ عندما سألت جاري أي كتاب علينا استعماله ليقذف تجاهي المسّاحة الخشبية الطرف ثم تبعني للصف الخلفي ليشبعني ضربات، وكون ذنبي كان طفيفاً اكتفى بهذا القدر بورم وجهي. كون أحداً لم يتدخل، تعاملت لوحدي بهذا الحدث وهكذا رسمت الحدود بيننا وبين المعلمين. لأول مرة انحصرت بفئة معينة حيث ما كنت بريطانياً ولا مصرياً لكن عربياً. بين الطلاب والمعلمين كانت هوة لا يربطها جسر. في عيون المعلمين المستوردين كنا أمام مجال عمل يومي مفروض وأمام كمٍّ من الخارجين على القانون يستحقون يوماً بعد يوم العقاب أو وضعهم عند حدهم. في نشرة تحت عنوان "كتب جيب المدرسة" "وقع في يدي" حولنا إلى سكان محليين (أو أصليين، يقصد بذلك على سبيل المثال مثل الهنود الحمر أو الإفريقيين في جنوب إفريقيا)، جاء فيه: القاعدة الأولى: لغة المدرسة إنكليزية، استعمال لغة أخرى يعرض مستعملها لأشد العقاب. وهكذا تحولت اللغة العربية إلى ملاذنا. لغة تستحق العقاب بها نحرر أنفسنا من عالم الأسياد المتفوقين والطلبة الأكبر المتأنكلزين والمنفذين لقواعد السلطة المتسلطة. بسبب القاعدة الأولى تكلمنا العربية أكثر للمقاومة العنيدة من نظرة ماضية واليوم آنية ضد رموز السلطة الغربية. ما أخفيته في الماضي في مدرسة CSAC أصبح رمزاً للفخار، كنت أشعر بالسلطة أن أتكلم العربية دون أن أُدان وبالأخص أثناء الدرس بحجة توضيح السؤال وبالوقت نفسه لتحدي المعلمين. بعض المعلمين كان في حيرة

مقابل هذه التكيتكية وعلى الأخص مستر موندريل معلم التاريخ الشديد الإهمال لمنظره والذي كنا نعتقد أنه قبع كثيراً في الخنادق أثناء الحرب ويعاني من ارتجاف عصبي. كان يروي في الصف "دون أن يهتم أحد برواياته" عن الملك تودور والعادات الإليزابيتية. رداً على إحدى سؤالاته رد أحد الطلاب بانطباع بالغ الاحترام "؟؟ أمك سير" ليترجم بعد الرد بغير معنى ويعم الصف السرور. ليعود موندريل متخوفاً ومندهشاً لمنطلقه. لعبنا معه "أكبر كلمة" وأعدنا بصوت واحد آخر كلمة من جملة، حكم إليزابيت تميز بالثقافة والرحلات الاستكشافية، هذا كان من أبرز جمله وكنا نعيد "رحلات استكشافية"، سكت عن ذلك ست جمل لينفجر غضباً ما كان صداه في الصف ضحكاً عالياً، في منتصف السنة الدراسية امتنع عن الحديث معنا وجلس على كرسيه يسترسل بالحديث عن جريمة قتل الملك وثورة كروموبلز Cromwells صُنف المعلمون بين ضعفاء (موندبل، هيل) وأقوياء (هيندس، غاتيلي) لكن ليس على أرضية قدرتهم التربوية. اللغة العربية دُرست من معلمين مصريين ونصف الطلاب بين مبتدئين، متوسطين ومتقدمين وحسب ما أذكر كانوا ما عدا معلم واحد لا ينالون احترام الطلاب ذلك لأنهم في المعهد كانوا مواطنين من الدرجة الثانية ومن وجهة نظرنا ممجدين للملك فاروق.

معلمي في الصف المنتصف كان قبطياً وعرف كـ: توفيق أفندي مقابل داب أفندي (الاسم في الكتاب غير واضح لنقله للعربية كتب كما يلي: Dab, Effendi).

الذي حاز على التقدير والاحترام الكامل من الطلاب إذا لم نقل الحب ذلك لقدسية اللغة العربية التي أوحى للطلاب بها. أما توفيق أفندي فقد كان

بحاجة إلى دخل إضافي ووقع اختياره عليّ لساعات إضافية. اقنع والدتي وأتى لبيتنا مرتين في الأسبوع لساعات إضافية.

بعد بعض التجارب لتوضيح القواعد - بعد عشرين عاماً من الحرمان والابتعاد - كنت وتوفيق أفندي نقضي الوقت بالحديث عن الكتب بدلاً عن القواعد. كان همه الأجر وفنجان من القهوة والكعك ما كان يقدمه له خادمنا أحمد ليذهب إلى ساعة إضافية أخرى. كنت وأحمد نضحك على توفيق أفندي بعد ذهابه حيث كان يرفض القهوة شاكراً بقوله شربت لتوي القهوة مع أصدقاء في الـ: غروبي Groppi، غروبي كانت مقهى راقية في وسط المدينة، لينهال بشغف على ما يقدم له. في معهد فكتوريا وفي الحياة فيها كان أمراً مناقضاً ما بدا لي واضحاً حينذاك. نظر للطلاب أنهم أبناء طليعة من وحي الاستعمار وتم تعليمهم على هذا النحو. رغم زوال الاستعمار ما لم يكن واضح المعالم بأعيننا. تعلمنا عن حياة البريطانيين، ملكتهم وبرلمانهم، عن الهند وأفريقيا، عن عادات وتقاليد وأفكار، ما لم يكن نافعاً ومفيداً في مصر أو أي مكان آخر. العربي كان في الكولج منبوذاً ولهذا السبب لم نتلقَ درساً لائقاً عن لغتنا، عن تاريخنا، عن ثقافتنا وجغرافيتنا، فحصنا كما لو كنا بريطانيين، طوردنا من صف إلى صف دون أهداف واضحة أو هدف معين، بينما أهالينا مشغولي البال علينا وعلى مستقبلنا.

في داخلي عرفت أن معهد فكتوريا قطع كل علاقاتي بالماضي إلى غير رجعة وأن المظلة الواقية التي فتحها والدايّ فوقي "وهي أني أمريكي" تكسرت. كان يراودنا الشعور أنا فئة أقل جودة نقف أمام سلطة استعمارية تصدعت

لكنها بقيت خطرة تجلب لنا الأذى، أجبرنا على تعلم لغتها وثقافتها غير ما هو مألوف في مصر. الاستقلالية الاستعمارية المتلاشية تجسدت بشخص المدير: Mr. J. G. E. Price الذي دلت كثرة الأحرف قبل اسمه العائلي على أصله، ما ربطته منذ ذلك الوقت بالبريطانيين. لا أعرف أين وكيف تعرف عليه والدي المعرفة التي دفعته في البدء للتعامل معي بمودة. كان قصير القامة، بديناً نوعاً ما، بشوارب سوداء وعندما كان يتنزه مع كلبه الـ: Terrier[1] كانت خطواته عسكرية. كان يبسط سلطته على المعلمين والمستخدمين وبواب العمارة، ليتنازل عن عمله بعدما أصابه المرض وقليلاً ما كان يغادر مكتبه.

بنهاية شهري الأول في فكتوريا اكتسبت لقب مشاغب، الذي يثرثر مع الطلاب أثناء الدروس، يندمج مع مشاغبين وثورويين دوماً، على لسانه أجوبة ساخرة ليست ذات معنى، ما كان من وجهة نظري تحدياً ومقاومة للبريطانيين وفي الوقت ذاته لازمتني الشكوك بالخوف من الفشل مع شعوري بعدم الرضاء عن جسمي الرجولي واضطهاد[2] جنسي مع الخوف الدائم بالفشل.

المنهاج المدرسي كان متعباً لأبعد الحدود، استمر من الثامنة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر أو السادسة تتخلله فرصة ظهر ورياضة. تبع ذلك مساء طويل بالوظائف المدرسية مع دفتر سميك أوجب فيه تسجيل كل نشاطات اليوم كما توجب علينا شراءه من دكان المدرسة.

الدروس كانت تحوي تسع مواد: إنكليزي، فرنسي، عربي، رياضيات، تاريخ، جغرافيا، فيزياء، كيمياء، وبيولوجيا ومكثف جداً. ما فتئت أشك

1 اسم نسل معين من الكلاب البريطانية.

2 بعده عن النساء

بقدراتي وتأهلي للفحص. في يوم مع بدء السنة الدراسية شوهدت وأنا أقذف حجارة لأؤخذ إلى المدير "برايس". في غرفة الانتظار جلس سكرتير قوي البنية سميناه مستر لاغنادو همس له المراقب الذي جلبني شيئاً وفجأة وقفت أمام طاولة برايس، سأله برايس ما هو الأمر لاغنادو، ما هو الأمر بالطفل هنا ليذهب لاغنادو إلى قربه ويهمس في أذنيه. تعال يا ولد، قف أمام النافذة، احني نفسك، وبدأ لاغنادو ينهال بالضرب بالعصا على مؤخرتي.

ضعيف جسدياً ولحوزتي على هذا الشرف، فوض برايس شخصاً محلياً للقيام بهذه المهمة بينما كان برايس الصامت يثني بحركاته على الأداء، وهكذا سعيد اذهب واسلك سلوكاً حسناً قال برايس ولما غادرت مكانه المقدس مررت عبر لاغنادو الذي عاد ليأخذ مكانه على الطاولة بعد أداء مهمته وكأن شيئاً لم يكن. الألم كان شديداً وأثبت لاغنادو قوته الجسدية ليحوز رضاء وإعجاب سيده أو لإذلال عربي. لاغنادو كان يهودياً شرقياً يدعي انتماءه لأوروبا (أو متأورب) سمعته مرة يقول لشاب أرمني يغمس الخبز بالمرق: Ne mange pas comme les Arabes لا تأكل مثل العرب. وما توقعت غير الموقف منه في حالة الحرب. تملكني غضبٌ بلا حدود وأقسمت أن أحول حياتهم لجحيم دون أن أمكنهم من الإطلاع على ما أفعل. أردت فعل ذلك على طريقتي الخاصة دون أن أقترب منهم. رغم وقوف البعض من المدرسة إلى جانبي، سيطرت علي القيود التي فرضها والديّ ربما لخبرتهم بالساعات الإضافية التي أجراها ضهور عزيز نصر والتي اعتقد والدي أنها سوف تكون مفيدة لمعهد فكتوريا. رغم موهبتي الجيدة بالرياضيات والعلوم الطبيعية،

أخذت ساعات إضافية في الفيزياء والرياضيات وحسب اعتقاد والدي كنت لست على مستواه في الحساب ولا على مستوى أختي. هدى سعيد زوجة ابن عمي جورج سعيد الرائعة الجمال أعلنت استعدادها إعطائي ساعات إضافية في الرياضيات والفيزياء. كلف ابن عمي فلسطيني لاجئ القيام بهذه المهمة. الذي كان تعلم في الجامعة الأمريكية في القاهرة. هدى وفؤاد عتيم تفاهمنا مع بعضنا لأننا تكلمنا كثيراً عن الموسيقى وقليلاً عن الجبر الذي استوعبته بسرعة. فؤاد درس صحافة وكان زميلاً لابن عمي روبرت.

رغم اهتمامنا بالوحدات الحرارية كنا نناقش وضع الصحافة العربية المخزي واستمعت له كيف يصف الفراغ الإيديولوجي في أدمغة محرري الأخبار والأهرام.

في الختام سَرَّيت عمتي ميليا ووصفت لها همومي المتزايدة وشعوري بالضياع والبلبلة في المدرسة المصاعب الجمة اللغوية والجو الخانق، والعدد المتزايد من الساعات الإضافية وساعات الرياضة وساعات البيانو كل ذلك كان يثقلني من الصباح إلى المساء سبعة أيام في الأسبوع.

إضافة إلى جملة ممنوعات مما يجلب قدراً من السرور. كان هذا لي ما لا يطاق والعمة ميليا كانت على مستوى الأحداث. قالت تكفل الأمور واحداً بعد الآخر بهذا الشكل يتضاءل الضغط.

أنت بالغ الذكاء وأنا على ثقة أنك سوف تتحدى المصاعب وتصل في النهاية إلى النجاح.

كلماتها الهادئة المهتمة بقيت في ذاكرتي وأثبتت أنها كانت ناجعة في أوقات الأزمة المهددة حتى لو كانت مني متخيلة. هدوؤها واستقلاليتها وكان لها صدى إيجابي لديّ.

لكن للأسف كانت آخر مرة نتحدث لبعضنا، تقاعدها كان على الأبواب وحال ما انتقلت لبيروت لم تعد نفس الشخص. لا عجب العمة ميليا كانت على حق كل الحق، في خلال شهرين بدأت أشعر بالسعادة في المدرسة حيث رأيت فيها ملجأً للهروب من ضغوط البيت. بعدما اكتشف أهلي أني أمارس العادة السرية تغيرت نظراتهم وكثرت المراقبة واشتدت كما كلفت بقضاء مهمات عديدة. الصف الخامس آ A شكل وضعاً اجتماعياً ومدرسياً معقداً ما لم أعهده من قبل وتمتعت بهذا الوضع. المواد التعليمية كانت قليلة الأهمية، لم يوجد معلمون نابغون ما عدا واحد مستر ويتمان رجل متقدم بالعمر شديد الولع بالموسيقى الكلاسيكية.

أقنعني وأقنع والدي أن نعيره اسطوانة لـ: شتراوس "رقص الأقنعة السبعة" لسماعها في نادي الموسيقى الكلاسيكية الذي كنت أزوره. وجدت نفسي في جو نقي حيث تبددت مخاوفي القديمة وهمومي كما يتبدد الضباب الصباحي وفُتحت لي الأفق على سهول واسعة من أمور اجتماعية وسياسية. صفي كان مقسماً في تكتلات، أحد قادة إحدى التكتلات جورج قردوشي شاب قصير رياضي الشكل بمؤهلات رياضية ولسان حاد. الكل كانوا يبغون قربه رغم أني أنا ومصطفى حمد الله نبيل عبد المالك، من نفس الكتلة. بلباقته الكلامية استطاع أن ينتقل بين التكتلات. أنا وهو جلسنا في الصف الأخير، حمد الله واثنان آخران جلسوا في صف أمامنا. في بداية شهر كانون الأول تم تجاوز الحدود عندما حاول قردوشي أثناء درس ممل للمعلم غاتيلي إطفاء سيكارة ما أدى لحرق أوراق في درج دون عمد لتتصاعد أعمدة الدخان بينما كنا نحاول

إطفاءها بالأيدي وبالحقائب المدرسية. عمت الفوضى وتساءل غاليتي ما الحدث دخان سير، دخان سير وتمكنت أنا وقردوشي الخروج من الصف جلبنا رملاً وأطفأنا النار.

في الصف كان يوجد بعض الطلاب الذين يتكلمون اللغة الفرنسية أغلبهم يهود وكانوا من النابغين أندري شالوم، اندريه سلامه، روجير سكيوتو، يوسف ماني الذي ربطني به اهتمام بفالتر سكوت وكلود سلامة الذي كان يسكن في عمارة اموبيليا في وسط راقٍ في مركز القاهرة. غيرهم كانوا ممن يتكلم اللغة العربية غير متأثرين بالمؤثرات الغربية مثل مالاواني، زكي، نبيل عياد، شكري، أسامة عبد الحق وغيرهم. في هذه التكتلات الاجتماعية حيرني وقيدني وقتذاك وإلى اليوم أنه ما كان منهم أحد فوق العادة أو متميزاً وهكذا كانوا جمعاً يشبه فرقة باليت جمعاً من شخصيات بمختلف اللغات والديانات والجنسيات وكان بيننا لفترة هندي فاشي بوهومول الذي كانت عائلته تمتلك مخزناً للمجوهرات في فندق Shepheard,s. ما عداهم تواجد لجزء من السنة الدراسية جيلبرت خوري لبناني، نصف أمريكي علي حليم الذي كان والده ألبانياً وابن عم الملك فاروق، بولينت ماردين تركي، آرثر دافيوسون من أب كندي وأم مصرية، وسمير يوسف من أب قبطي وأم هولندية. معاً شكلوا صفاً مدهشاً موزائيكياً تجاهل الإنكليزي المدرسي رغم أنه كان القصد بالدرجة الأولى. لكل صف كان فريق كرة قدم وما كان لي دورٌ فعالٌ بعكس رياضة Leichtathletik"[١]. تحت نظرات مستر هندس اللامتسامحة تطورت إلى متفوق في ركض ١٠٠ و٢٠٠ متر.

---

1 لا أعرف الاسم العربي هي رياضة الألعاب الخفيفة في القاعة على عدة أجهزة رياضية.

أتذكر أني سألت مستر هندس دوماً عن حظي في بطولات المدرسة القادمة فأجاب سأكون مفاجئاً إذا حزت على سباق ركض ٢٠٠ متر، لكنني لن أفاجأ إذا نجحت في سباق ١٠٠ متر، لكني لم أفز بالاثنتين. أبشع لحظة في سباق الـ: ١٠٠ متر كانت حين بدأ بنطالي الأبيض الفضفاض يسحل وكانت والدتي تصر أن ألبسه رغم كبر حجمه. بينما كنت أمسك بنطالي أثناء الركض صاح هندس ادوارد لا تهتم بالبنطال اركض، اركض، ما فعلته ليسحل البنطال ويلتف على قدمي ما أثار ضحكاً انتصارياً بين طلاب بيت كرومر. هكذا انتهى سلمي الرياضي رغم متابعتي لعب التنس ومزاولتي السباحة. لم أقف يوماً أمام انتصار رياضي كنجم حيث كانت تثقلني دوماً النواقص الجسدية التي زرعها والدي في تلقيني إياها، تساءلت دوماً فيما إذا كانت هذه الادعاءات في محلها وإذا كنت فيما يتعلق بطول قامتي وقوتي الجسدية وميولي السرية للموسيقى والأدب أن أخرج عن سياق المألوف بين رفاقي وزملائي. تفوقي الخاص ظهر في ساعة فيزياء في ربيع عام ١٩٥٠. المدرسة القديمة لن تحوي على مخبر وهكذا كنا ننقل في باص مرتين في الأسبوع إلى معهد قبطي في حي مترد قرب المحطة قضينا ساعة في الكيمياء وكان المدرس نصف مجنون في منتصف العمر نسيت اسمه ما كان يتقن اللغة الإنكليزية وليؤكد على ما يقوله، كان يضرب نفسه بحزام من المطاط. عزمي أفندي معلمنا للفيزياء كان مهذباً علمنا بهدوء ميكانيك، ضوء، جاذبية، وغيره ما استوعبته دون عناء. أعراف المدرسة ما سمحت بالخضوع أمام المعلمين وهكذا تحفظت بالرد على السؤالات والمناقشة. عندما وزع عزمي نتائج الفحص النصفي علينا رافق ذلك بنقد لاذع فيما يتعلق بالإنتاج ونقص التركيز

في الصف. طالب واحد فقط يتقن قواعد الفيزياء وقدم فحصاً تاماً دون عيوب، توجه لي وقال إنتاج رائع سعيد.

تعال للأمام وكنت أجلس في مكان خلفي فنبهني زميلي أنت المقصود لأتعرقل أثناء سيري للأمام، ذهبت لعزمي لأستلم عملي البراق لأتعرقل من جديد أثناء عودتي لمقعدي.

على ما يبدو لم يخلف هذا لدى زملائي انطباعاً باقياً وكنت معروفاً كمشاغب. كانت نتائج الفيزياء مرضية لكنها ما كانت على ما بدا براقة. ما كان لي من مواهب في مجال الآداب بقي مختفياً خلف مخالب المعلمين والمراقبين والزملاء الفوضويين واليوم المدرسي الطويل والبرنامج الزمني المنزلي القاتل. استمتعت بعرض مدرسي لـ: Glodsmiths, She stoops conquer مثل فيه ميشيل شلهوب (عمر الشريف لاحقاً) دور مس هاردكاستل ومثل جيلبرت دي بوتون (لاحقاً رجل مالي دولي) دور كاتي Kate عبر سمير يوسف وآرثر دافيدسون دخلت عالم الفنون الشعبية المصرية وعالم "البورنوغافي" Pornografie (عالم الجنس). رغم وقفتي الشديدة المتصلبة تجاه الفنون والأمور التربوية، بقيت شاباً خجولاً ومحروماً جنسياً.

آرثر دافيدسون أعطانا كتبه الجنسية لقراءتها. كانت الكتب بشعة وسيئة النص كتبت على ما يبدو بسرعة مليئة بالصور الجنسية. في وقت لاحق أعطانا غيره صوراً جنسية تري رجالاً ونساء يمارسون العمل الجنسي صور هزلية سيئة الإضاءة والتصوير ما كان يوحي بجنس خشن ممنوع ولعدم وجود النساء من قريب أو بعيد، استغلينا الصور والكتابات، ألفاظ جنسية تثير

الضحك وتدل على الحرمان الجنسي. مع مرور الوقت بدأت أصوغ بنفسي نصوصاً جنسية واخترعت حوارات جنسية مع نساء كبيرات العمر من معارف العائلة وحتى من الأقرباء.

أخفيتها في أماكن مختلفة إما بين الحطب على البلكون أو في ملابس مهملة مع احتمال اكتشافها. ونزعة والدتي للتفتيش لم تمنعني من ذلك، كثيراً ما قالت وجدت هذا الشيء صدفة أو وجد حسن عند ترتيب الغرفة هذا وذاك. بعض الأوراق نسيتها واعتراني الخوف خلال الدرس أن تكتشف في البيت، ربما كنت أرغب ضمناً أن يحدث ذلك لأقف أمام مغامرات لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. رغم تنويه الأهل. هذه الحالة جعلتني أشعر أكثر أني ملاحق لرغباتي المكبوتة لم يتبقَ غير السينما والكاباريه كمصبات. في يوم مساء ربيع من عام ١٩٥٠ حجز لنا سمير يوسف طاولة في مقهى صيفي في البادية قرب فندق شيراتون في الجيزة اليوم هناك تكهربت من منظر جنسي لم أشهده من ذي قبل. الراقصة تحية كاريوكا أكبر راقصة معروفة ذلك الوقت مصاحبة من المغني عبد العزيز محمود تلوت حوله، خصرها، سيقانها، وثدياها كلها قدمت ما فاق خيالي وأحلامي وما صغته في أوراقي. ابتسامة وجهها، فمها المفتوح قليلاً نقلنا إلى حالة غيبوبة، أطرافنا كانت وكأنها مشلولة ارتبطت بالكراسي. رقصت حوالي خمس وثلاثين دقيقة دون توقف لف ودوران مع موسيقى مرة خافتة وأخرى عالية، رقصها لم يتوج بالموسيقى بل بحركاتها العميقة التعبير الجنسي.

أقل تأثيراً في المثل كانت العروضات الموسيقية "سيد شاريسي" Cyd Charisse أقل منها مع فيرا اللين أو آن ميللار راقصات هوليوج من عالم خيالي

ما لم يجد ارتخاء في شعرية القاهرة. بعد بضع سنوات قالت كاريسي في تصريح لها: لنيويورك تايمز عروض موسيقية وجرابات حريرية ادخلا بمساعدة الرقص عبر الجنس الذي منعته الرقابة حينذاك. تفاعلت مع هذا الواقع محتاراً كشاب محروس برغبات مكبوتة. أنا وأصدقائي قضينا ساعات في السينما، ساعات سرية ننظر إلى ريتا هايوارث وجين رسل وحتى المتقدمة السن بيتتي غرابل نتمتع برؤية صرة امرأة وللأسف كانت تلك اللحظات ممنوعة من الرقابة.

لا يوجد ممثلون يستطيعون التسلل إلى أعماق خيالنا مثل لاعبي التنس، مرتين في السنة جاء للقاهرة لاعبو تينس مثل ياروسلاف دروبني، إريك ستورغيس، بدغي باتتي، البارون غوتفريد فون كرام، أدريان كويست وتحولوا أبطالاً في تخيلاتنا، كانت حياتهم مليئة بالسفر الغالي والمتعة.

نقولا بيترانغيلي، هود وروزي فول وطوني موترام كانوا مثلاً لعالم براق بعيداً عن حياتنا اليومية.

في البيت بدأت الحياة تتغير ولم نعد معزولين، انتقلنا نحن الخمسة من عصر الطفولة، كما توسعت حياة الأهل الاجتماعية، حلقة كبيرة من الأصدقاء نشأت حولنا وبقيت حتى مطلع الستينات حتى فرقها الكبر والأوضاع السياسية وتغيرات اقتصادية. الأقرب لنا كانت عائلة ديرليكس الذين قابلناهم أيضاً في لبنان وأقرب كثيراً إلى والديّ، رينيه، والدته الذكية صاحبة النكتة الصديقة المقربة لوالدتي وزوجها لوريس الصيدلي فارس وطباخ كان رفيقاً مميزاً لزوجته. أولادهما الأكبر أندري من نفس عمري وكلود أخته الأصغر رأيناهم نادراً لأنهما زارا مدرسة فرنسية وكان لهما حلقتهما من الأصدقاء. حتى يومي هذا أتذكر الدير ليكس بلهفة.

زياراتهم لنا تميزت عن الصبغة الفلسطينية الخشنة وصمت لاعبي البريدج حولنا مثل السادة فرج الله، شكري وصبري الذين قضى والدي معهم ليالي طويلة ما أغضبني. رينيه ديرليكس كانت تلميذة عمتي ميليا وابنة أب لبناني ـ مصري وأم أرمنية، لوريس كانت أرمنية ـ تركية كلاهما كانا عالمين، نطقا الفرنسية والإنكليزية بطلاقة وليس هو نفس الأمر ما يتعلق باللغة العربية.

الطعام في منزلهم، زيارة المطاعم في قاعة الاستجمام في "استوريل"، والرحلات إلى الإسكندرية من أحلى ذكريات شبابي. مثلنا كانوا في محيطهم القاهري معرضين للزوال، هذا العالم بدأ ينحل. كلنا كنا "شوام" مكونات مائية برية غاب عنهم ضياعهم بحلم نهاري، معالمه حفلات طعامية رائعة وزيارات مطاعم راقية ودور الأوبرا والباليت والحفلات الموسيقية.

بنهاية الأربعينات ما كنا فقط "شوام" بل إضافة لذلك "خواجات" هذه كانت تسميات الأجانب الرسمية والاختزامية من مسلمي مصر تخفي في طياتها نزعة عدائية. هذا رغم أني تكلمت كمصري وعلى ما أظن مظهري أيضاً كان مصرياً لكنه كان يرفع الغطاء عما كنت أعرفه. فكرة أن أكون أجنبياً في أعماقي قاومتها بقوة رغم أني عربي مثلهم. ديرليكس كانوا أكثر انعزالاً عن المجتمع المصري وخاصة لوريس والأبناء الذين كانوا في سلوكهم ولغتهم أوروبيين ورغم ذلك لم يشعروا بضيق.

حسدت أندريه على انفتاحه على العالم، والدتي تحدثت كثيراً عنه وعن قدرته على التكيف مع الأوضاع لتحمسني وتضاعف جهودي في حياتي، ولم يكن لذلك تأثيرٌ كبيرٌ علي.

أندريه جاب العالم بغياب طويل عبر أوروبا وآسيا مع قليل من المال وعندما عاد لم يكن ماله نفد. بدا وكأنه قبل لقب "الخواجة" بينما انزعجت أنا من هذا اللقب لشعوري العميق بهويتي الفلسطينية بفضل عمتي نبيهة ولأني ما قبلت هذه "الإتيكيت" المذلة ورأيت نفسي إنساناً مميز الشخصية والتكوين ولست نسخة استعمارية. غيرهم من الأصدقاء كان كمال والزي ميرشاك، هو شامي ـ مصري من الجيل الثاني وهي فلسطينية الأصل كلاهما أصغر من والدي. وأكثر عصرية، كانوا دوماً مستعدين إذا كان الهدف نادياً ليلياً أو مطعماً ورغم فارق العمر، كنت وكمال أصدقاء لاسيما وقد لاحظ حرماني الجنسي. عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري وكنت أزور المدرسة في الولايات المتحدة، أتى بشكل منتظم في الصيف وأحياناً في عيد الميلاد للبيت، حرضني على إنشاء علاقات مع نساء متزوجات تصور أثارني لقلة ثقتي بالنفس وعدم توفر الفرص ولم يحدث شيء من هذا القبيل. كان هناك أيضاً جورج فهوم وزوجته إيما ابنة عم كمال جورج كان رياضي الشكل، أنيق المظهر ورجل أعمال ناجح، كان مع والد إيما الياس ميرشاك مالك عقارات غني يعمل بالاستيراد والتصدير بالآلات الزراعية الثقيلة.

في الثلاثينات خلال دراسته في بيروت كان رياضياً بارعاً في الركض وقفز الحواجز وسجل أرقاماً قياسية استمرت حتى الستينيات. كان لاعب تينس مشغوفاً كثير الثقة بالنفس ما استفز والدي ودعاه للعب معي وما كنت أريح ولا مرة إلا بعد ما عدت من الولايات المتحدة وكنت أكثر قدرة وربحت مرة معه. كنت أكره طلبَ والدي منه اللعب معي وفي نفس الوقت أغراني

التحدي لأخجل من الخسارة بعد كل جولة. كنا نلعب دوماً في نادي فهوم حيث كان بثقة كبرى يداعب الكرة قبل اللعب ويتفرج عليه المدربون وينتظرون لمشاهدة لعبه وربحه.

أيما كانت حينذاك واليوم في غاية اللطف منفتحة لم يغير الغنى من خصالها الجميلة، أخواتها Reine, Yvette, Odette كن متزوجات مع شوام ومستقرين في المكان ولهن عدد من البنات مثل إيما وجورج. مع بناتهن أميرة وليندا ربطتني صداقة عذرية لكنهما تزوجتا باكراً ما تركني يومها متأثراً خائب الأمل. أعضاء جدد من الفرقة كانوا فراسواز ومادلين غوررا اللتين كان لديهن صعوبات مع اللغات ما عدا اللغة الفرنسية. الآخرون زاروا مدارس أمريكانية وإنكليزية.

مادلين كانت شديدة التدين متأصلة في الجو السوري - اللبناني على طريقتها إلى جو لم يكن لي مدخل إليه، لكن بزياراتنا المتصلة تعرفت عليه. أذكر أني التقيت الزغيبي والخيديد حاملي ألقاب باباوية. عشر سنوات بعد ذلك في ذروة السنوات الناصرية بدا لي عدم مناسبة هذه الألقاب التي تنتقل من جيل لآخر. في السنوات الماضية كانت تمثل من وجهة نظري نوعاً من الرومانتيك لاسيما وليس أحد منهم اهتم أو يهتم بشؤون مصرية. أنا نفسي ما كنت في باريس لكن عبر غورا وأصدقائهم وجدت في جو باريس بشكل غير مباشر، وعندما يتكلمون الفرنسية باللهجة الشرقية ويلفون حرف الراء بجملهم المصطنعة التركيب والكلمات العربية المهربة مثل "يعني" أو "يالله" تبدو الأمور غير طبيعية.

خارج المدرسة كانت حياتنا بذخية متعالية، كل معارفنا كان عندهم خدم وسائقون وحدائقيون ونساء لغسل الغسيل والكوي منهم من كانوا معروفين. أحمد (أحمدنا)، حسن الديريليكس ومحمد الـ: "فهوم" كانوا يتمتعون بصفة "تاليس مان" (تاليس مان يطلق على أشياء تحمل دوماً لتحمي من الحسد أو الطوارئ السيئة) لا أعرف الاسم العربي.

يتصدرون طعامنا اليومي كالحديقة أو المنزل وكأنهم ملكنا.

مثل خدم عائلة تولستوي Tolstoi تربينا على أن لا نتقرب منهم، لا نتكلم ولا نمزح معهم. كنت أشعر بالتحدي أن أتخطى هذه الحدود. أتذكر أني تصارعت مع أحمد وتحدثت مع حسن عن معنى الحياة الأعمق وعن الديانات وعن عزيز عن السيارات والسائقين، ما لاقى تعنيفاً من أهلي.

كان لي الانطباع أن الفروق بيني وبين الخدم قليلة حيث كنت أتعرض مثلهم للمراقبة ما كان يجري بشكل مخفي، أحاديثي معهم أعطتني شعوراً خيالياً بالراحة والحرية وجعلتني سعيداً معهم. عائلتنا تحدثت في محل المواد الغذائية لـ: "غروبي" مع صاحب المحل والمستخدمين بصعوبة جمة باللغة الفرنسية وبعذاب رغم كل الوضوح أنه كان من الأسهل التحدث باللغة العربية. كنت فخوراً بوالدتي حين تكلمها اللغة العربية وكانت الوحيدة في محيطنا التي كانت تتقنها بينما كان التحدث باللغة الفرنسية يحظى بالتقدير ومكانة أعلى ويدل على مستوى أعلى.

سمعت مراراً الحديث باللغة الفرنسية سواء الـ: GPS أو معهد فكتوريا أو في النادي وما شعرت بالثقة أن أتكلمها رغم فهمي الكامل لها. كانت الإنكليزية

لغتي الرئيسية وإهمال اللغة العربية في المعهد كان مثل إهمال اللغة الفرنسية. شعرت بنفسي ضائعاً دون وضع قومي أتكلم لغته. اللغات الثلاث أصبحت لي في سن الرابعة عشرة مشكلة معقدة. اللغة العربية كانت ممنوعة وككناية (يستعمل هذا التعبير في أوربا ويعني قرباطي أو نوري) الفرنسية كانت لغة الآخرين، وليست لغتي، أما الإنكليزية فكانت مقبولة لكنها كانت لغة المستعمر.

منذ ذلك الوقت وأنا أتلخبط بين اللغات الثلاث ولكل منها ميكانيكية خاصة تعجبني.

حين أتكلم العربية أبحث المرادفات (باللغتين الأخريين) والعكس عندما أتكلم الإنكليزية أربط الكل ببعض كما ترتب الحقائق في صندوق السيارة. الآن وبعد الستين أشعر براحة أكثر لا أشعر بالضغط أن أترجم أو أكتب لكن ليس بشكل ما إذا كان المرء يتكلم ويكتب بلغته الأم.

اليوم أتغلب بفعل الغربة والتربية والبعد عن فراق اللغة العربية وأولع بها. معهد فيكتوريا ونادي التوفيقية اللذين انتسب والدي لهما في عام ١٩٤٩ وسعا معرفتي باللغة الفرنسية، أعضاء نادي التوفيقية شكلوا خليطاً من يونان، فرنسيين، إيطاليين، مسلمين، أرمن، لبنانيين، تشيكيين، ويهود بعكس نادي الجزيرة. كان يقع في منطقة عمالية صناعية شرق الزمالك على الضفة الأخرى من النهر، دون بولو، أو كرة قدم، كريكيت وغير ذلك مثل نادي الجزيرة وعوضاً عن ذلك كان فيه عشرون ملعب تنس وحوض سباحة كبير وبالطبع طاولات بريدج.

كثيرون من أصدقائي في معهد فكتوريا كانوا في النادي كلود وأندري سلامة، سيتتون، محمد عذاب، ألبرت كورونيل، ستافي سالم، وحيث كانت

اللغة العربية تستخدم فقط للحديث مع "الجرسونات" المرهقين، لازالت كلمات الفرنسية باقية في أذني مثل التحيات وكلمات أخرى ممنوعة (تحت الدست كما يقال بالعامية):

Figuretoi, Ferme ta Gueule, Je renre en ville, va te faire pendre, Cretin je suis esquinte, je creve.

خلف الستار ستار المرح والمزاح والصخب أمام رجال ببنطلونات قصيرة ونساء ببذلات سباحة صغيرة الحجم شعرت ضمناً بالقلق حيال التطورات في مصر. البلد لم يعد يظهر حسن ضيافة للأجانب وخاصة المتميزين مثل رواد نادي التوفيقية الذين يعيشون بعيدين عن الأحداث غير مهتمين بما يجري يعيشون حياة ليست عربية، ليست إسلامية، وبنفس الوقت ليست أوربية مرتبطة بالكماليات والخدمات الشرقية. الكلام العربي الوحيد الذي سمعته ذلك الوقت كان الأوامر التي توجه "للسفرجيين" النوبيين بجلابياتهم، العرق يبدو على وجوههم يجلبون الليمونادة أو riz financiore رجوت والدتي أن نطبخ طعامنا أحياناً في البيت فرفضت. يجهدون أنفسهم من أجل راحتنا على أطراف المسبح نلهو ونمرح غامقي اللون من الشمس أنا وكوكو حكيم وأصدقائه.

قلاقل عابرة، ملونة بروح عدائية ضد مصر مكان مشهور بالضيافة والاحتفاء بالأجانب ومنفتح وكأنه الجنة يتمتعون بالأشياء المريحة وخضوع (أو انصياع) المصريين من أجل راحتهم..

في منتصف الخمسينات عندما كنت أدرس في برينسيتون أخبرت جريدة تايمز أن إسرائيل قامت بحرق دور سينما ومكاتب مرتبطة بأمريكا والمترو ومركز يوسيا USIA حيث كانت تعمل ليلى أبو فاضل ابنة جليم شريك

والـدي في لعـب التـنس، قامـت بـذلك للتـأثير علـى علاقـات ناصـر بالولايـات المتحـدة. كانـت القـضية قـضية لافـون Lavon يهـودي مـن الجاليـة اليهوديـة القاهرية الذين عرفتهم من نـادي التوفيقية. أكد ذلـك تنبـؤاتي يومهـا في أيام النادي ذي الجو الصعب والمريح في نفس الوقت وكانـت نهايـة البدايـة لجمعنـا من شوام ويهود وأرمن وآخرين غيرهم، رويداً رويداً بدأوا يختفـون، مـنهم مـن توجـه إلى إسـرائيل وآخـرون إلى أوروبـا وإلى الولايـات المتحـدة. بـدأ انحـلال الجالية الليفانتينية القاهرية عندما تنبأ البعض بالأحداث الآتية.

آخرون توجب عليهم مغادرة البلاد إثـر حـرب الـسويس وغيرهـم بـسبب حـرب الـ: ٦٧ دون سينت في جيوبهم. معهـد فكتوريـا ودائـرة أصـدقاء أهلـي كـانوا كلـهم لا يهتمـون بالـسياسة. رمـوز القوميـة العربيـة ورمـوز الناصـرية والماركسية ظهروا بعد ست سنوات بينما كنا أسرى خيال الفلسفة الإنكليزيـة والتعليم الإنـكليزي، لم تكن القاهرة قبل ذلك العهد أكثر عالميـة. في لـوج أهلـي اسـتمتعنا بفـصل الأوبـرا الإيطاليـة، باليـت الـشامبس إليـزي، الكوميـديا الفرنـسية، في ريفـولي استمتعنـا إلى كـرواس وفـورتفنغلر وفي قاعـة ايفـرت Ewart إلى كيمبف وكورتـوت Kempf, Cortot في المعهـد عـشنا إلى جانـب الدروس الإنكليزية حياة أخرى مع تبادل كتب طـرزان وكونـان دويـل. أدخلنـا المعلم مستر غاتيلي في عالم ميكاه كلارك Micah Clarke تعمقـت والـصديق حمد الله في قصص شيرلوك هولميس Sherlock - Holmes ومثّلنـا بالتنـاوب ميكروفـت، ليـسترادي ومورياتي Mycroft, LESTARDE, Moriarty وأخيراً اكتـشفنا وود هاوس وجيفس Wodehouse, Jeeves وعلى الأخـص فتحت لنا قصص طرزان آفاقاً لعالم جديد.

"جلدك ملس مثل حيزات الحية" قال أحدنا وأجاب الآخر أفضل من شكل تانتورس الضخم مع آرثر دافيوسون أجريت مناقشات طويلة حول عالم كابتن مارفيل. "هل ماري مارفيل جاذبة جنسياً ، كلا أجاب "؟ لابد ... من حديد .

حول مارفيلس ومن خلفهم وأقاربهم تحدثنا كثيراً أكثر ما تحدثنا عن عوائلنا .

تمتعنا غاية المتعة بالكوميك البريطانية Boys Own, Billy Bunter, Georg Formby Sexton Blake Gobbers

تخيلت عالماً مثالياً شيئاً بين فوضوية وقسوة المدرسة وبين كوبيرس الأسترالية التي يقطنها BoysOwn عالم بعيد عن فكتوريا كولج .

الإدارة التسلطية للمعهد ألفتها دائماً بشخصية الناطق باسم الطلاب "شلهوب" (عمر الشريف). عندما دُعي صفنا كمشاهدين أو بالأحرى طُلبنا لحضور لعب كرة ختامي بملابسنا العادية أزعج مظهرها وأغضب طالب الصف الأعلى السادس الشاب الشديد الأناقة بلبسه ، تخطى الأطراف الجانبية عبرنا وسلك سلوك الملك كمن يفحص حرس الشرف .

وجهه لم يستطع إخفاء استنكاره مع خطواته الجلالية المتعجرفة بقرنفلة كبيرة بثقب الزر وأحذية سوداء لماعة وكرافات بخطوط براقة أعطى مثلاً لناطق متعجرف . في هذه اللحظة صاح حمد الله : كابتين شلهوب أنك تظهر اليوم جميلاً ، ليتوقف شلهوب وأعطانا إشارة أن نتقدم ونتبعه . قمنا بإهانة صاحب الجلالة . شلهوب اصطحبنا إلى غرفته الرسمية قرب المسبح .

بعد ما ضربني على الوجه مرتين أخذ يدير ذراع حمد الله على ظهره إلى أن اشتد الألم وأنذر الذراع بالكسر ، لماذا تفعل ذلك كابتين سأله حمد الله

ليجيب شلهوب بلغة إنكليزية نظيفة "لأنني أرى في ذلك سروراً بالغاً". الذراع لم ينكسر وأصاب شلهوب الملل وأمرنا بالعودة قائلاً لا أريد أن أسمع منكم صوتاً. لا أذكر أني رأيته بعد هذا الحدث عن قرب ما عدا يوم آخر يوم في المعهد عندما احتفلنا بنهاية العام الدراسي بحضور شخصيات بريطانية. بين الشخصيات البريطانية كان روي شابمان أندريو roy Chapman -Andrrews شخصية معروفة من وزارة الخارجية البريطانية دل على علو منصبه المراسم البالغة التي أحيط بها وما كنت أقدر الحدث، انطلق المسؤولون في المعهد من الافتراض أنه على المصريين أن يقدروا علو منصب من يشرفهم بزيارته من خلال الحفاوة التي يبدونها تجاهه حتى لو لم يعلن عن منصبه، ما كان على كل حال لا يهم المحليين. شلهوب وقف على المنصة وألقى كلمة مقتضبة لكنها برأيي مبالغة "كمن يمسح الجوخ" لحصولنا على الحظ الكبير والسعادة أننا استمتعنا بالتعليم الإنكليزي وبالحضور المشرف لشابمان أندريو، تلت ذلك هتافات صاخبة بقيادة شلهوب بينما مرافقه بسانو يقف إلى جانبه كحرس خاص. عن شلهوب سمعت بعد حوالي عشر سنوات أنه تحول إلى عمر شريف زوج فاتن حمامة والذي شرف الولايات المتحدة بتمثيله دور دافيد لنس عام ١٩٦٢ في دور Lawrence of Arabia والداي كانا منفعلين بل تنبأ المصير المجهول عندما كانا يريان عدم اهتمامي بالمعهد وعدم قدرتي على مدى بعيد بتقديم إنجازات وعدم اهتمامي باقتراب الفحص.

في ربيع عام ١٩٥٠ كنت غير مبالٍ بالمعهد وما كنت أحمل هموماً بما يتعلق بمستقبلي حيث ما كنت أعاني القلق. كانت مشاعري تجاه عائلات قريبة

أو بعيدة ما كانت حيث توجب أن تكون. من جهة كان ارتباطي العام بوالديّ وأخرى هموم تعلقي المرضي بالوالدة وعلى العكس ما كنت أشعر نفس الشعور تجاه بقية أفراد العائلة القريبة والبعيدة والإخلاص ما لحظته لدى الغير. وكان لي موقف آخر ما كان باستطاعتي تغييره أو تخفيف حدته. رغم ذلك أحببت أولاد عمي "مهما كانت طبيعة علاقتهم بوالدي" والأمر كان نفسه تجاه عمتي نبيهة رغم أن علاقتها بأخيها والدي لم تكن على أحسن وجه وغير متمتعة بأقل الواجبات ما كان يغضب والدتي.

بدا لي أني لا ألقي مؤازرة من عائلتي وتصورت أنهم كانوا أفضل في الماضي وإني فقدتهم ما عدا العلاقة بوالدتي التي اعتنينا بها وما تركناها تنحل. أثناء دراستي في معهد فكتوريا كان الفصل كلياً بين حياتي السطحية في المدرسة وبين حياتي الداخلية المعقدة الضامنة، متأثرة بالموسيقى والكتب والذكريات مخلوطة بالخيال. بدا لي وكأن وحدة "أنا" لشخصياتي المتعددة تم تأجيلها رغم ثقتي أنها آتية لا محال. مع جورج، مصطفى، سمير، آندي، بيلي، آرثر وكلود كوّنا ما يشبه مجلساً استشارياً عذّب المعلمين وترك التعليم جانباً. تجمعنا في المدرسة لأننا كنا نسكن بعيداً عن بعضنا البعض أحياناً كنا نلتقي في السينما أو في نادي التوفيقية. كنا جيلاً شاباً لنعيش في المقاهي والحشيش كان نادراً وصعب المنال، عوضنا ذلك بالتحشيش البذيء ما كان سائداً بين المحششين وكان ذلك تعبيراً عن الفشل والغباء.

قضينا الوقت بالمدرسة بين الدروس قرب مكان بيع الحلوى أو في صالة الطعام كمشاهدي لعب، للمدرسة لم تكن مقاييس ثقافية لانتقاد تطورنا.

كان انطباعي أن التقويم تم حصره. أمن لي هذا تخفيف عبء غريب أن أبقى ما أنا دون ضغط أن أتحول لأحسن. النتيجة كانت حياة غريبة دون مبادئ أخلاقية المختفية تحت السطح. لا أذكر محادثة ذات مغزى مع معلم أو طالب أكبر سناً خلال سنواتي في المعهد، حياتي الشخصية كانت مغلقة (يقصد كما يغلق الراديو أو زر الكهرباء[1]). تواجدت كأحد طلاب الصف الخامس الوسطي ثم الصف الأعلى وما تبقى ما كان مهماً.

دريليكس كانوا مراراً ضيوفنا وما كنت أجد سبباً أن لا أكون منفتحاً مثلهم للذهاب للمطعم، أو للمقهى لشرب الشاي، أشعُ رضاً وانبساطاً ما لم يكن له أثر في عائلتنا. أندري كان دوماً جاهزاً للمغامرات ساقاه كانتا مليئتين بالجروح من تسلقه جدران البحر الأحمر. لوريس كان دوماً معتنياً بلباسه وكنت أتمتع بالنظر إليه كيف يقسم الدجاجة بالسكين والشوكة كجراح. رينيه كان دائم الاستعداد للذهاب للسينما أو للنزهة. نمط حياتهم فوق العادة صاحبته شائعات أن الصيدلية التي يدير أعمالها لوريس وأخوه التي ورثوها عن والدهم، تسجل خسارات رغم موقعها المميز في شارع قصر النيل لأنهما لا يعتنيان بها كفاية، لكن هذا لم يعكر علاقتنا حتى نهاية الخمسينات حين بدأ لوريس يعمل للأمم المتحدة في الكونغو وتوفي هناك في صيف ١٩٦٢ فجأة ما أحزن الكل. بنهاية الربيع تم ترميم بناء المدرسة، من أين أتت التكاليف لا يعلم أحد. والبناء في شبرا الضيقة الوسخة كان مبالغاً وكبيراً بأحسن جودة

1 التوضيح مني ليس في الكتاب.

على الطرف الصحراوي من المعادي حيث يقطن أجانب وذوو الطبقة العليا وكنت أعرف أغلبهم من مدرسة CSAC.

وفجأة تبين لي اننا على نهاية مرحلة فاصلة في وقت زادت فيه التحديات وأحداث مفاجئة. تضامننا في المدرسة ما قام على أسس عائلية أو اجتماعية بل على كم من المستوجبات المدرسية تواجد في البدء زي موحد، قبعات، كرافاتات، قيود تبددت في شبرا كقيود جمة فيما يخص الكتب والدفاتر والحقائب المدرسية والأقلام وكل الأدوات القرطاسية وغيرها.

أكثر اهتماماً كانت أدوات لعب كالـ: (الكرات البلورية الصغيرة كنا نسميها في حلب "جلال"[1] (لا أعرف الاسم العربي) وسكاكين الجيب الممنوعة لكنها متواجدة في الحقيبة. مضارب تنس، سيارات لعب صغيرة ولازلت أحتفظ بسيارة صغيرة كسبتها في مسابقة. إضافة إلى حناجير عطور مصرية، حلقات تشبه المسبحة، محايات، مطاطات (لصيد العصافير) كتب وصور جنسية سيئة الطبع والشكل بذيئة المشهد كان دافيدسون يحصل عليها من حارس موقف سيارات.

عالمنا الثقافي ما كان يسيطر عليه جو تنافسي رغم التأكيد على الأغلاط والنواقص، إنجازاتي كانت غالباً مرضية بغض النظر عن فترات كانت فيها فوق العادة، لما زاد التعرف عليّ كناقد أدبي، قال أحد زملاء الصف "هل هو سعيدنا"، كان مثلنا جميعاً يا للعجب ما نتج عنه.

أتعجب حتى اليوم إلى أي قدر ضئيل كان عالمنا الثقافي مهتماً بجدية بالثقافة بمعناها الحقيقي كانت مناهجنا مقتصرة على الكلام والتفكير الجماعي،

---

1 جيم مصرية أو GLAL

على الأفلام، "والكوميك"، ودفاتر تسلية ودعاية وروايات شعبية على أخفض المستوى كل ذلك متأثر بالمذهب والعائلة.

أفضل ما قدم لنا كان فيلمين دينين عن مقدسين فرنسيين برناديتي فون لـ ورد ويوحنا فون أورليانس Bernadette von Lourdes, Johanna von Orleans Jenniver Jones, Ingrid Bergman وجنيفر جونيس وعرضاً محذوف الأجزاء لانغريد برغمان.

شاهدت فلم برناديتي ثلاث مرات في سينما ديانا التي كانت تخص عائلة يونانية، موقع السينما كان في نهاية شارع عماد الدين شارع ليس عصرياً وما كانت ديانا لتضاهي سينما ريفولي الأشهر في الشرق الأوسط. علامة ديانا أنها كانت تعرض إلى جانب أفلام ضعيفة المستوى عروضاً طويلة لأم كلثوم وأحياناً عروضاً لأعمال خيرية استأجرت إحداها عمتي نبيهة في أعمالها الخيرية للفلسطينيين مستخدمة فلم "ذي ليتل كولونيل The Little Colonel الفلم الوحيد لـ: Shirley - Temple الذي شاهدته وكرهته لعنصريته.

يوحنا وبرناديتي الأمريكيان Bernadette al, americaine أوحيا لي بالتعمق في المنابع الأدبية التاريخية التي وجدت غالباً على رفوف كتب والديّ.

قرأت كتباً لـ:

Franz Werfels (Lied Von Bernadette): Vierzeg Tage des Musa Dagh تبع ذلك كتباً لشيسيترتون Chesterton و"كانت هيلاري War es Hilaire Bellock ولهارالد لامب Harald Lamp عن عذراء أورليانس.

في خريف ١٩٥٠ أخذنا الباص باكراً أكثر من الاعتيادي إلى المدرسة وكان طريق المعادي أعرض من طريق شبرا ، رؤيتنا من بعيد بناء مدرسة في فترة الإنجاز ، أيقظ فينا آمالاً كبيرة . ثلاثة أبنية كانت في شهر تشرين الأول جاهزة لنا . كانت أبنية حديثة مربعة الشكل تقوم على أعمدة وصفنا كان له نوافذ عريضة مقابل قاعة الطعام وصالة الرياضة بجوار مبنى لمدرسة داخلية وقسم مرضي ومساكن للمعلمين . إلى جوار المبنى الرئيسي كانت أبنية الإدارة .

الساحة كانت كبيرة حيث أنها تقع بقرب منطقة صحراوية تضم عدة قاعات رياضية وتنس إضافة لإسطبل خيل وطريق لممارسة ركض الخيول . باختصار كانت أفخم وأكبر مدرسة شاهدتها في حياتي ، نزلنا من الباص مع الشعور أننا أمام بداية جديدة .

بعد خمس دقائق فقط علمنا أن المدرسة لا تعني تحسناً لنا . مستر غريفيتس Griffiths بأعينه المشابهة للأزرار والـ "بابيون" (الربطة الأخرى للعنق غير الكرافات ، لا أعرف الاسم العربي تسمى أيضاً في ألمانيا فراشة) معلمنا الجديد للرياضيات والهندسة وهو في نفس الوقت وكيل المدير . تحول إلى Bete noire وحش أسود بالنسبة لي وأحكامه القاسية تجاهي بقيت في ذاكرتي حتى بعد خروجي من الكولج .

البناء الجديد كان هائلاً ومتحدياً مستفزاً ما ضاعف ابتعادنا وزاد من روحنا العدائية . وكانت هناك تغيرات أخرى . دون جهود جورج قرضوشي التوسطية الذي اختفى إلى مدرسة هليوبوليس تفرعنا إلى تكتلات صغيرة . معلمنا الجديد في اللغة الإنكليزية مستر "لوفي" كان وقحاً وضعيفاً وغير

مؤهلٍ. في قاعات الدروس الجديدة خلف اللوح كانت توجد غرف صغيرة تحفظ فيها طباشير وكتب تمرينية وغيرها من المواد. كان للباب جنب اللوح قفل وتحت اللوح باب سحاب وكانت لي فكرة أن أحجز لوفي فيه، أعرضه لفرجة مقابل خمسة قروش كتبت هذا على اللوح وبين ضجة الطلاب وعياط لوفي وضع المراقب حداً بتدخله وللقيام بواجبه أخبر غريفتيس بالأمر الذي واجهني بغضب عيونه في درس الرياضيات فوضى كبيرة كانت البارحة في الصف قال موجهاً كلامه لي. بعد أسابيع طلب غريفتيس والديّ مخبراً إياهم أن ذكائي وحده يقف عائقاً بين طردي من المدرسة. وللعجب أن يعتبر معلم أن تلميذاً وقحاً يهدد استقلاليته.

تراكم الأبنية في شبرا التي جمعتنا مع صفوف أخرى، أزالت التباعد المكاني. المعلمون بدأوا بتجوال تفتيشي في الممرات ما كان في شبرا بنظامها غير المركزي غير ممكن، واتضح الأمر "أنه في تخطيط البناء" أن التفتيش المنظم كان ضمن التخطيط وليس المصلحة أو الأفكار التربوية. لم يدم الأمر أكثر من شهر حتى بدأت أشعر بالمضايقة. الطلاب الأكبر ضايقونا في الممرات، هاجمونا، أهانوننا، أحدهم كتلة بشرية بوزن ١٥٠ كغ بيلي فوزي طور بغضاً غريباً غير واقعي ضدي ما جعلني أتجنبه دائماً الأمر الذي لم أستطعه كل مرة حيث أغلق الممر بكتلته.

مرة أمسكني من رقبتي بيده الضخمة وقال سعيد أنا أراقبك بلغة عربية، لا تحاول التملص مني لا تحاول أن تكون وقحاً والوقاحة هي خطيئة كبرى ما اتهمنا به المعلمون والتلاميذ الأكبر سناً.

كابتين بيلي كان أسوأ من ضايقني واعتدى عليّ. الآخرون ما كانوا لي أسماء بل كتل بشرية تكلموا العربية فقط. لسبب لا أعرفه استهدفتني هذه الكتلة بمؤازرة المعلمين الذين أعطوها صفة كتلة نظام حلت محل شلهوب. اعتبرت كتلميذ يقظ متسبب دوماً في مصاعب ومتفوق نوعاً ما وهكذا وجدت نفسي أثناء الفحوص محاطاً من تلك الفئة فرضوا عليّ أن أكتب لهم وظائفهم فيما يتعلق باللغة الإنكليزية. الجزرة كانت سعيد ابقَ ولداً لطيفاً وأكثر فاعلية. كان "الكرباج" (افعل ما نريد وإلاّ ؟؟ أمك). وهكذا توجب علي "دوماً كتابة وظائفهم".

جبن وانصياع كانا للبقاء في عيد الميلاد كل سنة كنت أذهب ووالدتي إلى مصر العليا لبضعة أيام لنزور وادي الملوك، الكرنك، وأماكن أخرى أثرية تعرفت على آثار مصر القديمة وبقيت راسخة.

كانت الأيام القليلة استراحة من مشاكل المدرسة والمدينة الكبرى وكان هذا الوقت أطول فترة أقضيها مع والدتي. في أيام بعد الظهر الطويلة وفي المساء كنا نقضي الوقت في صالونات فندق كارتاكت في أسوان نقرأ دون توتر، ومجادلات، دون برنامج، دون مواعيد ودون واجبات يجب إيفاؤها. مواهب والدتي الاجتماعية تجلت أكثر، ساعات هادئة منعشة غير معقدة معها شابها اعتقادها أنها يجب أن تعتني بالمعارف من الأمريكان الذين تعرفت عليهم.

أتذكر انزعاجاً عكر صفو تلك الأيام وأتذكر عذوبة الاستجمام والراحة بعيداً عن عناء ومتاعب فكتوريا كولج أياماً بقيت ذكرياتها لا تساويها ذكريات أخرى في حياتي رغم أنها كانت فاصلاً وبدء طردي من البيت العائلي. الأقصر وأسوان فترة وجيزة قبل العاصفة. في يوم خميس بعد الظهر

طلب منا مستر لوفي أن نخرج كتاب شكسبير وصرخنا بصوت واحد "نريد" سكوت" لم يتنازل وتقدم إلى الصف الأمامي بنزعة هجومية وأخذ ينهال ضرباً على من كان عليه حمايتهم فارضاً إرادته دون أن يهمه في الواقع شكسبير أو سكوت. بين الطلاب الغاضبين ظهر وكأنه شمشون في معبد الفلسطينيين لا يدري أين تقع الضربات، أخذ يلف جسمه الضخم على من يصل له متعرق الوجه حتى وجدت نفسي بين ذراعيه الطويلين وجسمه الثقيل فوق جسمي.

أنت الآن في قبضتي سعيد، بصق وقال سوف ألقنك درساً لا تنساه، رفع يديه ليضربني لينهال عليه أربعة طلاب بالضرب موجهين له شتائم باللغة العربية، صرخ واستنجد أن يتركوه بعد ضياع هيبته وتركوه. وما كاد يسترجع قواه حتى قبض علي ليدفع بي خارج الصف.

وقع نظري على مستر غريفيتس يقف على بعد ثلاثين متراً مني على باب غرفته يحدق بي دون أن يقول شيئاً. في اليوم التالي أثناء درس الرياضيات دخل غريفتس الصف وقال: "الآن سعيد" سمعت أنك كنت سيئ السلوك البارحة لم أجبه فصرخ لماذا لا تجيب سعيد وفقد السيطرة على أعصابه لأول مرة، أجبته يس سير، أجاب لا نجيز ذلك، لا نجيز ذلك نوسير، نوسير ليقول عليك أن تذهب، اذهب الآن سير، اذهب لا يعنيني إلى أين تذهب، اذهب.

حزمت حقيبتي الممزقة الأجزاء إثر هذه المفاجأة بينما ساد سكوت جامد على الآخرين ملقياً نظرة على صديقي حمد الله بوجهه الحزين الانطباع. مشلول ومميز فقدت حلقة الأصدقاء لم أعد مرغوباً في المدرسة خائفاً من استقبالي في البيت، دون نقود، دون أمل لمستقبل ما عدا بطاقة سفر قطار لا

أعرف كيف تواجدت في حيازتي. شعرت بنفسي غير مرئي بينما جلس غريفس على كرسيه غير عابئ ينتظر خروجي. لا أتذكر طريق الثلاثة كيلومترات إلى محطة القطار والأقنية التي تخطيتها ملقياً بعض الحصى في الماء، وصلت الساعة الواحدة والنصف للبيت، قبل ذلك تسكعت في باب اللوق وفي الإسماعيلية عبر جسر قصر النيل ماراً بـ: حديقة موريش وطريق رياضة سباق الخيول في نادي الجزيرة خمسة كم بعيداً عن محطة القطار. كنت أشعر وكأني بلا جسم محرراً معتوقاً من كل شيء، من واجبات ومهمات، من كل ثقل. ما شعرت بنفسي أتي خطر دون توجيه أو قيادة مثل تلك الفترة، بعد سنوات مليئة بمخططات زمنية، مهمات ووظائف وأعمال منزلية ذهبت للبيت دون هدف وكنت أدري أني يجب أن أصل للبيت.

قرعت الجرس كوني لا أمتلك مفتاحاً للبيت بغير العادة لأن ذلك كان من مهام الخدم. فتحت والدتي الباب لتصرخ ادوارد ماذا تفعل هنا، ما هو الأمر، هل أنت مريض، منهكاً، حائراً، صامتاً أدخلتني البيت. بينما كان والدي ينتظرني. وجهه كاد يغلي من تخوف ومن غضب. دون أية كلمة أخذني لغرفته وانهال علي بالضرب بكرباج ركوب الخيل. لم ينطق أحدٌ منا بكلمة ذهبت لغرفتي وغرقت في دموعي، الألم الجسدي صعد شعوري بالحسرة والضياع.

أسبوعين بقيت في البيت كخيال لنفسي بينما منع عني كتب، موسيقى، زيارة أصدقاء راضين عن هذا الوضع منتظرين أن ينزل غريفيتس من عليائه ويستقبلهم.

عندما غادا تكلميت والدتي وأعادت ما قاله غريفتيس وانطباعه السيئ عني "أنا من لا ينجز شيئاً" وأعبر عن أسفه كوني "بالغ اليقظة" ما يقف حيال

طردي الدائم من المعهد . مثل غريفتيس تبنت والدتي ذكائي المتميز ما تبقى لي واعتبرته عائقاً أمام تحسن سلوكي وطبيعتي السيئة وعنادي الشرير أو على الأقل عدم أخذي الأمور بالاعتبار . قبل غريفيتس بعودتي شرط عدم التساهل بسلوك سيئ يراه . وعبر عن رأيه أن مستقبلي كتلميذ وطالب ضمن النظام الإنكليزي مجهول . سوف يعطيني نصيحة أو توصية غير ملزمة إذا بقيت وأردت إجراء فحص : GCE الذي يؤهل تلاميذ مدارس إنكليزية للانتساب إلى جامعة أكسفورد وكامبريدج .

والدي كان اتخذ إجراءات تحضير سفري للولايات المتحدة رغم عودتي لمعهد فكتوريا دون علمي بذلك.

أبلغت بشكل رسمي أني يجب أن أغادر مصر لأني حسب قانون الهجرة الأمريكي حصلت على الجنسية كون والدي أمريكي الجنسية وكوني لم أولد في الولايات المتحدة ، يتوجب علي قبل الواحدة والعشرين من عمري أن أقطن خمس سنوات في الولايات المتحدة لأحصل على الجنسية الأمريكية بشكل دائم . بلغت في شهر تشرين الثاني السادسة عشرة من العمر ولهذا السبب يبدو الانتقال للولايات المتحدة شديد الضرورة .

اعتقد والدي أنه بإرسالي إلى معاهد محصورة على الذكور مثل Mount Hermon, Princeton وبعد ذلك برينسيتون ينشلني ليس فقط من مزاولتي العادة السرية بل أيضاً من شعوري بكماليات الحياة التي آزرتها والدتي بالتغاضي وعدم الاهتمام . بينما تعودت تدريجياً على مخطط والدي أن أرحل في ربيع ١٩٥١ إلى الولايات المتحدة ، تلقى والدي بطاقة بريدية من أخيه

الأصغر داويد الذي اعتبر مفقوداً منذ سنوات منذ أجبره والدي في عام ١٩٢٩ على مغادرة مصر بسبب حياته الجانبية الفارغة المحتوى. كان رحل إلى البرازيل ثم اختفت آثاره. بطاقة داويد بخط طفولي أتت من لورد Lourdes وكتب فيها أنه شفي وسوف يأتي للزيارة. بعد أسبوع وصلت بطاقة ثانية تحوي رقم رحلته وموعد وصول الطائرة إلى القاهرة. كان غامق اللون نسخة أكثر ضخامة وحركة من أخيه وديع بشوارب أمريكولاتينية. ميزاته الغرامية وخصائصه خاصة تجاه النساء كانت لا تقاوم التي كانت كما علمت سبباً لتهجيره من مصر.

لغته كانت عربية قديمة مشوشة ممزوجة مع كم من الكلمات الأمريكية. أعجبنا بسلوكه غير المعقد والمفتوح، اقترب منا جميعاً ومن كل الأطفال، سكن معنا في البيت وبقي شهراً في القاهرة.

لم يفعل الكثير لكنه أقنع والديّ أن يقضيا مع أختهم أكثر الوقت ويتحدثوا عن أيام الطفولة في القدس. الأوضاع النفسية كما في دوستويفسكي Dostojewski التي افترضتها في والدي ولم أكتشفها، كانت لديه جلية واضحة، حزن، براعة لسان، تبدل سريع مفاجئ للأوضاع النفسية من شغف إلى انطواء عميق حافظ على السيطرة عليها تجاه أخوته ليس كلياً.

استطلعت ماذا عمل في البرازيل من عمل في كهف استخراج الماس إلى عمل كمرشد سياحي مثل والده. لعب القمار وشرب الكحول وتمتع بالنساء، تجول بالريف. أهدانا كيس جلد مليء بأنواع مجوهرات قليلة الثمن لكنها تعطي صورة عن رومانتيكية قارة بأكملها، أصبحت صديقاً له ناداني "يا ديني"

بنطق غير معتاد . في وقت لاحق بعد سنوات تأكدت أنه بشخصيته الغريبة الغاية السرية، الغامضة، يذكرني بشخصيات روائية مثل يوسف كونراد Josef Conrad أو بـ: كانيغهام غراهام Cuningham Graham بعكس والدي الذي يمثل رجلاً ريفياً عريقاً .

في النهاية عاد إلى البرازيل، في شهر أيلول عام ١٩٦٧ التقيت به لمدة ساعة في مطار نيويورك حين كان في مهمة سرية غامضة يرافق فرقة كرة القدم البرازيلية.

عندما زرت عمتي نبيهة في ربيع ١٩٧٢ منهكة بمرض السرطان قبل وفاتها اكتشفت سيدة "عديلة" وطفلاً معاقاً صغيراً ربما كان متبنياً . الحزن ساد حياة نبيهة في أيامها الأخيرة عندما نظرت للوراء لأطلال العائلة الموزعة وماضيها البطولي وأوضاع الحياة في عمان التي ما كانت لتقدم لها أية مساعدة . هناك توفيت في أوائل شهر نيسان نفس اليوم الذي اغتالت فيه إسرائيل كمال ناصر في بيروت .

لاحظت لدى داويد ، نبيهة ووالدي خليطاً مزيجاً من الرحيل، اللجوء ، العودة القصيرة، وتفهمت أكثر محاولات والدي بمزيج من دواعٍ خفية، مشاعر قوية، وتصميم فكتورياني أن يؤمن لعائلته مستقبلاً آمناً وحياة سعيدة . كان يقول لي : "إذا كان مفيداً لتعليمك أعمله" منذ ذلك الوقت وأنا أجرب ماذا كان يعني بـ: "إذا كان" ، هذا الكتاب يجلب البرهان الآن أولاً ولعقود بعد وفاته أتلمس جانبي إرثه الشديدي الارتباط ببعضهما البعض،

اضطهاد وتحرير، يرتبطان ببعضهما بطريقة غامضة أبداً بتقبلها دون أن أفهمها كلياً .

بعد حرب السويس في عام ١٩٥٦ أمم معهد فكتوريا وتحول اسمه إلى : معهد النصر Victory college لم تعد لي علاقات حتى سافرت لمصر مع عائلتي برحلة محاضرات في عام ١٩٨٩ أردت أن أريها المعهد الذي طردت منه.

في صباح يوم جمعة في منتصف شهر آذار سافرنا بالباص إلى المعادي عبر طريق مدرستي القديم وخاب أملي عندما رأيت مباني سكنية تنتشر بين المدرسة والرمال. تعج بالناس، الغسيل المعلق، سيارات، باصات، حيوانات، المدرسة كانت بسبب العطلة مغلقة لكني أقنعت البواب أن يسمح لنا بالدخول. عندما وصلنا إلى صفي بدا لي أصغر مما عرفته أريت العائلة الرحلات والمنصة حيث موقع غريفتيس الذي طردني من المدرسة والمكان الصغير الذي حجزنا فيه المسكين مستر لوفي. في هذه اللحظة دخلت سيدة المكان بلباس إسلامي وأرادت أن تعرف ماذا نحن نعمل في المكان. حاولت شرح الأمر، ابنتي نجيلة قالت بابا استعمل لباقتك ما فعلته دون نجاح. كنا متسللين وبوصفها مديرة طلبت منا أن نغادر المكان. تجاهلت يدي الممدودة نظرت لنا بروح قومية عدائية مبالغ فيها وانسحبنا تحت تأثير المشهد. السمو البريطاني في مصر تحول إلى أمر قدسي إسلامي بامتياز طردت منه بعد ثمانية وثلاثين عاماً للمرة الثانية.

الفصل التاسع

في شهر أيلول ١٩٩١ بعد أربعين عاماً من مغادرتي الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة في لندن قبل قليل من انعقاد مؤتمر السلم في مدريد نظمت ندوة للمثقفين والناشطين الفلسطينيين. بعد اتخاذ الفلسطينيين موقفاً معاضداً لصدام حسين في غزوه الكويت، وجدنا أنفسنا أمام مصاعب جمة وفي موقف ضعيف. هدف الندوة كان التحضير لقائمة عمل تفيدنا في طريقنا كشعب لتقرير المصير. المشاركون جاؤوا من كل الأماكن الفلسطينية، من الضفة الغربية من قطاع غزة ومن أماكن اللجوء من مختلف البلاد العربية، من أوربا وأمريكا الشمالية.

تحولت الندوة لخيبة أمل أعيدت فيه الحجج المعروفة وأظهرت عدم قدرتنا على اتخاذ موقف موحد وسمعنا فقط بعضنا بعضاً. باختصار ما نتج عنه غير التنبؤ بأن القضية الفلسطينية سوف تفشل في أوسلو. في فترة استراحة خابرتني زوجتي مريم من نيويورك لتسأل عن نتيجة فحص الدم الذي أُجري لي في نطاق فحص سنوي، قالت كنت مهمومة بنتيجة فحص الكوليسترين، أجبتها كل شيء على ما يرام أجابت بتلكؤ شارلز هاتزاي (طبيبنا العائلي) يريد أن يتكلم معك ريثما تصل للبيت. شيئاً ما بصوتها أقلقني ما دعاني أن أتصل فوراً به في عيادته.

قال ليس ما يقلقك، سوف نتكلم في نيويورك عن ذلك. وما كان ليتحدث معي بصراحة، ما ينقصني نفاد صبري. قلت له شارلز يجب أن تخبرني بالحقيقة، أنا لست طفلاً ولي الحق أن أعلم ذلك.

بعد جملة تهديات قال ليس ما هو كثير الأهمية، طبيب اختصاص بأمراض الدم سوف يعيد الأمور إلى نصابها وأفصح بالنهاية عن مرضي وهو: لوكيميا لمفوية مزمنة "CLL".

احتجت إلى أسبوع لأتجاوز الصدمة الأولى عن تشخيص المرض: التشخيص النهائي يحتاج إلى مستشفى كبير مختص بتكنيكية متطورة وسوف يكون ذلك في مركز أمراض السرطان في نيويورك. بعد شهر آخر استوعبت مدى تسلط هذا السيف على رقبتي ومضت ستة أشهر أخرى حتى وجدت الطبيب "كانتي راي" الذي كان يهتم بأموري منذ عام ١٩٩٢.

بعد التشخيص بشهر فاجأت نفسي وأنا أكتب رسالة لوالدتي التي كانت توفيت قبل نصف سنة منذ غادرت القاهرة في عام ١٩٥١ حافظنا على هذه العادة، والحاجة إلى التحدث معها كانت أقوى من الواقع أنها لم تعد موجودة. هذه الحقيقة فاجأتني في منتصف السطر وخلقت لديّ حيرة وبلبلة وصدمة على ما يبدو إن إحساساً عميقاً بحاجتي للحديث معها حرك مشاعري.

هموم وقلق مرضي مع الـ CLL تسلط على حياتي أكثر مما كنت أتصوره. في عام ١٩٩٣ فكرت أن أُدخل بعض التعديلات على حياتي ولكن كما بدا لي سوف تكون أقصر وأصعب، فكرت أن أحول سكني إلى بوسطن إلى المكان الذي درست فيه وشعرت فيه براحة. ليزاولني شعور من أعماقي أني أبحث عن مكان

أموت فيه، مكان هادئ مقارنة مع نيويورك وتركت الفكرة. شهور من العودة، تجارب عديدة للعودة لمراحل في الحياة ولأناس لم يعودوا موجودين، كل ذلك كان رد فعل لتصاعد صعوبات مرضي. في عام ١٩٩٢ سافرت مع زوجتي وأولادي إلى فلسطين، بالنسبة لي كانت المرة الأولى بعد خمسين عاماً ولزوجتي كانت المرة الأولى. في تموز ١٩٩٣ سافرت إلى القاهرة لوحدي وبحثت بمناسبة زيارة صحفية عن أماكن محبوبة لي. خلال هذه الفترة كنت تحت رقابة غير مباشرة من دكتور راي الذي كان يذكرني بين الحين والآخر بضرورة العلاج الكيماوي.

عندما بدأت هذا العلاج في شهر أيار من عام ١٩٩٤ أصبح لي الأمر جلياً أني لم أصل لنهاية حياتي بل إلى مرحلة فاصلة مثل ما هو في حال آدم وحواء عندما غادرا جنة عدن، لا توجد رجعة إلى الحياة الماضية. في شهر أيار من عام ١٩٩٤ بدأت بتدوين هذا الكتاب.

هذه التفاصيل مهمة لي وللقراء علاقة فترة كتابة هذا الكتاب بفترات مرضي والتحولات التي جرت عندما زاد ضعفي الجسدي بسبب المرض تعرضت أكثر للعدوى بفعل نقص المناعة ما عدا الأعراض الجانبية لذا أتاحت لي فرصة تدوين هذا الكتاب إمكانية شيء أنجزه في خلال تحملي مشاق المرض والآلام مع الشعور بقرب الأجل. الكتابة تعني إضافة كلمة لكلمة مع تحمل وتجاوز المرض بخطوات صغيرة تفصل أمراً عن أمر آخر. أشكال أخرى لعملي قصص، محاضرات تعليم، محاضرات سياسية، صحافة، دفع كل هذا المرض جانباً وفرض عليه مواعيد وفترات في البدء وفي المسار وفي النهاية تخلل ذلك فترات علاجية وإقامات في المستشفى مصحوبة بآلام جسدية وروحية. أملى على هذا الوضع

متى وأين أكتب. والسفر أيضاً كان إنتاجياً حيث كنت آخذ معي المسودات أنّى ذهبت استعملت لهذا الغرض كل غرفة فندق كل مسكن من أصدقاء.

لهذا لم أكن مرة في عجلة أن أنهي مقطعاً رغم تصوري طبيعة موضوعه. للغرابة كانت كتابة مذكراتي تجري متوازنة مع مرضي رغم أن أغلب الأحداث جرت في حياتي السابقة.

الحديث عن حياة وعن مجرى مرض لا علاج له ما عرفته منذ البدء يرتبطان معاً يتساويان رغم اختلافهما. وكلما توضحت هذه العلاقة كلما بدت لي الذكريات أقوى مرتكزة على تفكير آثاري عن ماضي بعيد لا يمكن استرجاعه رغم زيارات متكررة أحيطت بكرم وحسن ضيافة.

رغم مصاعب المرض وتداعياته التي فرضت عليّ لأني غادرت أمكنة شبابي أقول مع الشاعر:

Nor in this bower, This little lime – tree bower, have I notmark,d/MUCH THAT HAS SOOTHED ME

حتى مطلع الستينات تخلل ذلك أوقات ما كنت أتحمل فيها ذكريات الماضي وخاصة القدس والقاهرة اللتين وبأسباب مختلفة منعتا عني. القدس أصبحت إسرائيلية والقاهرة سدت في وجهي لأسباب حقوقية ظالمة. حيث أني في السنوات بين ١٩٦٠ و١٩٧٥ لم يسمح لي بزيارة القاهرة تعاملت مع الذكريات بكل حذر ذكريات حياتي فيها ذكريات كانت مقطعة مليئة بالتفاصيل تنبثق عنها نسمات دفء عكسية تماماً لقسوة الاستغراب التي شعرت بها في حياتي في نيويورك واستغليتها كعون قبل النوم لأتمكن من الغفل ما كان على مدى السنوات في غاية الصعوبة. مجرى الوقت غذيّ

الذكريات جو من السعادة أحاطت حياتي الماضية التي كانت دوماً تبدو معقدة في أوقات عصيبة. لا أستطيع فهم هذا كله يجب أن أكون في غاية اليقظة أتجنب أحوال "نصف اليوم" أحياناً كان يخطر على بالي أن هذا الكتاب يدور حول الأرق وسكون الصحو والحنين لذكريات حية كتعويض للنوم، ليس للنوم وحده بل لعطلة واستراحة. لكل ما هو متاح للطبقة الوسطى والعليا ما حرمت منه في السنوات العشر الماضية.

كرد فعل على مرضي وجدت في هذا الكتاب وظيفة جديدة ليس كنوع جديد من الأرق بل كمجال بعيد عن حياتي المهنية والسياسية أبعد ما أمكن. دافعي العميق هو عوم "انا" الثاني الذي اختفى طويلاً تحت السطح، سطح رست تحت عوامل اجتماعية مقتبسة التي بنت "أنا" الذي حاول أبواي بناءه "ادوارد" الذي أعيد دوماً الكلام عنه. اصطحب ذلك عدداً من الأحداث التي طغت على حياتي من البدء أصابتها بالخلل. ما رافق حياتي أكثر ألماً من اقتلاع الجذور من بلدان ومدن، من مساكن، من لغة وبيئة ومحيط كل ما جعل حياتي دوماً في حركة وعراك. قبل أكثر من عشر سنوات كتبت في: After the last sky أني آخذ معي الكثير من الأمتعة في السفر وحتى إلى قلب المدينة كنت آخذ معي حقيبتي معبأة بأكثر ما هو محتاج. ذلك الوقت كان يتملكني خوف ضمني متحكم أن لا أستطيع العودة منذ ذلك الوقت اكتشفت أني استحدثت فرصاً للسفر لأزيد الخوف حدة. سفر وخوف كانا ضروريين لحياتي وعلاقتهما تضاعفتا بسبب مرضي بشكل دراماتيكي. كنت أقول لنفسي:

إذا لم تقم بهذه السفرة تضع حركتك تحت المحك، وخوفك أيضاً، يمكن أن يحل بك الضياع إذا لم تتنازل عن روتينية الحياة اليومية لن يكون ذلك باستطاعتك في المستقبل.

جو الوداع قبل السفر كان مألوفاً لي، جو: La melancolie des paquebots كما قال "فلاوبيرت Flaubert" جو محطة السفر والحسد نحو الباقين عندما أرى وجوههم في العودة غير مثقلين بالغربة والتحرك المفروض، سعداء مع عائلاتهم في بذلات مريحة ومعاطف ظاهرا بكل وضوح. غياب المسافر، المرء اختفى وربما يفتقد مع الشعور بالنفي والاقتلاع ما هو معتاد عليه. كل ذلك دفع على خلفية منطق علوي مفروض إلى ضرورة الوداع.

دائماً كان التخوف قبل السفر يرجع إلى شعور الفرقة وحتى لو كان المرء هو من يبتعد.

في صيف عام ١٩٥١ غادرت مصر وأمضيت أسبوعين في لبنان وثلاثة أسابيع في باريس ولندن وأسبوعاً على ظهر الباخرة "نيو امستردام" خلال السفر من ساوسهيمبتون إلى الولايات المتحدة لإكمال دراستي. كان هذا في المعهد العالي تبعته دراسة جامعية، إجمالاً إحدى عشرة سنة بقيت بعدها بشكل دائم في الولايات المتحدة. جملة الخبرات الطويلة في الفراق والعودة خلال الصيف أثقلت بعلاقاتي المعذبة لوالدتي لم تكف أن تذكرني أن ابتعادي عنها أمر غير طبيعي وبشكل حزين مصيري ضروري لها. كل سنة في نهاية الصيف فتحت العودة للولايات المتحدة جروحاً قديمة وجديدة جعلتني أشعر بالفراق بشكل عنيف وكأنه للمرة الأولى، كنت شديد الحزن نظرت للوراء وكنت خائباً وغير سعيد.

خوف من ذلك بعض الشيء رسائلنا المقتضبة واليوم أشعر كيف أعيش تلك اللحظات من جديد متمنياً لو كنت في مكان آخر قريباً منها مرضياً لها مغلفاً بحبها الأموي الأبدي، المغفرة والتضحية والعطاء، لأن المكان الذي نحن فيه ليس ما نرغبه بل مكان اللجوء، مكان الابتعاد، مكان اقتلاع الجذور. كان ذلك دوماً مرتبطاً بشرط إذا كانت تريدني بقربها.

كان عليّ أن أكون كما كانت تراني أن أكون، يجب عليّ أن أكون موجوداً لها، بينما هي حسب مزاجها أما كانت موجودة لي أو غير موجودة.

بعد أحداث مشاغباتية في أواخر عام ١٩٥١ في معهد فكتوريا وعودتي له أوضح مستر غريفتيس لي أنني في ظرف تجريبي، ما يعني أن كل معلم عالم بوضعي المتأرجح المهدد ليذكرني دوماً به. فور كل تجاوز مهما كان. في هذه الفترة كنت وكأني أجلس على نار. أتعرض لتهديدات من بعض زملاء الصف أو يتجنبونني. مصطفى حمد الله، بيلي عبد الملك وأندى شارون لم يبدلوا سلوكهم تجاهي ـ بقيت رغم ذلك منعزلاً وعلاقاتي محصورة. هذا ما جعلني أبحث أكثر عن القرب من والدتي. بقدرتها البالغة أن تتحسن مزاجاتي بل كانت تقرأها ضاعفت رقتها وحبها لي ما كنت بأشد الحاجة له. حدث مميز في المعهد في الربيع زاد في تقاربنا، أولاً كانت حفلات موسيقية لـ: "فورتفينغلر صاحبنا والدي إليها دون رغبة كبيرة أذكر أني خلال قطعة محببة مني من السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، التفت لوالدتي مقترباً منها مغتنماً قربها ما كنت بأشد الحاجة له لاسيما وأنا أشعر بنفسي كنصف منبوذ من المعهد.

في يوم أحد بعد حفل موسيقي تجمعنا في فترة استراحة على طرف الساحة الكبرى لملعب الرياضة لقذف الكرات. كل قذفة كانت تسجل لتصنيف المشتركين الستة. بينما كنت أرفع الكرة لقذفها، طلب ثلاثة صبية من صف السادس "آ" على رأسهم جيلبيرت دافيدسون أن علي دافيدسون أن يبدأ القذف، رفضت بحدة وقلت هذا دوري لنتشاجر محاولاً أن يسيطر على الكرة وينتزعها من يدي ليتمزق قميصي وتقطع الأزرار وأفقد توازني ساقطاً على الأرض.

حاول توجيه ضربة على رأسي ليفشل بينما في عزم وإصرار تمكنت من توجيه ضربة له أصابت أنفه وأدت إلى تدفق الدم منه. أسعفه أصدقاؤه وهدد أنه طالما يستعيد قوته سوف يقتلني ووالدتي. أحاط بي زملاء صفي لحمايتي وكانت الاستراحة قد انتهت لنتابع سماع الحفل الموسيقي.

لاحقاً ذهبت إلى محطة إسعاف حيث كُلفت ممرضة شوتية بتحضير تقرير عن الحادث. بعد ما رأت قبضتي قالت قبضتك من حديد. دافيدسون كان أحضر لبيته وظهر بعد أسبوع ليجدد تهديداته وشتائمه ضدي التي أخذتها بعين الجد. قال غريفيتس عني "أين ما تظهر تنشأ المشاكل، أليس الأمر كذلك يا سعيد "لم تكن هناك عقوبات من جهته لكني بقيت بعد الحادث شهراً كاملاً في البيت بقرب والدتي وكنت متأكداً أما أن يقتلني أو يكلف بلطجيين بقتل والدتي ذكريات رقة والدتي خلال أسابيعي الأخيرة في القاهرة كانت لي منبع التشجيع في سنواتي الأولى في الولايات المتحدة. منها استمديت ما كان أحدٌ ليعرف ذلك في محيطنا القاهري، ميلي للكتب والموسيقى بعيداً عن قوانين المعهد الخالية من كل شيء روحي، وعن حياتنا الاجتماعية السطحية في

القاهرة. كانت أعطتني كتباً روسية للقراءة اكتشفت فيها عالماً صاخباً وهادئاً في نفس الوقت خلال اسابيع عزلتي. في كتب الأخوة: كاراماسوف Kamasow اكتسبت الانطباع أن أرى فيها جدال العائلة بين والدي وأولاد العم والعمة موضحاً.

هذا الاشتباك دخل مرحلته الأخيرة، تقريباً يومياً كانت هناك مشاجرات واتهامات ومجادلات ومشادات حادة سواء مع المستخدمين أو بسببهم، تبين لي أنه رغم علاقاتنا القلبية للمحيط الشامي الذي التحمنا فيه كانوا يفصحون عن تجنيات تجاه والدي ولو مغلفة حول تمسكه باللغة الإنكليزية، وكانت والدتي أصبحت تتقن الفرنسية تتكلمها بطلاقة مع "ايما فهوم "ورين دياب" حول تركيزه المكثف على أعماله، حبه للطعام الأمريكي، كاتو التفاح وكاتو التفاح المشوي، متذمرين من إهمال للباسه بارتدائه القمصان العتيقة وتشقق أطراف بنطلوناته حتى في أيام العطل عندما أنظر للوراء وأتذكر أوقات القاهرة، أتذكر المشاعر الطيبة والسعادة التي انبثقت من رعاية والدتي، بدا أنها نظرت إلى قرب رحيلي وأرادت أن تضفي على الأيام القليلة المتبقية حناناً وحباً ننعم سوياً به، بينما أنا ما كنت أتخيل مدى هذا الشطر المنذر، رغم تحرري من ضغوط المواعيد المختلفة التي فرضت عليّ. لا توفيق أفندي ولا فؤاد عتايم ولا ركوب خيل ولا تمارين في قاعة مراد. عندما كنت أعود بعد الظهر إلى المنزل كانت تنتظرني على البلكون المطل على حديقة السمك وقدمت لي كأس ليمونادة حمراء، جلست إلى جانبي واضعة ذراعها على كتفي تتحدث عن الأيام الماضية عن "ادواردو بيانكو" الشاب العجيب الذكي وكيف أني مغزى حياتها. استمعنا معاً لسيمفونية بيتهوفن التاسعة التي تحظى بمكان خاص لدينا.

قربنا كان لدرجة أن والدي كان يشعر بالامتعاض وعندما كنا نذكره كنا نسميه "ديدي" ويعني الأب والزوج في نفس الوقت. كان ذلك لأن تستعيد ميلي قبل سفري للولايات المتحدة حاولت أن تخلصني من خطط والدي التي وضعها لي قبل سفري وما كانت راضية عنها.

هذه الأوقات بعد الظهر التي كنا نقضيها معاً لتثبيت علاقات لا يشوبها شائب كانت نتيجتها المستقبلية شائكة تقف عائقاً أمام شاب تحول لرجل يريد بناء علاقات ودية في إطار حب لامرأة أخرى. النقطة المهمة كانت ليست أن تأخذ مكاناً في حياتي هي أيضاً لتتمكن من الدخول إليها طول وبعد حياتها. اليوم يبدو لي أوضح أن أحاديثنا قبل سفري كانت مراسيم وداعية.

كانت تسأل ما رأيك أن نذهب لمقهى "غروبي" لشرب الشاي، هل ترى جميلاً أن نذهب لتناول طعام الغذاء في قاعة الاستجمام قبل سفرك. كل ذلك تم في دهليز نظمت تفاصيله.

كما هيأت أجواء بعد سفري لها ولأخواتي كونهم سيبقون دوني. عطاؤها ووقفتها كانا مخيفين في الأسبوع الأخير قبل السفر إلى لبنان المرحلة الأولى، كما تبين لي لاحقاً أنها كانت تعتقد أن كل هذا يجري عن حب دون حدود بينما لعب أمرٌ آخر دوراً مهماً كونها وجدت في هذه الفرصة مجالاً أن تعبر عن نفسها وتطور شخصيتها. باعتقادي كانت حاجات عميقة رغم أنها لم تفصح عن شيء من هذا القبيل. كنت ابنها الوحيد وهبت مثلها إمكانية التعبير والتواصل، شاركتها حب الموسيقى والكلمة ما جعلني في يدها أداة في عراكها مع إرادة والدي الحديدية الصلبة الصامتة. بفراقي تفاعلت بسحب

ميلها ما أخافني. من عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٩٠ عاشت والدتي في قارات مختلفة ولم تتوقف عن الشكوى من أنها الوحيدة بين أصدقائها التي فرض عليها أن تعيش بعيدة عن أولادها وخاصة عني. شعرت بالذنب لأنني فارقتها رغم قبولها بالأمر الواقع.

بعد وصولي للولايات المتحدة في عام ١٩٥١ تذهلني حتى يومي هذا. لي تصور كيف سيكون تطور حياتي لو لم أسافر للولايات المتحدة. أعرف أني بدأت هناك حياة جديدة وتخلصت مما تعلمته سابقاً، اقتبست أشياء جديدة من بدايتها، تصرفت حسب الظروف، اكتشفت نفسي من جديد، جربت وفشلت، فشلت وبدأت من جديد. حتى اليوم يراودني الشعور أني كنت بعيداً عن الوطن، أتصور كيف كانت الأمور لتجري لو بقيت في العالم العربي أو أوربا ودرست هناك، تبقى دائماً رواسب من ندم. كتابة هذا الكتاب تعيد بشكل ما خبرات ما قبل السفر والفراق. الحقيقة أني رغم الإقامة في نيويورك من سبعة وثلاثين عاماً يلازمني شعور المؤقت، ما يدل على التلخبط وعدم رؤية الطريق رغم كم من لحظات مقبولة.

في نهاية ١٩٥١ ذهبنا إلى لبنان كما في كل سنة ومكثنا أسبوعين في ضهور شوير، في ١٥ تموز ومن مطار بيروت أو خلدة كما سمي حينذاك سافرت ووالدتي ووالدي على متن طائرة بان أميركان إلى باريس. قبل الهبوط عانيت من مرض عيون مفاجئ قلل من الرؤية ما ضاعف شعوري بالتلاشي دون معرفة ما فعلت وإلى أين ذهبت. تابعنا السفر إلى لندن بالقطار ونزلنا في جناح خاص (سويتي) في فندق سافوي ليُستدعى ابن عمي البرت من

بيرمينغهام حيث كان يدرس كيمياء وأقام معنا في الجناح. على ما بدا ما كان يعلم عن التشنجات بين والدي وأخوته وتمتعنا بالوقت معه حيث كان مرحاً سعيداً معنا، قضيت معه ساعات كثيرة تعرفت عن طريقه على "فيش أند شيبس Fish and Chips" السمك والبطاطا، ذهبت معه إلى الحديقة الجديدة باتيرسيا، دخلنا إلى أكثر من "ببس Pups"، بحثاً عن أحداث وبنات. طوال الوقت جربت أن أتعلم منه كيف يقضي المرء أوقاتاً جميلة دون أن يشعر بالوحدة أو يرتكب أخطاء.

كان الوحيد من أقربائي الذي اقتديت به في السنوات العشرين من حياتي لأنه ما كان لم أكنه أنا. وقفته كانت مستقيمة، لاعب كرة قدم بارع، فائز في رياضة الركض، سعيد الحظ مع النساء، شخصية قيادية بارزة وطالب مميز. لندن كانت أجمل وقفة في سفرتي، لما غادرنا البرت عدت إلى وضعي النفسي والخوف من المستقبل. في ساوسهيمبتن صعدنا إلى الباخرة "نيو امستردام" أكبر وأفخم من الباخرة ساتورنيا. الرحلة التي استغرقت ستة أيام مرت دون أحداث مميزة مليئة بالطعام الدسم والأفلام المسائية ووجود والديّ الدائم.

والدتي قالت أكره أمريكا والأمريكيين، ماذا نعمل هنا وديع، أرجو أن تشرح لي هذه القضية الجنونية، هل يجب علينا أن نحضر الصبي لأمريكا، أنت تعرف أنه لن يعود، نحن نسرق أنفسنا. كانت حزينة وغير مرتاحة بينما والدي كان مشغولاً بأكل كاتو التفاح وشرب القهوة كان منفعلاً ومتحمساً لفكرة أمريكا أني سوف أذهب هناك للمدرسة وقرر أن يشتري فيها بيتاً.

تجنبت مهاترات والديّ إلا أثناء طعام المساء دون صورة إلى أين أنا ذاهب وإلى متى؟ ما كدنا نصل نيويورك حتى أقنعت والدتي ووالدي أن نزور ابنة العم ايفا مالك في واشنطن. ما إن مضى علينا ساعة في فندق "ماي فلور" حتى وصلت إيفا بسيارة سفارة زوجها ودون مناقشة أو أخذ ورد خطفتنا مع حقائبنا إلى مبنى السفارة. بصفته الوزير المفوض للبنان في الولايات المتحدة كان زوجها شارل مالك توجه لسان فرانسيسكو لحضور اجتماع للأمم المتحدة. بقينا لوحدنا مع إيفا لبضعة أيام وقمنا بعدة زيارات سياحية ونعمنا بالراحة. أصرت أن تعتني بي خلال وجودي بالمدرسة الداخلية أمر لم يعجب والدتي فقط، بل أعجبني أنا أن أقضي عطلي في رونق السفارة اللبنانية في جو يشبه ما تركته في القاهرة. والدي امتنع عن أي تعليق لأسباب عرفتها لاحقاً. شعرت أن والديّ أرادا أن ينهيا الإقامة، كررا القول لايفا أننا نثقلها بزيارتنا، بينما استمتعت ايفا بشكل ملحوظ بوجودنا. حسب تقاليد عربية قالوا إنه يستوجب على الضيف أن لا يبقى لأكثر من ثلاثة إلى أربعة أيام عبئاً على المضيف. على عجلة سافرنا إلى "ماديسون فيسكونسين Madison Wisconsin التي وصفت في دفتر جديد لـ:

National Georaphic لسرور والدي أنها أجمل مدينة في الولايات المتحدة. أقمنا يومين في هذه المدينة وزرنا مع دلاّل عقارات بيتاً بعد الآخر. كل مرة تصورنا حياة مشتركة لنا في البيت، هنا سوف تكون طاولة كتابة لوالدتك قال والدي، هنا نضع البيانو قالت والدتي لكن تشجعها زال مع الوقت. جمعنا كماً من المنشورات وبطاقات شخصية (كروت) رماها والدي

في نفس المساء في سلة المهملات. بحثنا عن بيت في ماديسون كان غامض الهدف ماذا يعني والدي، هل ينوي العيش في أمريكا رغم أعماله الناجحة في القاهرة ولبنان.

قالت والدتي لو كان والدك أصغر عشرين سنة بعد الحرب العالمية الثانية لذهب للولايات المتحدة للعيش فيها. عندما جئنا لماديسون كان في السادسة والخمسين من العمر لكن اهتمامه بالولايات المتحدة كما عرفت ينبع من وطنية نظرية من جهة ومن أخرى تخلصه من قبضة أهله. إضافة لذلك كما أعتقد رغبته أن يوحي لي أنه سنحت لي فرصة كبيرة كما أراد أن يزيل خوفي من العزلة.

كان يكره بشكل إيديولوجي العواطف عندما كانت والدته تصر على العودة كما بدا وكأنه لاحظ سلوك والدتي تجاهي قبل السفر.

عدنا عبر "ميلووكي Milwaukee رود ريلرود Road railroad بطائرة "تفا" TWA من مطار ميداوي Midawy إلى نيويورك وتابعنا بعد يوم بعد مايـ: Labor day بالقطار من المحطة المركزية الكبرى Grand Central Station باتجاه مونت هيرمون Mount Hermon. القسم الوحيد في الرحلة الطويلة عبر خط White River Junction الذي أذكره، كان عندما توقفنا في محطة صغيرة ريفية في ماسيشوسيتس Massachusetts حين انتظرتنا تكسي لتوصلنا إلى هدفنا. كان الوقت جد ضيق لأنه كان على والديّ أن يأخذا القطار عائدين إلى نيويورك. بعد ما رأينا غرفتي وبعد حديث قصير لأهلي مع المدير ساعدتني والدتي في ترتيب الأمور بالغرفة لربع ساعة. شريكي بالغرفة الذي ما كنت أعرفه كان رتب أموره. ليغادر والدي "المكان على عجلٍ وأبقى

وحيداً أمام مدخل Crossley بيت الطلاب. الفراغ الذي أحاط بي فجأة والذي كان عليّ أن أتحمله لسنة كاملة كان لا يحتمل. عدت بسرعة لغرفتي لأتخيل وجود والدتي، استنشق آثار عطرها.

شاب أشقر بعيون زرقاء من عمري استقبلني بالغرفة، هالو أنا بوب ساليسبورغ ولم يترك لي مجالاً لأستمتع بخيال والدتي وبدا لي بكل وضوح أني وصلت الآن.

مدرسة ماونت هيرمون أسست في نهاية القرن التاسع عشر من الواعظ Dwight L. Moody وكانت أكبر من معهد فكتوريا في القاهرة كانت الشكل المذكر المعاكس لـ: Northfield Seminar for Young الأبنية امتدت على مسافة ألف هكتار على ضفتي نهر كونيكتيكوت Connecticut Ladies.

طريق بطول عشر ة كم مع جسر ربط البنائين. مونت هيرمون بعكس نورثفيلد كانت منعزلة تماماً لا تقع في قلب مدينة أو قرية، المعلمون العاديون سكنوا مع الطلاب في بيوت طلاب أما المتزوجون فقد سكنوا مع عوائلهم في بيوت خاصة متوزعة على كل المنطقة. رغم وقوع المبنى في مكان ذي طبيعة جميلة، هضبي، غابي، بدا لي غريباً ومملاً، قاعة كروسلي كانت أكبر مبنى بطابع فكتورياني يمكن أن يكون أيضاً مصنعاً. ساليسبري وأنا سكنّا في الطابق الثاني. المغاسل والدوشات كانت مفتوحة بحيث يرى الجميع بعضهم وكانت في القبو. كل طالب توجب عليه أن يقضي عشر إلى اثنتي عشرة ساعة عمل جسدي في الأسبوع أتت من مخالفات كتاب لـ: مودي الكتاب المعاكس لكتاب ماوتسيتونغ الحمر. مع أربعة طلاب كانت مهمتي أن ننظف البطاطا بأن نقلع العيون البارزة

ولأن نؤمن الكمية اللازمة لطعام العشاء توجب علينا العمل ثلاثة أرباع الساعة. كنا نغني دون توقف ونحكي نكت. مراقبنا كان قصيراً سميناً بوسط العمر رقيب سابق في الجيش عاملنا كما يعامل المجندون.

مجرى اليوم كان مخططاً منظماً وطويلاً ولم يكن يوجد أماكن تسلية كما تعودت في القاهرة. كان يوجد مركز بريد ودكان يفتحا لبضع ساعات في اليوم تمكن من شراء معجون أسنان طوابع، بونبون، وبعض الكتب، الدروس استمرت للظهر وكان يتوجب الصلاة قبل كل طعام تلا ذلك قراءة تعليمات وغيره ومن الساعة الواحدة مارسنا رياضة لساعتين. دروس بعد الظهر كانت من الرابعة حتى السادسة، بعد العشاء كانت ساعة فراغ ثم نرسل إلى غرفنا بين الثامنة والعاشرة.

مراقبون من مندوبي الطوابق نسبت لهم هذه المهمة ليس لأنهم أكبر أو مجدين أكثر، بل لصفتهم "القيادية" كلمة سمعتها للمرة الأولى. أثناء الدروس كان الكلام ممنوعاً. الساعة العاشرة والربع توجب علينا أخذ دوش وتنظيف الأسنان وبعد ذلك النوم. كل طالب سمح له مرتين بالشهر، السبت بعد الظهر، السفر إلى غرينفيلد مكان صغير يبعد عشرة أميال عنا وبغيره كنا محرومين من مغادرة المكان ما عدا الأعمال الرياضية وبقينا ثلاثة أشهر خاضعين لقواعد المدرسة.

مكالمات هاتفية كانت نادرة وغالية الثمن. أهلي خابروني من نيويورك قبل سفرهم وقالوا لي:

دكتور روبندال ونحن أيضاً نرى أن تعيد السنة الدراسية رغم تخطيك السنة الخامسة في القاهرة. ثم تكلم والدي معي وقال في الربيع القادم سوف تبلغ السنة السادسة عشرة عندها يتوجب عليك مغادرة المدرسة وهذا العمر

لدخول الجامعة عمر مبكر لذا أرى أن تبقى سنتين أخريين في المدرسة تابع أنت سعيد الحظ، أتمنى لو كنت منيت بهذا الحظ مثلك.

بدا لي والدي الذي ما حظي في طفولته أو شبابه بمثل ما يقدمه لي وكأنه يحمل عليّ. أتذكر الصدمة التي منيت بها قبل أسابيع حين إقامتنا في لندن. أنزلنا وألبرت دون أي اعتبار للتكاليف في فندق سافوي الغالي، واصطحبنا كل مساء إلى أغلى المطاعم وإلى زيارة المسارح والحفلات الموسيقية: Kis me Kate, Paricia Morson, H.M.S. Pinaforte with martyn Green in Savoy Theater.

في حين وجه لي اتهامات شديدة لأني اشتريت برنامجاً بستة سينتات للعرض قائلاً هل تتصور أنك ابن رجل غني، لترمي النقود عبر النافذة. عندما توسطت والدتي قالت والدك يعمل بالحياة بقسوة بالغة، جواباً أصمتني وأخجلني في نفس الوقت كنت عاجزاً أن ألوح للتكاليف الباهظة في الفندق والمطاعم الفاخرة الغالية مقارنة بستة سنتات. أتمنى لك حظاً سعيداً يا ولدي ختمت والدتي المخابرة مضيفة حاول أن لا تكون وحيداً. ابحث عن من تنسجم وتكون معه.

صوتها بدأ يرتجف بشكل مقلق، تذكرني وتذكر أني أفتقدك. أحاط بي فراغ وختمت ديدي يقول علينا أن نذهب.

تساءلت لماذا أحضرت لهذا المكان الذي غادره الله لأقاطع بصوت مستر فريد ماك فايغ معلم اللغة الفرنسية الذي كنت أتكلم من غرفته في قاعة كروسلي وقال "أوكي" اذهب لغرفتك فذهبت على قناعة أنه لن توجد هنا مكالمات ذات مغزى بل كلمات قليلة قصيرة مقتضبة لكن بنوعيها لن تختلف عما تركته ورائي.

في اليوم التالي ذهبت إلى مستر أدموند اليكساندر معلم الإنكليزية ومدرب التنس. مستر إليكساندار أو "نيد" كان حلقة الوصل الوحيدة بالقاهرة كانت تربطه علاقة بـ: فريدي معلوف وهو صديق العائلة حدثني عنه معلوف وكانا زملاء مدرسة. قصير غامق اللون رياضي الجسم بلباسه التنسي ما كان إيجابياً. سألني ما هو أمرك أجبته أنا من القاهرة معلوف كلفني أن أزورك وأبلغك تحياته، لم يبد أي تفاعل ليقول (آها) معلوف دون كلمة أخرى لأتحول إلى اللغة العربية متخيلاً أن لغتنا الأم ربما تزيل العوائق ليحدث العكس رفع يده اليمنى وقال "لا يا أخ" تركت هذا كله خلفي، لا عربي هنا، هنا نحن أمريكيون ويجب علينا أن نتصرف كأمريكان. كان الأمر أسوأ، اعتقدت أني بحثت عن مجال انفتاح في خضم العزلة وألم الفراق. اليكساندر تبين أنه أكثر سوءاً مما تصورت بل عدواً. سجلني على قائمة لاعبي التنس المبتدئين بحيث كنت لأسابيع العب مع متحدين مبتدئين وبانتهاء شهر تشرين الأول اللعب مع بدء تساقط الثلوج وجدت نفسي من جديد على لائحة المبتدئين.

وبعد ذلك بستة لم يكن لي أي اتصال مع أليكساندر، شاهدته نادراً مع زوجته وابنته برفقة المدير الزراعي بسيارته "الكومبي" يتجول في المنطقة يظهر نفسه أمريكانياً كالأمريكان.

ألحقت بمدرب الشباب الإنكليزي "هغ سيلك" استعملت ضده في التمارين كل قواي والمشاعر ضد كل ما هو بريطاني. لعبت من نقطة اثنين بدلاً من نقطة واحد بادعاء اليكساندر أني لست مؤهلاً للعب من نقطة واحد. فوق ذلك اتهمني بانفعالات وتعبير وجه وكثرة الشكوى وتصرفات تدل على أني لست متوازناً في

أموري. سلوكه أثبت أقوال والدي بتجاربه في أمريكا والاعتقاد السائد أنه يتوجب الابتعاد عن العرب. لن يفعلوا شيئاً من أجلك، سيقفون دوماً عائقاً في دربك، لا يحتفظون بإيجابيات الثقافة العربية وليسوا متضامنين مع بعضهم البعض.

لم يقدم والدي إثباتات لأقواله، لكن رد فعل أليكساندر وطريقة سيلك التأديبية بكفوف من المخمل وبقبضة حديدية أثبتت كل ذلك الضغوط والتصارع مع السلطات البريطانية التي ألفتها في فلسطين ومصر. هناك عرف المرء على الأقل أنهم أعداء. في ماونت هيرمون قيل إن القيم المشتركة تعمل لصالح ومساعدة الطلاب. احترام مقابل قيم غير مفهومة مثل نوعيات قيادية، سلوك وطني، كلمات الإنذار والتشجيع والمدح مغلفة بالاستغلال تحقن ما لم أكن لأحلم به في معهد فكتوريا في القاهرة. هناك كانت الحرب يومية دون أن يُجمل الأمر المسيطرون ودون أن نقبل بها. في الولايات المتحدة كنا نصنف دوماً لكن ذلك قَبَعَ خلف نسيج ناعم من كلمات معسولة وادعاءات حُميت من سلطة المعلمين المطلقة. تعلمت أيضاً أنه لا توجد قواعد وأسس لتقويم ما إذا كان المرء مؤهلاً لأمر ما أو غير مؤهل. طيلة زمني في ماونت هيرمون الذي لم أُسمَ كمتحدث الطابق، أو الطاولة لعضوية مجلس الطلاب، أو الطالب الأول أو الثاني الذي يقوم بإلقاء كلمة التحية أو الوداع رغم تمتعي بكل الكفاءات اللازمة. كما لم أعرف السبب. بدلاً من ذلك تعلمت أن أقابل السلطة بكل حذر كما أوجدت طريقاً كي أتمسك بمشاعري ولا أترك لأحد مجالاً للتعالي عليّ. بدا لي أنهم يعملون على إلزامي بالصمت وتحويلي إلى شخص آخر غير أنا. بهذا بدأ نضال حياتي ضد النفاق، نفاق سلطة تركز على تسويقها

كأخلاقية في التصرف بأحسن قصد. انعدام العدالة بنيت على حقهم بتغيير المعايير التي يتبنونها. بينما يعتبرون الإنسان اليوم قدوة، يتحول في اليوم التالي إلى غير أخلاقي رغم عدم تبدل سلوكه. علمونا مثلاً أن لا نقول لشريك لعب تنس "الضربة كانت ممتازة" أو ما شابه ذلك، لا تعطيه ما يميزه، لا تعترف له بإيجابيات، دع غيرك يعمل مضنياً بعمله مثقلاً.

أذكر إنه أثناء لعب تينس مع أكاديمية فيلليستون لعباً صعباً أني دعيت للطرف وعنفت كوني تركت اللاعب المضاد يرفع كرة قريبة مني وقالوا كان يمكنك أن تخطو أكثر وتلتقطها، ما أغضبني للتلاعب بالمعايير. بدأت التعاون مع السلطة المنافقة بماونت هيرمون بإرادة جديدة مفاجئة ليست بعلاقة مع إدوارد الماضي، بل مع إدارد جديد كانت شخصيته تكمن تحت السطح لتخرج من جديد. تأكدت في خلال حنيني للوطن ما عدا نصائح والدتي في رسائلها الأسبوعية أني لابد وأن أتحدى المصاعب في ماونت هيرمون معتمداً فقط على نفسي لا غير.

من الناحية المدرسية ما كانت لي مصاعب تذكر بل كنت ألقى سروراً بها، بينما كانت الأمور المدرسية في معهد فكتوريا جافة ليست مجملة أو مغلقة، كانت في ماونت هيرمون محضرة، ميسرة ومشروحة. على سبيل المثال قام معلم الإنكليزية مستر جاك بالدوين "شهراً كاملاً" بشرح وتحليل "ماكبيث" معنا. عاينا خلق، دوافع، لغة الكلام، والبناء بتشكيلنا فرقاً صغيرة وبخطوات لتحويل ما وصلنا إليه إلى صياغة جديدة في دفاتر مع مقدمات. هذا النظام كان واقعياً وجيد التحضير ما لم يكن معروفاً في مدارسي السابقة. كان هذا النظام يتحداني ويشجعني على عكس الطريقة الأنغلومصرية بدراسة

نصوص أدبية كان علينا أن نقدم أجوبة مقتضبة ضيقة الشرح. في الأسابيع الأولى أعطانا بالدوين موضوع قصة ليست معتادة عن "إشعال عود كبريت". مقتنعاً بواجبي ذهبت إلى المكتبة، بحثت في القواميس، في تاريخ الصناعة، في كتب الكيمياء بحثاً عن خصائص عود الكبريت. جمعت كل ما حصلت عليه وسلمت ما كتبت لـ: لبالدوين. كنت فخوراً على ما أنجزت. بالدوين دعاني لزيارته في مكتبه أمر جديد لي حيث لم يكن لمعلمي فكتوريا كولج مكاتب خاصة بهم. بغض النظر عن ساعات مكتب. مكتبه كان مكاناً صغيراً جدرانه مغطاة ببطاقات بريدية. بعد ما جلسنا أمام بعض أعرب عن إعجابه بعملي.

طريقة ممتعة معاينة ما يجري حين يُشعل عود كبريت ما يحدث إذا أشعلت النار في الغابة، ما يجري إذا ألقيت شمعة مشتعلة في كهف أو إذا أريد اكتشاف أمر سري عن الجاذبية، عن قانون نيوتن. للمرة الأولى في حياتي شُرحت لي قضية من معلم بشكل يثير اهتمامي.

وأخيراً حرَّك ما كان مخنوقاً لا يعطي فرصة للرد الجذري الصحيح بل للتعاطي مع منهاج روتيني محكم التنظيم مع فحوص روتينية تدل على ذاكرة ما غير مهملة المؤهلات وما يكمن.

الطريقة المعقدة للاكتشاف الثقافي لم تتوف منذ ذلك الوقت. الحقيقة أنني لم أشعر يوماً في ماونت هيرمون بوجودي في بلدي ووطني بل في المكان الخطأ، أتاح لي خلق إمبراطوريتي الخاصة ليس اجتماعياً، بل ثقافياً. غرفة القراءة في طابق المكتبة كانت ملاذي ومكان لجوئي من الروتينية اليومية اللامطاقة. فيها كان أيضاً آلة سماع موسيقى[1]، الرفوف كانت مليئة بالروايات والقصص والترجمات.

1 لسماع اسطوانات أو بيك آب، لا أعرف الاسم العربي.

سمعت دوماً اسطوانات عرس فيغارو تحت قيادة كارايان، قرأت لكلاسيكيين أمريكيين مثل جراب الجلد لـ: كوبرس، روايات وروايات سياحية لـ: توينس، قصصاً لـ: هاوثورن وبو التي رأيتها مثيرة لعالم منفرد يشبه عالم الانغلومصري. أهم الكتب وجدت في الموسيقى إلى جانب كتب دينية لعبت دوراً هاماً في المدرسة، تقدمت للدخول في فرقة الكنيسة الغنائية وقبلت كما في نادي غناء بعيداً عن الكنيسة. توجب علينا الذهاب للكنيسة أربع مرات أسبوعياً وكان عزف الـ: أورغل"[1] يقدمه كاريلتون لو هوميديو يجهد نفسه في ألحان "باخ" وأحياناً كنا نستمع لأمريكان من الدرجة الثانية مثل جون نوليس بين وجورج شلدويك. مرة بعد الصلاة ذهبت إلى هوميديو وسألته عن إمكانية ساعات للعب بيانو.

سنواتي الضائعة في فكتويا كولج أنهت هوايتي في العزف على البيانو لكن سماعي لاسطوانات وسماع هوميديو أوحيا لي ببداية جديدة. كان طول هوميديو ١٧٥ سم، ضعيف البنية يشبه هيكلاً عظمياً، يستعمل بابيونات) كاريه وقمصان مخططة ودوماً جيد اللباس لم ير دون "بابيون" أو ببنطلون قصير. سيره كان مثيراً يمد ذراعيه كالأرنب بينما كان يعطي وهو يعزف أجمل صورة. أقدر أنه قبل بإعطائي دروساً وأنه لم يكن إطلاقاً غير صبور معي. كان مثالاً للمعلم الحذر الدقيق، بغض النظر عن تعليمه كنت معجباً بعزفه ودروسه عن تاريخ الموسيقى. حال ما كانت الموسيقى شاغلي الأول وعطشي المعرفي.

---

1 أعتقد ذكرت سابقاً أن الأورغل آلة موسيقية في الكنائس تشبه البيانو لكن بأصوات أخرى لا أعرف الاسم العربي.

لأول مرة في حياتي سمعت وعزفت وبحثت بمنهج منظم حيث وجد في المكتبة قاموس عن الموسيقى والموسيقيين. لم أتوقف لحظة ولهذا توجب وجود هوميديو ليوجيني. لم نختلف يوماً ولفضل أذانه الصاغية. إذا كنت أخطأت في العزف كان يقول حذراً "أو يا اد" كان شديد الجمال لكن لا ترى في حال عدم الثقة أن تنفعل في البدء شيئاً ما وهكذا في تعامله معي. أتذكر يوم أحد بعد الظهر عندما عزفت بينما كانت النافذة مفتوحة جمعت قواي وهممت بكل أمر صغير قرر أن أبذل أكثر المستطاع وبدأت العزف هوميديو برفقة مستر موريتز معلم اللغة الإنكليزية أكبر سناً سمعاني عبر النافذة ليدخلا الغرفة وينادي مستر مورتيز "هاي اد هذا رائع الجمال" بينما هوميديو لم يكن معجباً بل أكثر تحفظاً تابعت العزف غير عابئ انتقلت من باخ إلى هادين.

كفاحي المتعب في المدرسة الداخلية بطلابها الستمائة كان مضنياً وغير مطاقٍ، لم يعطِ خلفيات لصداقات كما عرفتها في فكتوريا كولج، بوب سالسبوري الذي عشت معه سنتين في غرفة واحدة لم نقترب من بعضنا، شعرت بعدم عمقية الأمريكان وعدم الهدوء ما عدا مزاج سطحي ومرح ضمن الفرق الرياضية لم يكن ليرضيني، دوماً كنت أفتقد اللغة العربية بين رفاقي الذين عشت معهم، كانوا قليلي المشاعر لا يفصحون عن انطباعاتهم تجاه الأمور وكانت تبدو الشكلية الموحدة بطريقتهم بالحياة، ببرامج التلفزيون، باللباس، بالأفلام، بالصحف، بالكوميك وهكذا. ميلهم أن يقصروا مجرى اليوم على أخفض مستوى ممكن لا تلعب فيه الذكريات أي دور، أحسن أصدقاء كانوا قدموا للولايات المتحدة لتوهم، مثل غوتفريد بريغر ألماني يميل بشكل بالغ للمزاح، ونيل شيهان حسن التربية لكنه تواق للمعرفة.

أفكار المدير مودي طغت على المدرسة وجعلتها إلى مدرسة من الدرجة الأولى، كل ما قيل عن الأعمال اليدوية بدا لي سخفاً . مكانة ومعنى الرجل ما اختلف أحد عليهما ، أول مقابلة لي مع شيطان نَوَّم الناس مغناطيسياً وما كان أحد منا لا يكن له التقدير والاحترام والإعجاب، يليه جيف بريغر الذي صادفني في قاعة القراءة في المكتبة وقال لي: Maisc, est de goutant منبهاً إلى موضوع توجب علينا أن نعالجه.

ما كان الأمر غير ما يتعلق بالدين، صلاة أحد ، صلاة مساء الأربعاء ، وعظ بعد ظهر الخميس، ارتباط بالدين ما كنت أستحبه، هذه المواعظ والنصائح لسير الحياة ما كنت لأقبلها .

غير ذلك كان مودي، يعبر عن مسيحيته بكلمات مقتضبة "خدمة وجهد" كلام سحري لكنه غامض له أن يملأ حياتنا بمعنى أخلاقي . في معهد فكتوريا لم يكن شيء من هذا القبيل والآن الكل في نفس الدفعة مرة واحدة دون ضربات دون إرهاب المعلمين. كلنا الستمائة كنا وراء مودي ومساعديه مثل إيرا سانكاي Ira Sankey سائرين.

اللباس كان بالنسبة لي مشكلة كل واحد لبس بنطال مخمل وجينز . في لندن كان والدي اصطحبني إلى مخزن وقع إلى جوار فندق سافوي مخزن يشبه روايات "ديكنز Dickens"

واشترى لي بذلة رمادية اللون وكنت لازلت أحتفظ ببذلات وبنطلونات رمادية اللون من معهد فكتوريا وجاكيت "بليزار" وحقيبتين مملوأتين بمجموعات طوابع وصور عائلية ورسائل من الوالدة احتفظت بها بكل عناية.

رجوت أهلي خطياً بالسماح أن أشتري ملابس ملائمة وفي شهر تشرين الأول كان مظهري تماماً مثل الآخرين. واستغرق الأمر شهراً آخر لأفاجأ ويفاجأ زملاء الصف معي بإنجازاتي. لماذا وكيف لا أعرف ذلك حتى يومي هذا كوني رغم تحذيرات والدتي أن لا أهتم بحب الوطن أو الغربة، كنت أئن تحت كليهما. ما شاركت أيضاً بجلسات "الغيمة الزرقاء"، غرفة التدخين والبليارد"، ابتعدت عن التكتلات الصغيرة التي نشأت ومختلف الفرق الرياضية.

اعتراني الشوق للقاهرة، حسبت الفرق الزمني من سبع ساعات، لم أغير ساعتي، افتقدت الطعام القاهري في بيتنا، طعام المدرسة ما كان كثير الشهية، بدأ بالدجاج يوم الاثنين وانتهى بصفيحات وسلطة البطاطا مساء الأحد. افتقدت قبل الكل والدتي وكل رسالة منها كانت تعمق الجروح جروح الفراق والمغادرة، أحياناً كنت أسحب الحقيبة من تحت السرير أتصفح الألبومات وأقرأ الرسائل وأبكي خافت الصوت لأتذكر قول والدي "شد عزمك، لا تكن ضعيفاً، استقم في وقفتك". (أو كما يقال بالعربي: ارفع رأسك). تبدل الفصول من الخريف إلى الشتاء كان مخيفاً لي حيث جئت من جو حار جاف وما ألفت جواً كهذا. لم أخفِ كرهي للثلج الذي شاهدته لأول مرة في حياتي في ١/تشرين الثاني/ ١٩٥١ عيد ميلادي السادس عشر.

منذ ذلك الوقت رغم ما بذلته من تغلب لم أستمتع بالثلج ولم أعجب به. بالنسبة لي يعني الثلج نوعاً من الموت. عانيت أكثر في محيط ماونت هيرمون من الفراغ الاجتماعي. حياتي حتى ذلك الوقت قضيتها في عالمين مليئين بالبشر حافلي التاريخ، القدس والقاهرة، والآن وُجدت الغابات الريفية وأشجار التفاح

ووادي وهضاب نهر كونيكتيكوت، أماكن دون تاريخ. أقرب مدينة كانت غرين فيلد بدت لي رمزاً مفروضاً للفراغ في وسط أمريكا. من الناحية الأخرى أوجد لي قليلٌ من المعلمين والتلاميذ وأيضاً كتب الأدب والموسيقى لحظات سعادة كبرى وسروراً مختلطاً ذلك بالشعور بالذنب. لا تنسى إلى أي حد افتقدك وأحبك غيابك يشعر بفراغ كبير، كررت والدتي مراراً عبر السنين ما دفعني أن لا أشعر بسعادة طوال بعدها عني كما كنت أشعر بالخيانة القاسية إذا فعلت أي شيء يجلب لي شعوراً بالسعادة في غيابها. طيلة إقامتي في الولايات المتحدة وفي ثلاثة أرباع السنة ربطت الاستقرار بالقاهرة والأوقات التي كنت أقضيها اعتبرها مؤقتة. حياة اجتماعية كانت فقط حين إقامة "سيمينارات Seminar" (بالعربي يمكن القول ندوات) مع Northfield Seminary for young Ladies كم عشرة على الضفة الأخرى من النهر. فقط يوم السبت سمح لنا لعب كرة قدم، زيارة سينما، أو موعد مع بنات المدرسة الأخرى للإناث للرقص. لكني كوني كنت خجولاً لدرجة وغير خبير في العلاقات الغرامية، نظرت بتشوق كيف يمسك الآخرون أيدي بعضهم، يتعانقون ويقبلون. ما كان بالنسبة لي أيضاً أمراً غريباً والقاهرة لم تقدم شيئاً من هذا القبيل ما يشابه اللا أخلاقية المسموحة. دون معارف في نوثفيلد كنت دوماً مع الزميل بريغر وواحد أو اثنين آخرين، وعندما كنت أتعرف على فتاة كان نادراً أن تجري بعدها مقابلة. في سنتي الثانية والأخيرة كان لي نجاح متواضع مع الفتيات.

حتى شهر كانون الأول ١٩٥١ بقيت لأسفي المؤمرك "ايد سعيد" من قبل الكل ما عدا الزميل برغير. مع قدراته المزاحية وحبه للنكتة قرب مني أكثر بينما

كانت أحداث الماضي تتلاشى رويداً رويداً متآكلة من روتينية مجرى الأيام الأمريكية وأمسياتها . حتى طوني غلوكر الذي تعرفت عليه من فترة وجيزة وكان نشأ في بيروت تبدل . تكلمنا مع بعض عربي وفرنسي ليتوقف ذلك وقل ما كنا نتحدث مع بعض . دون أصدقاء مقربين سلكت طريقي وجربت بنجاح متزايد الحفاظ على حساسيتي تصديت بشهادة كثير من زملاء الصف لأمركتي . ما كان دافعي الحنين للقاهرة بل تذكرت الأصوات المستنكرة التي سمعتها أنني لست عربياً ، لست فعلاً أمريكياً ، عدو لإنكلترا يتكلم ويقرأ الإنكليزية ، ابن منبوذ ومدلل . أكثر فاعلية كان قوة صاعدة مستقلة شعرت بها على سبيل المثال عندما كنت أسبح أتعدى خمسين خطاً ، أشعر بانهباط ذراعيّ وثقل ساقيّ عندما أتابع هدفي . هذه القوة كانت نواة بفضلها تصورت كيف سوف أقص أمام بالدوين بالدرس "برميل امونتيللادو" الذي أحضره لبث إذاعي ، كنت أهيئ الأصوات بمختلف إيقاعاتها والموسيقى (المقطع الثالث من لحن موسيقى الليل الصغير) جمهوري سوف يستمع لصوت البطل بطل القصر من وقع رقصاته . قوة مستقلة أو إرادة جديدة حددت بدء رفضي لأن أبقى "اد سعيد" الخامل غير الفاعل . الذي يتلكأ من وظيفة إلى موعد دون مقاومة .

أغلب التلاميذ سافروا لبيوتهم ليوم "ثانكسغيفينغ Thanksgiving" يوم العطلة الذي لا يرمز بالنسبة لي وحتى هذا اليوم بشيء ما . رغم إرغام والدي في القاهرة تناول وجبة الديك الرومي بسبب التقاليد كما ادعى . لتخطيط عطلة أعياد الميلاد التي تبلغ ثلاثة أسابيع اتصل والدي بأولاد أخيه الأكبر آبي وشارلي في نيويورك اللذين كانا انتقلا مع والدتهم الأرملة إميلي وأختهم دوروتي بعد وفاة أسعد في عام ١٩٤٧ إلى "كوينس Queens" .

لم تتحقق العطلة في وشنطن. آبي كان بيضوي الشعر منفتحاً، اجتماعياً، طيب الخلق، يكبرني بعشر سنوات. والدتي قالت عنه إنه يشبه والدي بالكرم والإخلاص والصدق.

في عائلة عمي آل كانت توجد مشكلة أتت عبر "أميلي" كانت من عائلة سعيد من يافا وآبي بدا وكأنه بعيد عن ثقل الوراثة التي كثرت مناقشتها، ضحك خبيث غبي كان يظهر بين الحين والآخر دون داعٍ أو سبب. المنزل كان في: Jackson Heights, 72 -42 Fifty – first في الطابق الثاني في عمارة كعمارات المدينة المنتشرة جنبا إلى جنب على طول الشارع Drive في بيت سعيد كانت الأمور ضيقة جداً عندما قدمت بحقيبتي الضخمة التي ما أردت تركها في المدرسة مبتعداً عن أمتعتي. لاشك أن وجودي كان عبئاً كبيراً لعمتي وأطفالها لكن لم يعطِ أحد أضعف شعور بذلك أو أني لست أهلاً وسهلاً ما أقدره اليوم بكل شكر. آبي وشارلي كانا يعملان في بنك وفي شركة تأمين ويزوران في المساء محاضرات في علوم الاقتصاد في جامعة نيويورك. دوروتي كانت تعمل سكرتيرة في مطبعة كبرى "روبن دونيللي" تنتج دليل هاتف، الثلاثة غادروا المنزل الساعة السابعة والنصف وعادوا في الثامنة أو التاسعة. اميلي بقيت في البيت قبل الظهر، تكلمت العربية مع نفسها، ضحكت بسرية غامضة، عملت الأسرة، ما عدا سريري الذي عملته بنفسي، في غرفة الطعام والمطبخ المشتركة تغلق وتفتح الأبواب دون خطط وبدت غير عابئة بضجة حولها. عندما تفتح الراديو غالباً محطة "WQXR" حيث كانت الإذاعة المتعجرفة تقاطع عزف بيانو لمشاهير العزف بالدعاية.

كانت اميلي تتأثر بالبث وتغني معه دون أن تعرف ماذا يغني . حوالي الساعة العاشرة تسألني إذا كنت أحتاج شيئاً للطعام وما إذا كنت سأذهب بنفسي للبراد . كانت تتوقف فجأة عن عملها - حين كانت تعمل الأسرة أو تنظف غرف الحمام وتذهب فجأة للمطبخ ليس لتهتم بشوؤن الطبخ بل بدا لي وكأنها تحرس كنزاً فيه وتفتقده.

عند الظهر كانت تنبه أنها سوف تغادر المنزل ما يعني بطريقة غير مباشرة أني لا يمكنني أن أبقى لوحدي في البيت . كنت أذهب غالباً بباص "وود سايد" إلى محطة المترو "جاكسون هايتس Jackson Heights ومنها إلى "تايمز سكوير Times Square" أتناول طعام غذائي اليومي "هوت دوغ HotDog" وأشرب عصير البرتقال عند "نيديك Nedick".

ثم أتجول أرى العرض الأسبوعي للأنباء ، أرى أفلاماً عتيقة ، أزور مكتبات ومتاحف ما كنت أفعله كل يوم . من دوروتي علمت أنه يمكن الحصول على بطاقات لدخول عروض تحذيرية وذهبت أحياناً إليها في مركز روكي فيلار قبل أن أعود بعد الظهر . في عيد الميلاد حصل اتصال هاتفي مع القاهرة ولأن والديّ كانا يرغبان التهنئة بعيد الميلاد كان نصيبي ضئيلاً لأسمع : "عيد سعيد حبيبي" لتنتهي المخابرة . أبي وأنا كنا معاً في أمسيات نهاية الأسبوع إذا لم يكن مرتبطاً بمواعيد الروتاري .ابن عمي كان منتسباً إلى كنيسة عربية - بروتستانتية في باي بيريدج Bay Ridge في بروكلين التي قدمت للجالية السورية أو ما كانوا يسمون : أرابوا أميركان مركزاً اجتماعياً . يجتمعون فيه لـ : حفلة hafla أكل ورقص مع الكبة والحمص.

آبي وأنا ذهبنا دون الآخرين وما كنت متحمساً لأن الـ: أرابو أميريكان كانوا كبار السن ويخصون عالم التجارة، بيع السجاد، خضار وموبيليا. كانوا غريبين يُذكرون بأشكال قصص Swiftsch: لهم بيوت صيفية في بوكونو Pocono، لغتهم العربية هزيلة من العشرينات مع قومية أمريكية مصطنعة. التعبير "العم سام" كان يتردد مراراً في أحاديثهم وتكلموا لآذان شاب فلسطيني خائب الأمل عن خطر الشيوعية متجاهلين خطر إسرائيل. النساء كانت ألبستهن مهملة وعلى ما بدا غير سعيدات لا يعشن في قراهن في فلسطين وغيرها بل ألقت بهن السفن على شواطئ بروكلين Brooklyn، بناتهن كن غير طبيعيات المظهر، يعلكن العلكة، بأصوات تصرع الآذان.

غالباً كنت وآبي نذهب لنرى أفلام عربية في ساحة اتلانتيك السبت والأربعاء ونعود في الرابعة صباحاً للبيت مرهقين تعبين. لكن التعب كان لي محرزاً حيث رأيت نعيمة عاكف، سامية جمال وتحية كاريوكا يرقصن وإسماعيل ياسين بفصوله الشيقة المجنونة. عند عودتنا في القطار على مقاعده المهتزة نتذكر لهجتهم المصرية ونشعر بالحنان للوطن. بعد ثلاث زيارات اكتفينا بهذا القدر. مرة خلال العطلة سافرت وحدي إلى "باي بريدج" إلى العمة سليمة والعم أمين بدر كانت امرأة جميلة جذابة صاحبة نكتة في الأربعين من العمر وهو أخو فارس بدر الأصغر يعيش منذ خمسين عاماً في الولايات المتحدة، رجل متزن شديد الأناقة، ما رأيت من قبل رجلاً ثنيات كوي بنطلونه تشبه حد السكين بقمصان بالغة الأناقة، كان في منتصف السبعين متقاعداً بعد ما عمل مندوباً لمخزن بيع غسيل السرير والمناشف. رغبة سليمة بالكلام وعدم احترامها من المبالغة بالفرق العمري بينها

وبين زوجها كان يسليني ويضفي جواً يختلف كلياً عن جو يومي في كوينس. دخول سليم لعائلة والدتي عبر الزواج رأيته كسم مضاد لواقع عائلة والدي "السعيدية" القليلة التلوين. زرت سليمة في مخزنها لبيع حمالات الثدي والـ: كورسيتات (لا أعرف التعبير العربي شبه قمصان لشد الجسم ليبدو أنحف) في "فورث آفينيو" تعمل مع موظفتين من الصباح حتى المساء. والدتي وإيفا مالك كانتا من زبائنها وسمعا شكاواها عن موظفيها يريدون دوماً رواتب أكثر وثماني ساعات يومياً "هاودي ما في لهجة اللبنانيين العامية، لهم أفكار شيوعية، أجابوها أنت رخوة تحتاجين قسوة والدك. ما حببها لي كان العشاء الوافر والسرير المريح في غرفة خاصة والسجال المرح مع "الصبي الكبير" كما سمت زوجها. في نافذة عرض مخزنها وضعت "بوبي" (هيكل امرأة لعرض الملابس) دون رأس وأطراف بثديين كبيرين تغطيهما حمالة صدر وردية اللون أسفلها لوحة كتب عليها: United we stand, divided we fall ما هو مكتوب على النقود الأمريكية. سألتني هل تعتقد أني لا أعرف ماذا أفعل، عمك أمين يرى هذا مرعباً، لا تفكر أني أسمع لما يقوله، لا يأتي للمخزن، لكن أنتظر حتى أعرض مجموعة الحمالات. في صباح اليوم التالي حين انطلقنا هي للعمل وأنا للعودة وضعت في حقيبتي علبة زيتون وكيس فطائر سبانخ عملته هي، بلغ تحياتي وخاصة آبي. سنوات بعد ذلك كنت أتطلع إليها "كأنثى الحمام" يقظة لا تستضعف، في مكان لا يناسبها بين السوريين في باي بريدج الذين يحاولون ابتزازها. كانت ذات طاقة نادرة، بالغة الميل للمرح، ما حافظ على ارتباطي بها لليوم رغم أنها تقضي حياتها التقاعدية في فلوريدا وتخلي الذاكرة عنها.

العزلة والوحدة العميقتان في ماونت هيرمون بعد ثلاثة أسابيع من عودتي بدتا لي أشد حدة. كنا مقبورين تحت كميات هائلة من الثلوج الأشجار كانت منطوية تحت وطأة ثقل الثلج والحرارة عند الصفر رغم إشعاع الشمس التي أضاءت المكان الذي بدا عفريتياً خالياً من البشر.

دون غطاء رأس ذهبت من المسكن إلى الدرس إلى قاعة الرياضة، إلى الطعام، لعنت بكل ما أوتيت من قوة العزل والعوائق التي أحاطت بي في كل مكان ما كنت لهذا السبب على استعداد لتلقي خبراً بعد الظهر بعد عودتي من درس الكيمياء للمعلم دكتور باول بومان. مراقب من مكتب المدير وقف في الباب واستقبلني قائلاً: دكتور روبن دال يريد الكلام معك وبينما كنت معه في طريقنا للدكتور روبن دال تساءلت ماذا فعلت مع علمي أن سلوكي في ماونت هيرموس لا تشوبه شائبة، لا يوجد تكتلات أو معلمون مكروهون ولا أوضاع سياسية متبدلة روبن دال كان الإنسان الوحيد المحبب ذا خبرة عالمية مفتوحاً يرجع ذلك لذكرياته الجميلة عن أيام القاهرة بمظهره الجذاب وحسن خلقه دون ثقل بورثة "مودي" وما كنت أتصور له علاقة بنيد إليكساندر رغم خلفيتهما القاهرية. سررت عندما كان روبن دال يلتقطني من الجمع قال لي "اد" مستعملاً اسمي المؤمرك كيف تمشي الأمور آمل أن تكون ماونت هيرمون تعجبك أجمل تحياتي لأهلك في القاهرة تعال مساء لعندي ما لم أفعل من قبل.

لطف هذا الرجل الحقيقي ودفئه ساعداني على تخطي الوحدة والعزلة رغم أني دخلت بيته خلال سنتين مرة واحدة.

روبن دال استقبلني بحرارة، قال سمعت لتوي من القاهرة، اد أهلك على ما يرام. الاحداث الجديدة مقلقة وعلى كل حال هم بخير. ما كنت أعرف عن ماذا يتكلم وسألت عن تفاصيل، حدثت قلاقل في القاهرة واشتعلت الحرائق في قسم كبير من المدينة ولا أحد يعرف من يقف خلف الأحداث تعال في الساعة السابعة عندنا وسوف نرى ماذا يرينا التلفزيون.

فعلت ذلك لكن الاستقبال في التلفزيون كان سيئاً، صور من جموع بشرية وأبنية تحترق بينها صور لمسؤولين حكوميين جنرالات وسياسيين وعلى الأخص صورة للملك فاروق قبل أن يتحول إلى وزن ١٥٠ كغ. كان الوقت مساء الاثنين والحرائق حصلت قبل يومين وبشكل ما استطاع والدي الاتصال بروبن دال. أصبت بصدمة ماذا يمكن أن يكون قد جرى لأهلي وربما لافتقادي مكاناً أعود إليه، علمت أن أحداثاً جرت فعلاً. مناظر التدمير على شاشة التلفزيون نحو عشرين ثانية كانت مروعة روبن دال وقف وزوجته مذعورين أمام التلفزيون. لا بد وأن هناك أسباباً للأحداث ما كنت لأعرفها في أيامي الماضية في القاهرة. جموع غاضبة، جواسيس أجانب ما كنت قادراً على شرح ما رأيته أو تفسيره. في اليوم التالي أمام مدخل البناء اكتشفت مرعوباً تقريباً بثلاث صفحات في جريدة "بوستن غلوب Boston Globe" تفاصيل عن أضرار يوم السبت الأسود كما اكتشفت اسم والدي. لأول مرة أخذ وجودنا في القاهرة شكلاً واقعياً مؤلماً. شركة ستاندارد ستاسيوناري للمواطن الأمريكي ويليام سعيد دمرت من الجموع الهائجة عندما مرت بشارع الملكة فريدة ودمرت في طريقها النادي البريطاني "تورف". وذكرت أمكنة أخرى معروفة مثل محل بيع كتب

موسيقي واسطوانات موسيقية كنت اشتريت أنا منها، مثل محل باباتسيانز، محل كوداك، صالون فيرت، غاتينغو على ما يبدو محلات أجنبية في قلب المدينة العصرية الكولونيالية، نقيب في الشرطة شجاع كان يتقدم جمعاً من الشرطة تصدى لجمع من المشاغبين في أول جسر قصر النيل المؤدي للزمالك وأوقفهم (ما لبث أن صرف عن الخدمة كما دريت لاحقاً). وكانت الأحداث في وسط حينا. لم أستوعب كل ما حدث رغم رسالة والدتي بعد عشرة أيام التي تحوي ثقوباً. ذكرت في رسالتها أن فرع "ب" من محلاتنا دُمر، بعد ذلك بشهر أرسلت لي صوراً ترى الأضرار الناجمة. كان يُرى فيها بعض الطاولات المكسرة وكراسي شُوه منظرها وبينهم آلات كاتبة، آلة نسخ ماركة إلماس، خزانة كبيرة غير محطمة استعمل والدي صورتها لاحقاً لغرض الدعاية.

هذا إلى جانب كميات كبيرة من الورق المحترق والدتي علقت حزينة لأن والدي حينذاك عوض عمتي وأولاد العم بمبالغ طائلة بسبب انسحابهم من أعماله (لا أعرف كيف ومن أين حصل على المبالغ). وبهذا كان وحده يتحمل المسؤولية لمحلاته المدمرة. حسناً لا بأس (قالت والدتي) قال لمدير أعماله لامباس علينا أن نشمر ذراعينا ونبدأ من جديد. "أن نشمر ذراعينا" قولاً بقي في ذاكرتي ٤٦ عاماً وهذا ما كانوا قد عملوه. مع عدد من المساعدين رمموا الأنقاض وأعلنوا أن المحلات سوف تدار من المكتب المجاور الذي لم يلحق به أضرار. دبر القروض اللازمة من البنوك إضافة إلى تعويض من لجنة حكومية أسست لهذا الغرض وأعيد البناء بشكل أكبر وأضخم. لما عدت للبيت لقضاء عطلة في شهرة حزيران لم يعد يبقى آثار للدمار الذي حصل في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ التي أحدثها

على ما يُعتقد الإخوان المسلمون، إلا صوراً للأنقاض وضعها والدي في إطارات وعلقها خلف الخزانة في مكتبه. كان في هذا الجازٌ فوق طاقة بشرية وما سمعت يوماً والدي يشكو أو يأسف للأضرار أو للخسارات التي مني بها ولا عن الأبعاد الكارثية التي ألمت به. الرسائل كانت تصل كالمعتاد في نفس الوقت كل أسبوعين كما ولو أن أمراً ما لم يحدث. ما عدا ما ورد من بضائع أمريكية وأوروبية وردت بالبريد السريع لشركة والدي: SSCo ربما كنت أبحث عن أسرار قوته البالغة حين شكوت في رسالة لوالدتي أن رسائله كانت روتينية متشابهة وكأنها أمليت وكتبت ليوقعها بـ: وأ. سعيد مع فائق الاحترام.

ما كنت أفهم لماذا لا يكتب رسالة شخصية، تثقلني الهموم لما يعانيه من ضغوط وأتمنى إشارة إنسانية روحية تدعمني. في رسالة لاحقة بعد أسبوعين جاء فيها: إدوارد العزيز في خط رديء، والدتك قالت إنك لا تحب رسائلي المكتوبة بالآلة الكاتبة لكني مشغول جداً كما تتخيل وهذه رسالة لك مكتوبة بخط يدي. احتفظت بالرسالة عشرين عاماً لأنها جسدت العلاقة بيننا. كان يتصور أن الشعور والتعبير ليسا سواء وغير متشابهين وإذا تشابها لا تكون الأمور على ما يرام. احتفظ بمشاعره لنفسه وأقصر قواه على ما فعل وحتى ذلك بالصمت وبطابعه الخاص.

والدي كان طول حياته لا يفصح عن ممتلكاته وأحواله المالية حتى اضطر "تحت عبء الديون التي اقترضها من البنوك لإعادة البناء" للتكلم عن ذلك. عند احتياجات مالية، كان يقول هل ترون مقدار الديون؟. في الواقع أثقلتنا الديون لمدة ثلاث أو أربع سنوات. دخلت مرة مكتبه بعد الظهر وقرأت تقرير نهاية السنة

الضريبي الممل. فوجئت بآلاف الجنيهات التي تم التداول بها في ربع سنة. وعندما تكلمت معه عن الموضوع أجاب بنوع من الازدراء: ادوارد لا تتكلم بغباء سوف تتعلم في المستقبل قراءة الـ: بيلانتز (ميزانية التقرير السنوي عن الأرباح والتكاليف والخسائر)، حتى ذلك الوقت اهتم بدراستك واترك العمل التجاري لي.

لكن أموراً ما كان المرء ليراها، والداي أقاما في منتصف الخمسينات حفلات ضخمة (بارتي) اشتروا أشياء جميلة، خرجوا من البيت في شارع عزيز عثمان قطنوا في بيت أكبر وأفخم في منطقة السفارات ورغم ذلك لم تتوقف شكاواه من ثقل الديون.

في بدء أو في ربيع عام ١٩٥٢ تغلبت على شعور الوحدة وعلى فراق والدتي وغرفتي والأحداث وصخب محيطي القاهري، تقدمت إلى الأمام بغير "أنا" أقل عاطفية ولما شُخص عندي، أربعين عاماً، بعد ذلك مرض "اللوكيميا" ووقعت في مخالب المرض وسارت أفكاري حول الآلام القادمة والموت بدأت مرحلة جديدة. أكثر الخوف كان بفراق عائلتي التي كنت أحبها وعمارة حياتي عندما بدا واضحاً كل الوضوح أن هذه الحقيقة المعتمة احتلت مركز شعوري وإصابته بالشلل، استطعت تقصي الأبعاد ما ساعدني رؤية الحدود وتحديدها. سرعان ما رأيت أنه عليّ اختراق جدار الشلل وتركيزي على أمور أخرى أوضح معينة مثل السرور بما أتوصل له في مجال الموسيقى أو بملاقاة صديق. لازلت أستشعر بقية من الشعور بالأذى عبر المرض والموت ما تملكني عندما اكتشفت وضعي لكنني أعتبر كما في الماضي اللجوئي، كل أحداث اليوم وساعاته وحتى انشغالي بمرضي أموراً عابرة مؤقتة. من هذا المنطلق أُخمن ماذا أفعل، أي نشاطات أتابعها أكملها واستمتع

بها . في ماونت هيرمون لم أفقد الشعور بالتجنب والتذمر لكني تعلمت تقليص آثار ذلك إلى الحد الأدنى ، نسيت وانقضت علي أشياء كانت تمتعني . أغلبها ليست كلها كانت ثقافية النوع . في السنة الأولى كان علينا أن نعمل دورة ، فكرة دكتور مودي ، لجعلنا متدينين. لم يستخدم في ذلك فقط ما جاء مما حضرته للكونفيرماسيون (ذكرت سابقاً معنى الكونفيرماسيون ولأسفي لا أعرف التعبير العربي وهو حدث في مرحلة معينة من الطفولة عند البروتستانت يشبه التعميد عند الكاثوليك) ، بل اتبع شرح أصولي للعهد القديم ما كنت لأتصوره . آموس ، هوزيا ، يسايا ، وميشا بقوا في ذاكرتي . قرأنا النصوص معاً بحذافيرها . لو لم تكن إنجازاتي جيدة لكان معلم الإنجيل شيستروواندسو معلمي أيضاً في السنة الثانية .

بدلاً من ذلك سمح لي بتسجيل دورة الإنجيل الرابعة التي تلاها قسيس المدرسة ومدرب سباحة "ريفيريند وايت ز" . بسبب بدانته وشعره الأحمر ومظهره المرح سمي من الجميع "الأخ توك" . كنت في السابعة عشرة تمتعنا بدورة في الفلسفة الكلاسيكية لبلاتو وأريستوتيليس من حقبة "التوضيح (تعبير لاهوتي مسيحي يعني شرح أو توضيح) حتى كيركيغارد Kierkegaard (فيلسوف وعالم لاهوت دانماركي ولد في عام ١٨١٣ في كوبنهاغن وتوفي فيها في عام ١٨٥٥) .

كرياضي ما أتيح لي أن أكون نجماً لامعاً رغم جهدي في هذا المضمار . كان لي موضعي في فرق السباحة والتنس وربحت أيضاً في مسابقات وألعاب لكن الصراع على التفوق كان يصيبني بالغثيان . في ربيع أول سنة ذهب كابتن

مجمع الطلبة عند طعام الغذاء من طاولة إلى طاولة ووضع ورقات تحت الصحون. تحت صحني كان رقمان ١٤ و١٥٧ كان ذلك تصنيفي أكثر ما توقعت. في السنة الثانية صنف بين الرقم الأول والثاني. رغم ذلك وفي نهاية عطلة الصيف في ضهور شوير وفي الليلة الأخيرة رجوت أهلي أن لا يرسلوني من جديد إلى الولايات المتحدة.

السفر كان محتوماً وسافرنا في الصباح الباكر وبصمت مطلق إلى بيروت. بعد وصولي إلى ماونت هيرمون كلفت بمهمة كريهة وهي كوي القمصان في مغسلة المدرسة لكن بسبب نجاحي المدرسي واعتراضي كلفت بمهمة أفضل في المكتبة. في منتصف السنة الثانية عندما شُغلنا بتقديم طلبات الكولج تأكدت أنه لا عودة للقاهرة. حسدت أخواتي في مدرستهن الإنكليزية في القاهرة لأنهن معاً ولأنهن في البيت ما نعمت فيه بالعطلة. في شهر تموز قامت ثورة الضباط في القاهرة ١٩٥٢ لكن طالما كان على رأسها محمد نجيب مدخن الغليون وشبيه العم، الملك كان أبعد لإيطاليا، كان لي ولأهلي ولأصدقائهم الشعور أن المرحلة لا تختلف عن سابقتها لكن الآن ضباط شباب جديون قاموا بها ما يبعث على الأمل أن يضعوا حداً للفساد والرشوة. مجتمعنا الصغير ديرليكس، غوررا، ميرشاك، فهوم كلهم شوام جنوا كثيراً من المال واستمتعوا بالغناء والرخاء تابعوا حياتهم وكأن أمراً لم يحدث وبعد أن قضينا أسابيع حزيران ونصف شهر تموز في القاهرة انتقلنا كالمعتاد إلى ضهور شوير. خلال الصيف ألفت حياتي المصرية دون أفكار وقعت في شباكها فور وصولي للقاهرة، بينما حياتي الأمريكية كانت واقعية مستقلة دون علاقة

بالقاهرة بعائلتي، بالعادات المألوفة والعوامل المريحة التي هيأتها والدتي لي. في يوم ربيع جميل بعد الظهر من عام ١٩٥٣ اتصل بي زميلي بالغرفة بوب ساليسبورغ وأبلغني أن أجوبة المسابقات لدخول الجامعة وصلت. ركضت للبريد ووجدت أن جامعات برينسيتون وهارفارد قبلت انتسابي.

عن هارفارد ما كنت أعلم شيئاً أو أتصوره ما عدا الانطباع الأنيق الذي وصفه لي "سكيدي فون شتادي Skiddy Von Stade" الذي خلفه عند زيارته للجامعة شخصياً عندما قدم طلبه هناك.

عندما عدت لملعب التنس بالرسالة قال لي المدرب نيد اليكساندر: جيد والآن يمكنك اللعب في الفصل الأول في فريق جامعة هارفارد.

لكن حين انظر إلى الوراء أرى أني لأسباب غريبة وليست ذات معنى قررت الذهاب إلى جامعة برينسيتون التي كنت زرتها مع والدي في الصيف قبل انتسابي للمدرسة في ماونت هيرمون. كنا سافرنا إليها من نيويورك لنزور أقارب لجيراننا في ضهور شوير. رغم أنني لم أرهم من جديد كان حضورهم وبعد الظهر الممتع عندهم مع التبولة ومحشي اليبرق ما جذبني إلى برينسيتون. في خيالي السطحي بدت لي برينسيتون كالمكان العكسي من ماونت هيرمون.

ما كان يقع في نيو انغلاند، فيه أشياء جاذبة وليست متقشفة وكأنه يعكس القاهرة في الولايات المتحدة (لا أعرف إذا كنت وفقت باختيار التعبير "متقشف" ويقصد به فقير بسيط).

بعد شهر علمت أن والدي متحملاً النفقات الباهظة سوف يأتي من القاهرة لحضور حفل التخرج وبعده سوف يتجول معي ومع أولاد العم آبي

وشارلي بسيارتهم الفورد موديل ١٩٥١ عبر نيو انغلاند. هذه الجولة سوف تكون هدية تخرجي. خلال أسابيعي الأخيرة في ماونت هيرمون بدا لي أني تميزت بنشاطين ورغم ذلك احتفظت بصفتي الانعزالية. حزت على الاعتراف بالفوز في سباقات السباحة ومسابقة التنس، برزت في عملي المدرسي وأصبحت عازف بيانو بامتياز.

رغم ذلك لم أكن التمثال المعنوي ولا يخطر على بالي غير تعبير. اعتبرت كرأس ذكي وكتلميذ ذي ماضٍ غير معتاد، ولكنني لم أكن من لب الجمع في المدرسة، شيئاً ما كان متوفراً، الالتزام الصحيح. وجد تلاميذ مثل دالي كونلي أو غوردي روب وفريد فيشر من صفي على عكسي وعكس بريغر لم تكن لهم أية عيوب، لم يلقوا رفضاً، كانوا محبوبين مع الموهبة ولم يعملوا أو يقولوا شيئاً ما خطأ أو يسيئوا لأحد كانوا مؤهلين لوظائف شرف ككابتن فرقة أو عضو في مجلس المستشارين متحدثي الطابق أو مسؤولي الطاولة في قاعة الطعام. كل هذا لم يكن له علاقة بذكائهم أو إنجازاتهم المدرسية، ما كان أعلى من الوسط لكن ليس بامتياز. لكنهم بدوا وكأنهم محاطون بموجة غير مرئية من الجاذبية ما كان ينقصني. هذا بينما لم يكونوا محببين عند المعلمين أو مفضلين ولم تكن لهم مظاهر خارجية مميزة ولم يكونوا أريستوقراطيين أو أغنياء كما كان ممكناً في العالم الذي أتيت منه. أسبوع قبل حفل التخرج طرق بابي فريد فيشر عضو المجلس الاستشاري للتلاميذ ومعي في فريق السباحة وكان متحدث الطابق ومن عداد المتفوقين في المدرسة.

ساليسبوري وأنا كنا جالسين كما أذكر نحضر وظائفنا. رغم أني كنت قبل نهاية السنة مجبراً على "البقاء في الغرفة ساعات المساء بينما هو كان يتجول في المبنى كيف يشاء كمتحدث الطابق. "هاي فوتز" قال لي كان تعبيراً لطيفاً حينذاك ومحبوباً الست الأول أو الثاني في الصف حسب العلامات، أجبته أجل انقلب الأمر بيني وبين راي بيرني حالياً هو الأول لكني لست متأكداً فسأل لماذا.

فيشر الذي جلس على سريري كان مبتهجاً، قال ما كنت أبداً أحسن من السادس أو السابع في الصف لكنهم قالوا لي للتو أنه عليّ أن ألقي كلمة الترحيب وبرين سوف يلقي كلمة الوداع.

لم أفهم الأمر، بلبلة ومفاجأة فيشر لترفيعه كان جدياً أما أنا فقد كنت وكأني أصبت بالصاعقة ما كان بوسعي أن أرد على فيشر وغادر الغرفة مذعوراً محتاراً. ما رأيته في انطباع وجهه كان لي حق بهذا التشريف حسب قناعتي ما لم يحققوه لي لكني تأكدت أنهم لن يتحيوا لي هذه الفرصة، كنت مهاناً وما تحملت هذا الغبن غبن اللا عدالة وما كان بوسعي الاعتراض أو القبول.

بخلاف فيشر ما كنت مواطناً صالحاً أو قيادياً لا متديناً أو مقبولاً تأكدت أنه علي أن أبقى على الهامش رغم ما أنجزت. في هذه اللحظة كنت متأكداً أن انتمائي لقسم من العالم الذي يجد نفسه في تقلبات تحول إلى رمز جعلني في المكان الخطأ. مدرسة ماونت هيرمون كان أغلب تلاميذها بيضاً، وجد سود بعدد الأصابع رياضيون موهوبون كالموسيقي والمثقف راندي بيتون لكن كل المعلمين بدون استثناء كانوا بيضاً يحملون قناعاً أبيض مثل اليكساندر. حتى ترقية فيشر شعرت بنفسي دون لون لكني أجبرت أن أشعر أني هامشي، غير أمريكي، غريب بينما كان العالم العربي يلعب دوراً

مهماً في الحياة الأمريكية. جلست في حفل التخرج بملل بالقبعة و"التالار" (عباءة التخرج) شعرت باللامبالاة التي وصلت للعدائية، هذا كان احتفالهم وليس احتفالي رغم حصولي على مكافأة في البيولوجي مع قناعتي أنها كانت مكافأة ترضوية، والدي الذي أتى للحفل لا أشك أنه شعر بخيبة الأمل ظهر مرحاً ومُشرَفاً، كان طليق الكلام بغير عادته دون والدتي التي بقيت في البيت بسبب أخواتي. بدا وكأنه لا يفتقد وجود والدتي من ناحية اجتماعية وكان منفتحاً قضى أغلب الوقت يتحدث مع والد بريغر أستاذ جامعي في "هاني مان ميديكال سكول". مفتاح رضاء والدي بدا لي ارتياحه مع المدرسة التي صنعت مني في النهاية مواطناً مع تخرج. في الحفل اللاحق في الحديقة كان يحمل باكيتاً كبيراً دائري الشكل.

كان مبتهجاً بالقرب من "روبندال" الذي سحر الجميع بلباقته وجمال كلامه، روبندال نظر لي ولوالدي قائلاً: أمر جميل أن تتحمل مشاق السفر وتأتي من القاهرة لهذا الحفل للأسف أن السيدة سعيد لم تستطع الحضور، أليس رائعاً كيف ختم "اد" المدرسة. في هذه اللحظة بدأ والدي باضطراب وعجلة يمزق الأوراق التي غلفت الباكيت ليستخرج صحناً فضياً مزخرفاً منقوشاً كان ووالدتي طلبوه من مختص في بازار القاهرة. في أحسن شكل تقديمي قدمه لروبندال الذي طغى عليه السرور. زوجتي وأنا نقدم لك هذا الصحن كعرفان بالجميل لما فعلته من أجل ادوارد. أنا كنت مضطرباً، الهدية والكلمات كانتا في غاية المبالغة ليس فقط لأن روبندال وأمثاله لم يعتبروني كفءاً للتقدير. أسبوع كامل سافرت ووالدي وآبي وشارلي الذي كان يقود السيارة دوماً، أمكنة مثل كيني Keene في Hampshier

وبوستن ووالدي كان يدفع كل التكاليف كانت تلك طريقته أن يعوض للشابين وقتهم وعناءهم أردت العودة بالسرعة الممكنة إلى القاهرة وإلى البيت، سئمت من الموتيلات (شبه فنادق على طرق السفر) وبيوت الطلاب حتى بعد أسبوعين في فندق ستانهوب Stanhope في نيويورك شعرت بالحاجة الملحة للعودة للقاهرة التي كنت غادرتها قبل سنتين.

الفصل العاشر

العودة من الصيف إلى القاهرة كانت تعني دوماً العودة إلى ضهور شوير ومنذ سنتي الأولى في برينستون تعني ضهور في نفس الوقت ايفا عماد واعتمدت على وجودها هناك .

بالنظر إلى ما حدث في لبنان "بضع سنوات لاحقاً" الحرب الأهلية في ١٩٥٨ ، عقود السبعينات والثمانينات الفلسطينية ، الحرب الكارثية الأهلية في السبعة عشر عاماً بعد ١٩٧٥ ، غزو إسرائيل عام ١٩٨٢ ، شابت إقامتنا في ضهور ، أطالت أحلامنا النهارية في مدارها كان تطور علاقاتي مع إيفا عماد ، ما حدث أمر كان ليحول أنظاري عنها أن يقلل من التفكير بها ، كنت أغلب الأيام معها ما عدا أيام الأحد . جذبنا لبعضنا البعض دون أن ندري ، لعبنا دائماً زوجياً (يقصد في لعب التنس) ، جلسنا إلى جنب بعضنا ، كنا شركاء في لعب الـ : ترامب (شكل آخر من لعب البريدج) ، تبادلنا كلمات خصوصية ، ايفا كامرأة شابة من عائلة عربية محافظة كانت متحفظة ، ذات سلوك حسن سليم ، كما توجب في منتصف الخمسينات لنساء في عمرها . أتمت تعليمها العالي هدفها كان الزواج ولم تكن تطمح بأمر آخر .

جذبتني أكثر من أية امرأة من قبل، لكن مستقبلنا ما لعب دوراً في أحلامي النهارية أو خططي. في مجرى أربع صيفيات شعرت أكثر فأكثر بالميل لها لكني ما كنت في وضع أستطيع أن أفصح عنه في أحاديثنا اليومية. كان في علاقتنا جاذبية ممنوع التقرب منها بالكلام أو بالقرب الجسدي.

كانت دائماً تسيطر عليّ الرغبة أن أراها كل يوم وأبحث عن قربها متلمساً عما إذا كانت هي تكن تجاهي نفس المشاعر. ميلنا لبعضنا البعض الصامت المخنوق كان جلياً للغير رغم تنويه جانبي عابر.

مثلاً سألت نيلي هل لعب ايفا وادوارد زوجياً (لا أعرف التعبير العربي وهو حين يلعب زوجان تينس في وقت واحد)، هل رأت ايفا مضربك الجديد، ايفا تجلس هناك وهكذا.

لم يكن أحد من عائلتينا ليعلم بالأمر. رغم أننا كنا تسعة أشهر بالسنة بعيدين عن بعض هي في طنطا وأنا في برينسيتون، تابعنا كل مرة صداقتنا في ضهور. كما لو كنا ودعنا بعضنا البعض بيوم قبل ذلك، تراسلنا بشكل غير منتظم، حملت رسائلها في جيوبي آملاً أن أكون أقرب لها. كان متوقعاً أن تدري والدتي بالأمر، أذكر أن والدي تحدث مرة عن عمر ايفا وقال عندما تكون في عز شبابك تكون ايفا في الستين من العمر هل تعرف ماذا يعني هذا.

وأضاف طالما أنت أعزب تدعى دوماً، ولما تتزوج لا يعود ينظر إليك أحد. كنت أعرف موقفه واختلف عن موقف والدتي. في البدء كانت حذرة يطغى عليها فضول حيادي ليأخذ شكلاً متحدياً وبصوت مختلف مثلاً عندما

سألت : بالتأكيد كانت ايفا حاضرة لتبدو ايفا في نظرها وكأنها تخطت الحدود ، ماذا يفكر أهلها عندما يدرون أنها تقضي أوقاتها مع شاب مثلك، ألا يلاحظون ذلك أن ايفا تعطل فرصها أن تجد يوماً زوجاً لها .

ثلاث سنوات خلال تطور علاقتي المتعثرة بالعوائق مع ايفا أني يجب أن أتجنب كل حديث مع والدتي بهذا الخصوص وأتجاهل أسئلتها غير المرغوبة عن ايفا ، عمرها ، مذهبها (كانت أرثوذكسية) كما كانت "فرانكوفنيتها" تقلق والدتي (الفرانكوفونية هي التعلق بكل ما هو فرنسي أو تقليده) وما كنت أتصور أنها مبدئياً ضد علاقتنا . في صيف ١٩٥٦ كنت في العشرين من عمري وايفا في السابعة والعشرين وكان نادي طبارة عمل نزهة إلى شاطئ بيروت . اختلف ذلك عن نزهاتنا العائلية في السنوات السابقة ما كان الأهل موجودين وكما كان واجباً التقيد بالوقت .

كان هدف النزهة يومها مسبح "ايدن روك Eden Roc" مسبح كلوي الشكل بطابع كاليفورني يخص مطعم ونادي ليلي "بيغن روك Pigeon Rock" وبني تحته ناد رياضي في الصخر . ما عدا مقهى جميل وبار . كثرت الخلجان (جمع خليج) وكان من الممكن استئجار قارب والتجول عبر البحر . اقترحت على ايفا جولة في القارب وكان البحر هادئاً والشمس ساطعة، السماء زرقاء يحوم حول هذا كله جو خيالي كالأحلام . ايفا كانت تلبس بذلة السباحة وبدت أكثر جاذبية وجمالاً من ذي قبل لون بشرتها كان بنياً ، أكتافها مدورة ، سيقان جميلة الخلق والشكل ووجه ليس جميلاً فقط بل جذاب جاذبية لا يمكن التصدي لها . تحت سطح صخري تعانقنا للمرة الأولى ، كل مشاعري

انطلقت وشرحنا لبعضنا البعض الحب والذي كان أشبه بإيحاء عبر عن بعدنا وحنيننا المكبوتين في سنواتنا الماضية. فوجئت من قوة عواطفي الكامنة.

عدنا بعد الظهر لضهور وتقابلنا في المساء مع بقية الفرقة في سينما "سيتي" حيث جلسنا جنب بعضنا نهمس دوماً عن حبنا وعواطفنا. تحت أعين الكل ودّعنا بعضنا في نهاية الفلم وذهبت هي مع نيللي. في اليوم التالي توجب عليّ السفر وأن لا أراها لمدة تسعة أشهر.

عندما صعدت مع أختي روزي للسيارة شعرت بألم شديد في المعدة وفي اليوم التالي عاينني الطبيب دون أن يجد سبباً وأعطاني تقريراً لجامعة برينسيتون يؤجل التحاقي أسبوعاً كاملاً. هل كان السبب فراقي لإيفا لا أعرف، ما أعرفه أني ما كنت أقبل الفراق والابتعاد عن ايفا.

بعدما عدت من مساءٍ مع ايفا إلى البيت آخر مساء، كانت والدتي تنتظرني في غرفة الجلوس. فراغ الغرفة السابق برز أجمل بمقاعد جديدة، الأرض غطيت بسجاد عجمي والجدران تغطيها لوحات لمشاهد لبنانية اشترتها والدتي من بيروت. قالت إنها كانت مشغولة البال لأني تأخرت في العودة للبيت لاسيما وشوارع ضهور فارغة وسيئة الإضاءة رغم اضطراري للاستيقاظ باكراً في اليوم التالي لأبدأ رحلة العشرين ساعة إلى نيويورك. صوتها أخفى شيئاً من التعنيف عندما سألت أين كنت وما كنت جاهزاً أين كنت ومتى أخرج ومتى أعود؟ جاوبتها جواباً قصيراً مقتضباً لأني أردت حماية ايفا وعادت العادة القديمة بالشعور بالأذى، اعتقد أنك قبلتها وحولت بسؤالها تأثري بمشاعر الحب إلى شعور بالذنب.

تكلمت باحتقار كعادتها عندما يتعلق الأمر بشؤون غرامية أو جنسية، تفاعلت بغضب قلت لها أن الموضوع لا يخصها، تناقض والدتي أطلق عنانه. حبها لي كانت نتيجته كما رأيت أن أية علاقة غرامية لي يضعف نفوذها بالسيطرة عليّ. رغم احتقارها للجنس، كانت على قناعة كلية بضرورة الزواج. بقيت سنتين بعد ذلك أُحب ايفا وأتعلق بها رغم رفضي الطفولي الاعتراف بأن نتيجة الحب هي الزواج. عندما أنهيت دراستي في برينسيتون في عام ١٩٥٧ ترتب علي الإقامة في مصر لأحضر دكتوراه لجامعة هارفارد. ايفا عاشت في الإسكندرية مع أختها التي أصبحت منذ فترة أرملة وزرتها هناك تحت حجة تفويض تجاري لوالدي. علاقاتنا الجسدية كانت عنيفة الرغبة لكنها لم تحدث لاعتقادنا أن حال حدوثها يتوجب علينا الزواج.

بحساسيتها العميقة وحبها كما رأيت في عيونها كانت تحافظ على نفسها وما أرادت تحميلي المسؤولية. طيلة تعلقنا ومقابلاتنا السرية زاد إعجابي بقوتها وذكائها، بثقافتها وجاذبية جسمها. كانت تتابع بشوق وصبر واهتمام عندما كنت أتحدث معها عن مواضيع أقرؤها أو اطلعت عليها. كشريك في الحديث أخذت مكان والدتي وكانت والدتي لاحظت أن سمعي واهتمامي لم يعودا يتوجهان صوبها بل صوب امرأة أخرى. سنة بعد ذلك تبدلت أساليب حياتنا وتباعدت المسافات الفارقة بيننا، أنا دكتوراند (محضر دكتوراه) في هارفارد وهي آخر سيدة تزوجت من عائلتها في طنطا والإسكندرية.

نادراً ما رأينا بعضنا بعد ذلك، سعادتي اختفت بنفس القدر ما تصورت بآثار على حياة ايفا إذا ما تزوجنا. عائلتها جعلت حياتها صعبة غير مطاقة

وسمحت لها ليس طوعاً بالهرب إلى روما لبضعة أشهر حيث درست تاريخ الفنون واللغة الإيطالية. خلال عودة لمصر كما قالت لي ايفا قررت مشككة أن تزور والدتي في القاهرة وتطلب موافقتها. عندما وصلت ايفا للقاهرة كنت أنا في هارفارد. والدتي استقبلتها بحفاوة قلبية وبكل ما دريت به من ايفا ومن أخواتي كانت والدتي في غاية السيطرة على النفس. بدأت ايفا حديثها عن حبها لي سائلة والدتي عن اعتراضاتها وأسبابها، قامت بدورها بجدية مقنعة. كما روت والدتي لاحقاً سمعت بصبر والمشاركة بالمشاعر.

ثم قالت والدتي لها أنت سيدة رائعة والمشكلة ليست في طرفك، بل في طرف ادوارد.

أنت أفضل منه، ختم للتو دراسته الجامعية ولا يعرف ماذا سيفعل وإذا نظرنا إلى توجهاته سوف يبقى يدرس دائماً لسنوات أو يعيش يومه ولن يستطيع إعالة نفسه بغض النظر عن إعالة زوجة وأطفال. أجابت ايفا أنها تملك من المال أكثر ما يكفينا معاً لكن والدتي فضلت أن تتجاوز هذه النقطة وقالت لها أنت سيدة ناضجة مثقفة تنتظرها حياة ترضيها، ادوارد ولدي الذي أحبه لكن أستطيع تقويمه بشكل مجرد أعرفه حق المعرفة "ليس مقلقاً" تنقصه قدرة التركيز قليل الانتباه ما يقلقني وبصراحة تثقلني هموم عن مستقبله وما يتوصل له أنصحك أن لا تضعي آمالاً به بكل ضمير رغم ما أعرف ما يكمن فيه. لماذا تريدي أن تضعي مستقبلك في يديه في يد إنسان متقلب غير متوازن، اسمعي نصيحتي ايفا، لابد وأن تصلي لمستقبل أفضل.

عندما واجهت والدتي بهذه التهم كان من الصعب تحديد أية تهمة أصابتني أكثر أذتني وأهانتني. على كل حال سحبت البساط بتفاعلها مع الموضوع من تحت أقدام ايفا. ايفا كانت تتوقع أن تحدثها والدتي عن مزايا ابنها بينما تطلب الوضع أن تدافع هي عن نفسها.

أغضبني ما أصرت عليه والدتي وتكراراً "إنها هي وحدها من خلفية حبها لي" تعرف من أنا بالفعل، كيف كنت وسأبقى كما كنت. أعرف ابني تعودت أن تقول وبسمرتني باستيائها ومعرفتها المؤكدة مَنْ سوف أكون في المستقبل؟ كل محاولة للتشكيك بمشاعرها الآتية من عوامل خارجية باءت بالفشل. ما كنت أبغي ليونة في مواقفها وأمّلت أن ترى أني تغيرت وعليها هي أن تغير أحكامها التي خلطتها مرة بثقتها وأخرى برخاء غير قابل للاختراق عندما وضعت ابنها، للأبد، في قفص المسبقات التي هي أول من عرفها ودونها.

في نفس الوقت شعرت بارتياح أن والدتي عطلت خطط ايفا الزواجية. انجاز والدتي أنها أعادتني لحضنها حيث واصلت التشمس في حبها كيف كان الأمر غريباً وغير مرضي وسلطت ضوءاً على علاقتي مع ايفا، لماذا توجب علي تحمل مسؤولية عائلة في هذا الوقت. أما قالت والدتي إن الزواج يمثل حالة غير سرورية "دائمة" وأبدية. لماذا لا يمكنني وايفا أن نبقى أصدقاء. إضافة لذلك أختي وراء تحذير والدتي قبول علاقات بعيدة عن الجدية ومخاوف الزواج وإبقاء علاقتها بي وتسلطها غير ملموس. بعد بضع سنوات أرتني والدتي إعلاناً من جريدة الأهرام عن زواج ايفا من ابن عمها.

افترضت أن ايفا علمت بعلاقتي مع امرأة أخرى ما دعاها للتفكير بالزواج ما كان فعلاً في نفس الأسبوع الذي قرأت فيه خبر زواج ايفا . كون زواجي الأول لم يدم طويلاً وما كان سعيداً زاد في شعوري المقيت أني لم أكن كفؤاً لايفا . لم أرها منذ أربعين عاماً .

في شهر أيار ١٩٦١ أجريت عملية لوالدي استئصلت فيها نتوءات عظمية في أسفل الساق (لا أعرف الاسم العربي ، في أسفل الساق على اليمين) وكان على مر سنوات يستشير أطباء مختلفين في مصر ولبنان والولايات المتحدة والدكتور فريد حداد كان الوحيد الذي نصحه باستئصالها وكان يؤجل الأمر حتى نمت وأصيبت بالالتهاب وسببت له آلاماً . ذهب لبيروت ليجري العملية في مستشفى الجامعة الأمريكية ، كنت يومذاك في الخامسة والعشرين من العمر فترة وجيزة قبل تخرجي من جامعة هارفارد . في مجرى الأسبوع علم والدي بعد فحص شريحة نسيجية أنه مصاب بـ : ميلانوم (ورم قتامني خبيث) بدأ ينتج خلايا خبيثة تنتشر بالجسم .

لهذا السبب أجرى طبيب جراح مشهور سامي عبيد "الذي كنا نعرف أهله من ضهور شوير" عملية على الساق بجرح أعمق جعلت والدي يعرج كما استأصل الطبيب عقداً لمفية .

بعد ظهر أحد الأيام وقفت ومنير نصار (اختصاصي بأمراض القلب) أمام بيتنا في ضهور أمام شجرة كرز مثمرة وشرح لي مخاطر الميلانوم . طلبت تأكيداً للتشخيص وحصلت عليه ، سألت منير إذا كان هذا يعني الموت لوالدي . قرأت في تلك الفترة كتباً لـ : كونراد وفيكو وهايداغر وغيرهم من

كتاب بكتب غير مفرحة أخذت منذ ذلك الوقت مكانها في حياتي الثقافية ورغم ذلك كنت مذعوراً من النبأ، من العلاج بالأشعة كما من مضاعفات مرتقبة. مندفعاً من فضول مرضي مما شاهدته في المتحف الزراعي في القاهرة من أشكال سمعية عن أمراض مشوهة، سألت منير عن حظ والدي بالبقاء على قيد الحياة، ولم يعطني جواباً وبعد إصراري أجاب بصوت خافت "ربما" ١٩٤٢ و١٩٤٨ أقلقني مرض والدي ومن حسن حظي لم أكن أستوعب مداه وما كان لديّ أي تصور عن الموت أو عن مرض مرهق، أعرف أني وقفت على بعد واهٍ من مرضه قلقاً لكن مبتعد.

هذه المرة تصورت نفسي أمام غزو لجسده من خلايا خبيثة تسبب له الألم وتبعثر أعضاءه، دماغه عيونه وآذانه وحلقه. بدا وكأن عواميد حياتي بدأت تتزعزع ووجدت نفسي في فراغ كبير. شعرت أن الارتباط الجسدي بيني وبينه انفصل وبقيت غير محمي معرضاً للأذى رغم ما جسده من فروض وتحذيرات تضايقني، ماذا سيحل بي دونه، ماذا سوف يحل محل هذا المزيج من القوة والإرادة المتكاملة التي كانت تمسكني وكنت أغرف منها دون أن أدري، لماذا تصورت موته مرعباً كتعاسة غير مرجوة رغم ما فيها من تحرر لي لازالت هناك فرصة أن ينجو من مرضه ويبقى على قيد الحياة، كنت أسأل منير متوسلاً، قال أرى كما ترى سوف يكون له الحظ بعد شفائه، حظ الحياة، لكن الميلانوم خبيث ينتظر الفرص، ابتعدت عنه لأختفي في القبو المعتم آملاً أن يظهر أحد ويخفف عني عناء الوحدة. لاحقاً تبين لي أن السرطان هو الهجوم الأول لجو عائلتنا الخاص الذي بدا غير مخترقٍ، أخواتي الثلاث الأكبر رأين نفس الشيء. روزي قالت لي مرة أن المرض

خوف يزحف ببطء. عندما علمت أختي جويس عند وصولها المطار بمرض والدها انهارت تحت ثقل النبأ. جين ظهرت وكأنها وحدها محصنة بقيت خلال أشهره الثلاثة في المستشفى إلى جانبه وأظهرت قوة فوق العادة ما كان ينقصني. عمليته اللاحقة لاستئصال عقد لمفاوية خيمت عليها ظلال الأحداث التالية. والدي تشافى تدريجياً وكان كل يوم يستعيد قواه. وضعه كان يتبين في استقباله "صباح كل يوم في الساعة العاشرة" الحلاق اللطيف.

عندما يكون وضعه حسناً كان يستدعي الحلاق وإلا كان الحلاق يعود من حيث أتى. حسب عادة عربية إذا أصيب أحد بمرض يتواجد أفراد العائلة من الصباح وحتى المساء بقربه، الزوار الذين يتتالون يريدون مؤازرة العائلة أكثر من زيارة المريض ويكافأون بالشوكولاتة أو البسكويت. عشنا في ضهور وكنا نذهب كل صباح في التاسعة إلى المستشفى ونبقى للمساء، وضع والدي كان سيئاً وتعتني به ممرضات أرمنيات ٢٤ ساعة في اليوم، واحدة منهن السيدة أريفيان بقيت لعشر سنوات بعد وفاته صديقة العائلة. في صيف ١٩٦٤ وقف أكثر من اثنتي عشرة مرة على حافة الموت. كنا نغادر المستشفى مساء ليصلنا هاتف في الصباح الباكر ونسارع بالذهاب للمستشفى.

تعالوا بسرعة، قال صوت يبدو أن النهاية قربت صعدنا التكسي ووصلنا المستشفى في الصباح الباكر لنراه في غيبوبة فاقد الوعي ظهر وكأن كل المضاعفات حدثت لمرة واحدة، في البدء عانى من التهاب المجاري البولية ليتعافى بدهشة، ليصاب بنزيف معدي، بعد يومين جلس على حافة السرير والحلاق يحلق ذقنه يتكلم معه. في هذه اللحظات كنت منفرجاً أذهب للشاطئ

لأطبائه كانت حالة جد مشهورة لكثرة المضاعفات، أحدهم قال لي حالتة والدك سوف تدخل كتب التعليم لندرتها بكل احترام. مرتبكاً تابعت سفري للمطار ولسبب فقدان الأمل أقنعت والدتي أن تدخل طبيباً بريطانياً جراحاً في لندن سير رودني مينغوت Rodney Maingott العالي الشهرة في الحلقة للاستشارة. هذه الفكرة لاقت رفضاً لدى أطباء المستشفى المتعجرفين. قالوا قدومه سوف يستغرق وقتاً وإلى ذلك الحين سوف يكون والدك تخطي الأزمة الرجل الأبيض سوف يحصد النجاح ويسلبه من "السكان الأصليين" (مقارنة مع الأفارقة كما كانوا يسمون من المستعمرين، هذا تعليقي).

لكني ووالدتي لم نتراجع وبينما كنت أنا في الجو قبل الظهر في الجو فوق أوروبا، قبل مينغوت وطلب أجره نقداً ألف جنيه ما عدا تكليف السفر.

كما كان متوقعاً تعافى والدي عندما وصل مينغوت بعد ستة وثلاثين ساعة إلى بيروت وتوقع بقضاء عطلة أسبوع من الدرجة الممتازة في الفندق المشهور سان جورج. من كامبريدج في ماسيشوسيتس تابعت تعافي والدي مع تخوف مضاعف أن أكون أنا معرضاً للإصابة بأورام خبيثة وسوف أعاني. شخصت نفسي عدة تغيرات جلدية وعقد صنفها أطباء صحة هارفارد Harvard Health service كغير خبيثة. عمق علاقتي بوالدي كانت بالنسبة لي لغزاً.

والدي كان ضعيفاً، أطرافه وخاصة سيقانه كانت أضعف قل وزنه، واختل توازنه. كونه تعدى الأزمات ما كان يتصوره أحد، قرر أن يعاود التدخين ليس السيكارات فقط بل السواكير والغليون، لعب بريدج أكثر من قبل وسفرات

الهاوية. موعد تجنيدي أُجِّل أكثر من مرة لكن بعد أزمة برلين لم تتسامح معي السلطات ولم تعد تؤجل موعداً وهكذا هيأت نفسي في نهاية شهر آب للسفر. صحة والدي بدت أفضل رغم الأسابيع الثمانية الماضية من المعاناة.

أذكر يوماً قبل سفري عندما عدت لضهور ورتبت حقائبي، اشتريت بعضاً من الفواكه المجففة والفستق وذهبت في الحادية عشرة للنوم بعدما قضيت المساء عند نصار. ودكتور فارس العقيد كان هناك. لما ذكرت أن وضع والدي يتحسن وأني أستطيع الآن السفر قال بصوت خافت، لما سمعت أن وضعه مقلق ذهبت للمستشفى دخلت غرفته ركعت أمام سريره وصليت لله أن يعافيه وأعتقد أن الله سمع واستجاب لدعائي. في الساعة الثالثة صباحاً يوم سفري تلقينا هاتفاً من المستشفى في بيروت. وقفت لحظة أمام حقيبتي متعباً، غير صاحٍ متأملاً الوضع وحائراً فيما إذا كنت أستطيع السفر. ليلى زوجة منير نصار وممرضة كانت منقذتي، ساعدتني في توضيب حقيبتي وتهيئة نفسي للسفر وقالت لي عليّ أن أقوم بزيارة خاطفة قصيرة لوالدي في المستشفى في طريقي للمطار.

كانت ليلة مشرقة باردة، السماء صافية، وآلاف نقط الضوء من بعيد وضهور بدت غير عابئة بمصاعبنا ومشاكلنا. عشنا في حالة صمت مخدر وبدت الأزمات المتتالية ليس لها نهاية، شعرنا أنا مهاجمون غائبون عن الوعي نتسابق بين ضهور والمستشفى. في جناح "تابلاين" المشؤوم في المستشفى سمي تكريماً لشركة Trans Arabia Pipeline كونها فرشت الجناح وزودته بآلات تكييف الهواء، صارع والدي الموت بقوة وكأنه على وشك الخسارة لينهض من جديد. لما دخلت غرفته كان في غيبوبة ولم يتعرف عليّ. بالنسبة

لأطبائه كانت حالة جد مشهورة لكثرة المضاعفات، أحدهم قال لي حالة والدك سوف تدخل كتب التعليم لندرتها بكل احترام. مرتبكاً تابعت سفري للمطار ولسبب فقدان الأمل أقنعت والدتي أن تدخل طبيباً بريطانياً جراحاً في لندن سير رودني مينفوت Rodney Maingott العالي الشهرة في الحلقة للاستشارة. هذه الفكرة لاقت رفضاً لدى أطباء المستشفى المتعجرفين. قالوا قدومه سوف يستغرق وقتاً وإلى ذلك الحين سوف يكون والدك تخطي الأزمة الرجل الأبيض سوف يحصد النجاح ويسلبه من "السكان الأصليين" (مقارنة مع الأفارقة كما كانوا يسمون من المستعمرين، هذا تعليقي).

لكني ووالدتي لم نتراجع وبينما كنت أنا في الجو قبل الظهر في الجو فوق أوروبا، قبل مينغوت وطلب أجره نقداً ألف جنيه ما عدا تكليف السفر.

كما كان متوقعاً تعافى والدي عندما وصل مينغوت بعد ستة وثلاثين ساعة إلى بيروت وتوقع بقضاء عطلة أسبوع من الدرجة الممتازة في الفندق المشهور سان جورج. من كامبريدج في ماسيشوسيتس تابعت تعافي والدي مع تخوف مضاعف أن أكون أنا معرضاً للإصابة بأورام خبيثة وسوف أعاني. شخصت نفسي عدة تغيرات جلدية وعقد صنفها أطباء صحة هارفارد Harvard Health service كغير خبيثة. عمق علاقتي بوالدي كانت بالنسبة لي لغزاً.

والدي كان ضعيفاً، أطرافه وخاصة سيقانه كانت أضعف قل وزنه، واختل توازنه. كونه تعدى الأزمات ما كان يتصوره أحد، قرر أن يعاود التدخين ليس السيكارات فقط بل السواكير والغليون، لعب بريدج أكثر من قبل وسفرات

غالية. تمنيت أن تعود له صحته كاملة لنعود إلى أرضية السيطرة والمقاومة حيث ادوارد يُحذر ويُشتم بينما المخبأ ينتظر ويبحث عن طريقه الخاص بعيداً عن وجود والده المسيطر. عرفت أيضاً أن قوته ووجوده رغم امتعاضي قدما لي دعماً في عالم دائم التغير والتبدل وعرفت أني لن أكون مستطيعاً الاعتماد على هذا الدعم لزمن طويل. شدة مرضه كان لي إنذار باكر أنه ليس وحده معرضاً للموت بل أنا أيضاً حتى الملاذ الذي أمنه لنا في الشرق الأوسط بأهم مراكزه، القاهرة، ضهور شوير وفلسطين كأوطان هي أيضاً معرضة للزوال.

عشرون عاماً بعد وفاته عندما كنت أجلس في تحليل نفسي لشكاواي عن موقف والدي مني اعتراني ما يشبه إلهام إلهي. فوجئت نفسي بدموع الندم، الندم على السنين الماضية بالتوتر الذي ساد بيننا وقوته المسيطرة وعدم قدرته بالتعبير عن مشاعره ولموقفي المقاوم وتباعدنا عن بعض. كما طغت عليّ مشاعر لاكتشافي فجأة أنه بحث طيلة السنين عن طريقة يعبر فيها لم تتح له خلفيته وطباعه أن يجدها. ربما حالت عقدة الأبوة وقدرة والدتي ومهارتها على الحيلولة دون ذلك.

إذا صح تفسيري أو لم يصح فإن الشطر بيني وبين والدي كان مصحوباً بالصمت سكبت من أجل ذلك الدموع عند محللي النفسي وسمح لي بنظرة جديدة منقذة تجاهه رغم قساوته وغلاظة تصرفاته للعناية الفائقة تجاه ابنه الوحيد. سقوط والدي في سنواته العشر الأخيرة أنهى وجودنا اللبناني، تحولات الهزة الأرضية التي جرت في الشرق الأوسط وصلت إلى عالمنا الصغير في ضهور وغَيَّرت بلا رجعة العالم الذي عشنا فيه. خلال الفترة الأولى للثورة

المصرية عشنا في القاهرة عام ١٩٥٢ وكلنا ما عدا والدي الذي أخذ موقفاً مترقباً، ومتأثرين بروح وكلام ووعود عبد الناصر وخاصة والدتي التي تبنت نظريته القومية بحماس. في ضهور عبرت عن حماسها في كل الزيارات المملة التي عملتها أو استقبلتها ما أقلق الزوار. دون أن نلاحظ بدأت التكتلات في لبنان طائفية، بيزنطينية غير مرئية بردود فعل على مكانة ناصر الجديدة العظيمة الكبر.

محيطنا المسيحي الصغير في ضهور بدأ يرى في هذه الظاهرة مبعثاً مكياً قبل أن يكون قاهرياً. ليس فقط ضد اليهود الإسرائيليين، بل أيضاً ضد مسيحيي لبنان. في صيف ١٩٥٨ بدأت في لبنان حرب أهلية صغيرة كأزمة بين الرئيس الماروني كميل شمعون الذي مدد فترة رئاسته بشكل غير قانوني وبين غالبية أحزاب إسلامية عربية التي أيدها صوت الإذاعة القاهرية المدوي "صوت العرب". كان الصيف الوحيد الذي لم نذهب فيه إلى ضهور شوير كالمعتاد، الهضبات المقابلة كانت تعج بقوات أمريكية أرسلها جون فوستر دالاس لحماية قوات شمعون الغربية الاتجاه التي كانت ترى في خصومها عملاء لروسيا. في صيفيات ماضية قررت وأهلي أن لا نتأثر رغم صلات الدم لأقربائنا اللبنانيين بدر، بالخلافات الإسلامية - المسيحية التي كانت تؤثر عليهم ولا بالأزمة العربية اللبنانية التي دفعتهم لاتخاذ موقف دفاعي. أخذوا علينا انحيازنا للقومية العربية كمسيحيين ورأوا في ذلك أقل إخلاصاً بل خيانة.

في خضم هذه التخبطات اكتسبت والدتي لقب مؤيدة لأفكار عبد الناصر كمرآة لأولاد عمها وأصدقائها من الوسط المسيحي. أحياناً كانت

تشعرني بالغرابة لحسها على أفكار ناصر الاشتراكية العربية القومية ومرة في جدال مع أبناء عمها لاحظت نظرات استنكار واحتقار موجهة لها خفية دون أن تراها. أعتقد أن ذلك كان من وجهة نظرها شكلاً اجتماعياً لأن حياتها لم تكن مثقلة وليست متأثرة بقضايا سياسية لكن موقفها عبر عن استقلالية فكرها وقدرتها على التفكير بعيداً عن أمورنا الأقلية الطابع. نحن لا نُعد أو لا يحسب لنا حساب قالت دوماً للحمال، للسائق، للعامل، إصلاحات عبد الناصر بعد ١٩٥٨ بدت ضهور أكثر غرابة أصدقاؤها أقل عدداً، الشطر أوسَعُ التباعد بدا أكثر وضوحاً منذ عام ١٩٦٢. بعد تعافي والدي استأجر والدايّ بيتاً مفروشاً في بيروت وتركوا القاهرة لينسحبوا من عالم طفولتنا. والمستقطب شارل مالك تقدم للصف الأمامي. ما كان فقط سفير لبنان في الولايات المتحدة وزوج ابنة عم والدتي فقط، بل وزير خارجية تحت رئاسة شمعون. وكوزير أن يشارك بالقرارات بطلب إرسال قوات أمريكية من دالاس. عبر عن انطباع فوق العادة كمعلم في شبابه ودبلوماسي وسياسي. صوته كان جهورياً يعكس ثقة بالنفس ويعبر عن شخصية قوية. رأيتُ في البدء فيه شخصية بارزة مميزة ما أقلقني فيما بعد. في سنوات السبعينات كان يدعم الأقارب والأصدقاء والدتي وزوجته في ضهور رمزا، والشكل الثقافي لكل من طغت عليهم أحكام مسبقة إشكالية عن التأقلم والتوازن مع الشرق الأوسط العربي بغالبيته الإسلامية.

بدأ سلم حياته السياسية في نهاية الأربعينات كناطق عربي لفلسطين في الأمم المتحدة وختمها كمهندس التحالف الإسرائيلي المسيحي اللبناني خلال

الحرب الأهلية. عندما ألقي نظرة خلفية على مسار مالك الثقافي السياسي ما كان بالنسبة لي كشاب معجب وقريب من نفس الدائرة، كانت تلك الفترة درساً وعبرة ثقافية سلبية في حياتي تعاركت معه طيلة ثلاثة عقود عشتها طغى عليها الندم وخيبة أمل لا حدود لها. لأول مرة خلال الحرب ظهر في القاهرة حيث كانت تعيش والدته الأرملة، كان في ذلك الوقت أستاذ الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت وزوج ايفا ابنة عم والدتي وكان مقرباً من والديّ. والدي قال إنه أهداه أول آلة كاتبة اقتناها، زوجته ايفا كانت تقضي عطلتها في الناصرة في بيت أهل أمي، كانت ودية، جميلة بشخصية قوية جذبتني لها صداقة رغم فروق العمر. لهذا الزوج شارل وايفا كان له طابع فني ونسيجي. كان له لهجة ريفية بارزة من ريف لبنان الشمالي مع لغة إنكليزية أوروبية خشنة تذكر بمرحلة تعليمه التي تركت انطباعاتها عندي، في الثلاثينات درس عند "هايد ايغار Heidegger" في فرايبورغ وعند "وايتهيد Whitehead في هارفارد. لنبوغه وتدينه كان له لقب "شارل القدسي". ولد رومي - أرثوذكسي تحول إلى رومي - كاثوليكي بفعل اختلاطه بالمارونيين. ايفا حفيدة قس بروتستانتي تحولت إلى الكاثوليكية بسبب زواجها بشارل مثل أختها الأصغر "ليلى" (لي لي ليس ليلى) الصديقة الأكثر قرباً لوالدتي وللأقارب. بعد ما كان مالك سفيراً للبنان لدى الأمم المتحدة في Lake Success عمل في نفس الوقت مبعوثاً للبنان ولاحقاً سفيراً في الولايات المتحدة. عندما بدأ والد ايفا حبيب وبعض أولاده المجيء لضهور في الصيف، كان لمالك بيت هناك وقضى مع زوجته العطلة قادمين من واشنطن، شعرت

بنفسي بجاذبية تشدني لهم. قشافة جو ضهور فسحت مجالاً لأحاديث وسؤالات حول الإيمان والأخلاقية ومصير الإنسان وأيضاً السؤال عن بعض المؤرخين والكتاب. حدثني إنه كان يجلس على ضفاف النيل ويقرأ لـ: هاردي Hardy وميريديث Meredith وعن الميتافيزيقية لأرسطو وعن الـ: زوما لـ: توماس فون أكوين Summa, Thomas von Aquin (الـ: S يلفظ بالألمانية كما يلفظ الـ: ز باللغة العربية وروما تعبير لاتيني لاهوتي يعني خلاصه). لم أكن حينذاك أعرف أحداً يستطيع الكلام عن مواضيع كهذه. عندما كنت في الثانية عشرة من العمر، جلس مالك على بلكون بيته المطل على وادي شوير يقرأ كتاباً لـ: يوهانيس كريستوستوموس Johannes Chrysostomos رفع الكتاب عالياً يريني إياه قائلاً أنه مفكر عميق الفكر حاد النظر يشبه دونس سكوتس Duns Scous.

منذ ذلك الوقت بدأت أشعر بتحدي نوعيته الخاصة لملاحظاته عن كتب وأفكار. نزوع لميل أعجبني لذكر عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها بحثت عنها وشغلت نفسي بها. وكان أيضاً يستند إلى أقوال مبسطة مثل قوله "كيركيغارد كان كبيراً، لكن آمن حقاً بوجود الله" و"دوستويفسكي كان روائياً كبيراً لأنه كان مسيحياً كبيراً، لفهم فرويد يجب على المرء رؤية محلات بيع كتب "البورنو" (كل ما يتعلق بالجنس) في شارع "فورتي سيكاند". برينسيتون هي عبارة عن نادي كنتري حيث يقضي طلاب هارفارد عطلهم في نهاية الأسبوع. ربما كان يعتقد أني لم أكن ناضجاً بعد لمناقشات على مستوى عالٍ كما ألفها في الجامعات مع "هايد ايغار

ووايتهيد وشعرت بنظره من فوق إلى أسفل ممتزجاً بصفته التربوية كمعلم سابق. في سنوات ناصر الأولى شجعني بالحديث عن حماستي لإصلاحات ناصر الشعبية، سمع كل شيء ما قلته وقال، ما قلته كان يدعو إلى الاهتمام. دخل الفرد السنوي في مصر يساوي ثمانين دولاراً، في لبنان تسعمائة إذا فعلت الإصلاحات فعلها واستخدمت الطاقات سوف يتضاعف دخل الفرد السنوي في مصر إلى الضعف.

هذا الكل من العم "شارل" كما سميناه كان يتمتع بجاذبية قوية واستقلالية كبرى. حدثني عن صراع الحضارات، عن حرب الشرق والغرب، شيوعية وحرية، بين المسيحية والآخرين.

لم يتحدث لنا فقط في ضهور بل لعب دوراً على مسرح السياسة العالمية. عمل مع اليانور روزفيلت Eleanor Rroosevelt بوثيقة إعلان حقوق الإنسان. أسماء[1] غروميكو، دالاس، بلوتين، والمسيح كان مغزى أحاديثه. تمتع بمعرفة خمس لغات إنكليزي، عربي، يوناني، ألماني، وفرنسي كلها كانت أدوات عمله خاصة الإنكليزية والعربية والألمانية. بمظهره وشعره الكثيف الأسود، بعيونه المخترقة وأنفه النسري وأقدامه الكبيرة ملأ المكان وسيطر عليه وما ترك آثاراً للشلل أو ضعف الثقة. في الأربعينات والخمسينات استمدينا أملاً من أخلاقيته المهدئة وقوته اللا مقيدة أن يغفل لأن في العالم تولستوي لا يزال على قيد الحياة.

1 تريغف Trygve، لاي Lie، روكيفلر آيزنهاور

مالك صعد باستمرار على المسرح العالمي لكنه عاد وإيفا دائماً لضهور. القرية كانت تساوي الوطن الذي تكلم عنه أستاذه هايدغار لكن بالنسبة لمالك جسد ببساطة الارتباط بالأرض اللبنانية.

احتفظ دوماً على ما ظهر بإعجاب وميل لوالدي، قال لم يسبق وتعرفت، بإعجاب وفي نفس الوقت بتعالٍ، على رجل أعمال مثله، هو يمتلك الحس العملي بشكل معجب. لاحقاً فكرت أنه قال أو والدي في الواقع رجل أعمال بامتياز لا أكثر ولا أقل، ربما فهمت ذلك فهماً خاطئاً.

في مساء يوم أنارت سماءه النجوم الساطعة على البلكون استمعت إلى حديث بينهما، سأل والدي كيف يستطيع العلماء قياس المسافة بين النجوم والأرض، هل تعرف ذلك شارل. أجاب شارل هذا بمنتهى البساطة. يمكن اتخاذ نقطة معينة على الأرض، تقاس الزاوية ثم يحسب البعد، هذا الأمر لعبة أطفال، هكذا كان جوابه المتعالي. والدي بقدراته الحسابية فوق العادية لم يكن راضياً بالجواب رد لا لا أعني كيف أية زاوية، كل الحضور التزموا بالصمت، والدي قام بهجوم على سلطة شارل واستقلايته بدا على وجه مالك حيرة وعدم الصبر كما أنه يحاول فهم رجل الأعمال الصغير وعلى ما ظهر لم يملك الجواب الذي ألح والدي عليه. الضجة لا تجدي نفعاً الأفضل تغيير الموضوع والحديث عن بيردياف Berdjajew. في يوم دفن والدي بعد خمسة عشر عاماً من ذلك زارنا في البيت في بيروت ليقدم تعازيه لكنه لم يشترك في مراسيم الصلاة في الكنيسة معتذراً بموعد مع المبعوث البابوي. قوته الروحية التي استطاعت الإقناع بالانتقال من مذهب إلى آخر تعثرت في المجال السياسي مقابل أحكام

مسبقة وروح عدائية تجاه لبنان مسيحي ولا لبنان عربي تحت وصاية أمريكية. في أيامه الماضية كان أستاذاً جامعياً بامتياز، ابنة "حماته" لي لي قالت لي أنه عند عودته من جامعة هارفارد إلى بيروت وحَوَّل أحاديث عادية إلى مناقشات حول الحقيقة والمثل العليا والجمال والخير. أحد طلابه كان ابن عمي جورج الذي خطط في البدء مستقبلاً كرجل أعمال وعشر سنوات بعد ذلك ترك الفكرة، تحول إلى المذهب الكاثوليكي وذهب إلى سويسرا إلى مدينة "فريبورغ" مع زملاء له من طلاب مالك بنفس التوجهات لتأسيس جالية رجال ونساء مؤمنين بهدف تحويل العالم الإسلامي إلى عالم مسيحي. كلهم ما زالوا لليوم يقيمون في سويسرا شهود تأثير مالك الثقافي وبقي هدفهم الإنجيلي وكأنه ليس من هذا العالم.

أنا أيضاً شعرت بهذا التأثير ليس فقط بأفكاره بل في وقار الأخلاقية الفلسفية التي وضعها هدفاً له. في محيطي لم أعهد شيئاً من هذا القبيل ولم أعرف قبله شخصية بارزة مثقفة بامتياز مثله.

متى ستنضب هذه القوة التي تبعث الحياة، لتعكس مكانها لآخر التي تظهر بوضوح العكس من وضوح، شجاعة وفكر حقيقي. أحياناً يخطر على بالي أن بيئة ضهور التقشفية وبساطة الحياة المراقبة والطابع المسيحي المفروض أفسدنا. وربما كان لذلك الأثر في تحول مالك إلى التطرف السياسي في الوقت نفسه أعتقد أن الانسحاب النومي الذي وعدت به ضهور لأشهر الصيف عكس اعتقاداً عربياً حيث فكرنا جماعياً أنه يمكننا بعد عهد طويل من الاستعمار أن نعيش في أماكن استجمام حسب نمط أوربي بعيدين عن ما

يجري حولنا . والداي حاولا نقل عشنا من القاهرة إلى جبال لبنان ، من يعاتبهم بالنظر إلى وضعنا المهدد كفلسطينيين عرب مسيحيين أمريكيين الذين شردهم التاريخ وبعثرهم بقوا على جمعهم بفضل نجاح والدي التجاري محققاً لنا وجوداً هامشياً مريحاً مهدداً غير مستقر ولما نشأت القلاقل بعد حقبة الملكية المصرية حولنا أخذنا معنا تبعاتها أينما ذهبنا وحتى إلى ضهور. في ضهور كان مالك لنا رمز المقاومة رفض لبنان المسيحي الانطواء تحت القومية العربية وقراره الوقوف مع الولايات المتحدة في الحرب الباردة يفضل أن يقاتل ويتشدد بدلاً للالتحاق بآمال ناصر.

أذكر بألم وصدمة مريرتين الهزيمة العربية الكاملة عام ١٩٧١ . في نهاية شهر كانون الأول من نفس العام عام المصير، سافرت للعم شارل والعمة ايفا في منزلهم الكبير المستقل في الرابية في منطقة هضابية شمال شرق بيروت. في هذا البيت جمعوا كل الكتب والموبيليا والأوراق التي تراكمت عبر سنين في بيوت مستأجرة وفي السفارة بما فيه بيوت مختلفة في ضهور. الشارع كان يغطيه الثلج والسماء غامقة اللون والرياح عاتية والجو إجمالاً كان كئيباً . ما كنت أعرفه تماماً ، ماذا كان قصدي غير ما رغبت فيه أن يتوجه للرأي العام ويساعد العرب، أن ينتشلهم من مرارة الهزيمة.

ربما كانت فكرة غبية لكنها بدت لي ربما تجربة في مكانها . لم أكن مهيأ نفسياً لجوابه السلبي قال هذا ليس وقته، وليس لديه الاستعداد أن يلعب دوراً في هذا المجال، ويجب أن تدخل مرحلة جديدة تمكنه من لعب دور في السياسة. كنت مذعوراً ومندهشاً أن ما بدا لي كحاجة مشتركة تجاه المقاومة وإعادة بناء

من رجل وثقت بأفكاره وقناعاته لم يشاركني الرأي. خلال الحرب اللبنانية الأهلية كان القائد الروحي لحقوق المسيحيين وسنوات بعد وفاته في عام ١٩٨٨ أشعر بأسف عميق للهوة الإيديولوجية التي كانت تفصلنا ولسيلان السياسة العربية المعقدة التي مزقتنا حيث كلانا لم نستنتج خبرات إيجابية من علاقتنا.

من الصعب بعد ما حدث أن نتعمق بقراءة عوامل الخراب والدمار اللذين ألحقتهما الحرب الأهلية خلال سنوات في ضهور، الحرب بدأت في عام ١٩٧٥ وانتهت رسمياً سبعة عشر عاماً بعد ذلك.

معزولين عن مجاري السياسة والأمور البلدية المتنازعة التي مزقت لبنان منذ عشرات السنين عشنا بحياة مثالية كاذبة على حافة السقوط العميقة. إلى جانب ذلك كان اعتقاد والدي هي ملاذنا من مصاعب الحياة التجارية المتنامية في مصر عبد الناصر. في عام ١٩٧١ فترة وجيزة قبل وفاته قال لنا أنه يريد أن يدفن في ضهور لكن لم يكن ذلك ممكناً لأنه لم يكن أحدٌ في ضهور راضياً أن يبيعنا قطعة أرض لنتمكن من تحقيق أمنيته هذا رغم حبه للبلد خلال سنوات عديدة، ولأهلها وسكانها ومساهمته المالية للبلدية وحتى بعد وفاته نظر إليه كغريب ليقبلوا باستضافته حتى بعد الموت. وجودنا المثالي الافتراضي الذي اعتقدنا التمتع به لم يكن له أية قيمة في عقول الناس. لما تبقى من صور للحياة العفريتية البعيدة عن الواقع التي قضيناها خلال سبعة وعشرين عاماً في ضهور كان صورة أميل نصار كيف جلس وحده على طاولة في غرفة الجلوس يكتب. لعب البريدج ما كان لينتهي، شاء كثير من الضيوف أن يأتوا للطعام. غير تعب بحث عن كتب مذكراته المربوطة وكومة من الصحف وبدأ يكتب. ماذا كتب لم

نكن نعلم حتى سأله والدي مباشرة يوماً إذا كان يكتب مذكراته. أجل بطريقة ما، انقل مقاطع من الصحف اليومية وهكذا أدون مجرى الأحداث جاوب السيد نصار، لكنك تضيف بعض التعليقات أولاً أراد والدي أن يعرف قال كلا إطلاقاً، إنه تدوين ما حدث بالضبط. مثيراً لرجل الأعمال النشيط قال والدي تعليقاً لماذا لا تقص المقاطع وتلصقها أبسط من نقلها موفراً العناء. تلكأ متردداً ثم قال أفعل ذلك لأبنائي ليمتلكوا تاريخي الباقي بعد وفاتي. والدي لم يكتفِ بهذا الجواب والتفت إلى ألفريد ابن نصار المتوسط الذي استلقى على "صوفا" قائلاً له هل سوف تقرأ هذه الكتب بعد وفاة والدك، أجاب ألفريد دون تلكؤ "لا" لا أفكر بذلك. احتفظت بهذا المشهد طيلة سنين في ذكرياتي لكنه اتخذ طريقه الخاص كجزء من بلد غير مستقر، مفتت، منشطر ما كان أحدنا يجرؤ على تخيله، تجربة فاشلة. ضيوف الصيف ومهاتراتهم بقوا بعيدين عنا ما يميز ضهور، منزلنا لازال موجوداً غير مأهولٍ تناثرت فيه ثقوب القنابل وصواريخ الكاتيوشا التي أصابته. سبعة وعشرين عاماً بعد صيفنا الأخير سافرت لضهور لأرى ما تبقى. لازال موقع للجيش السوري، جنود وضباط سوريون يقطنون فيه.

ضهور هي إحدى القرى القليلة التي لم يعد بناؤها من الأماكن التي تعج بالسواح.

أغلب البيوت من ذلك الوقت لازالت أطلالاً، المقاهي والمحلات مغلقة ظل السنوات الماضية، أختي جين زوجها وأولادها اشتروا بيتاً في ضهور رمموه قرب بيت عزيز نصر الذي تلقيت فيه دروساً إضافية في الهندسة قبل ٤٣ عاماً. حديقة البيت والأثاث بكل مستوجبات الراحة لا يشابه شيئاً فيه بيتنا القديم

المتواضع البسيط الفرش. عندما استلقيت بعد الظهر لراحة قصيرة أيقظ هذا الوضع ذكريات حزينة لآخر أيام الصيف عندما أعددنا أنفسنا للعودة إلى القاهرة وحل الخريف في ضهور محل الشمس الدافئة والضباب البارد.

أذكر بلفهة أيام نهاية الفصل الصيفي، غالب الضيوف كانوا حزموا حقائبهم وغادروا المكان قبلنا وأصحاب المحلات بجاكيتاتهم المهترئة أصبحوا أكثر هدوءاً لقلة الزبائن يفكرون ببضائع الصيف المقبل. موضع الأحاديث المكرر كان "السياحة" وهل إذا كان الفصل جيداً أم لا، استمعت مرة لحديث الصيدلي السيد عفاش وبو فارس صاحب محل الدراجات الهوائية مستائين من الفصل المنصرم، "إذا شاء الله سوف يكون الفصل القادم أفضل" قالوا لبعضهم البعض. فقط سائق التاكسي بقي في الساحة مع سيارته فورد القديمة المهترئة، أغلب رفاقه تركوا ضهور وذهبوا لبيروت بحثاً عن لقمة العيش. في صباح اليوم التالي كانت حقائبنا مهيأة تناولنا آخر فطور بينما كان سائقا تاكسيتين يُحملان الحقائق. ثم سافرنا بمحاذاة الشاطئ باتجاه بيروت ومنها إلى القدس والقاهرة. بعد عام ١٩٤٨ سافرنا من بيروت بالطائرة.

الفصل الحادي عشر

لما عدت للقاهرة بعد إنهاء دراستي الجامعية وجدت أن ذكرياتي لم تعد تتطابق مع الواقع. القاهرة لم تعد مكاناً للاستقرار كما شعرت خلال نفيي إلى الولايات المتحدة، أحاط بي شعور بعدم الأمان، جنة الأجانب بدأت تفقد الاستمرار، أشهر قليلة بعد ذلك توجب تبديل الجنرال نجيب كرئيس للجمهورية بعبد الناصر وما كان عالمنا تحول لعالمهم عالم المصريين الذين قلّما ما أعرناهم سياسياً الاهتمام. بدا ذلك لي واضحاً من شعر "كوافذ أو قوافذ Kvafis" (من الصعب معرفة الاسم باللغة العربية). أجانب أمثالنا اهتموا بأمورهم التجارية وأهدافهم دون أن يعيروا الغالبية اهتماماً يذكر. كانت أعمال والدي التجارية قد بدأت تزدهر في بدء الخمسينات وتضاعف نفوذه كرجل أعمال بعد ما انفصل عن أبناء أشقائه وغيرهم من الشركاء.

هم بدورهم بدؤوا ينتجون غسالات ويصدرون أمعاء حيوانات تستعمل في تعبئة النقانق في الغرب.

في عام ١٩٥٦ افتتح فرعاً في بيروت دون تحقيق أرباح حيث كان يستثمر المال دون أرباح.

في عطلي الصيفية أقحمني بأعماله أكثر فاكثر. بعد الظهر قمت بمهمة وكيله دون أن تكون لي أية صلاحيات أو تفويض. هذه كانت طريقته يدعوني

ثم يغلق الباب أمامي يبرهن على عدم وجود وظيفة لي. بطريقة مماثلة أن الأمر عندما أصر ووالدتي أن يكون كرجل مسؤولاً عن أخواتي رغم تساويهن معي في كل الأمور. لم أقر بهذا الثقل ولم أقبله. كان يساورني الشعور أن والدي يسلك مع أخواتي بدافع سلوك فروسي ونفس السلوك كان يسلكه مع أولاد أبناء العم وشقيقته رغم خلافات ومجادلات عبر سنين. عندما تمتعوا باستقلاليتهم أفصحوا عن ندمهم لسلوكهم الماضي تجاهه.

عندما أتت أختي الكبرى في سنتي الثانية في برينسيتون للولايات المتحدة لزيارتي لاقيت صعوبات بالحديث معها والحوار وبناء علاقة. في الوقت الذي أدركت فيه أن عائلتي ومحيطي في القاهرة وفي لبنان لم يعد مفتوحاً لي. سنواتي في الولايات المتحدة أبعدت عني تدريجياً عادات القاهرة، التفكير، السلوك، اللغة والعلاقات. لهجتي وملابسي تغيرت، نقاط اعتمادي في المدرسة والمعهد تغيرت، كلامي وتفكيري تبدلا وأبعدت عن وقائع الحياة المريحة في القاهرة، حياة أخواتي في المدارس الإنكليزية كان لي غريباً وبعيداً. بعد زمن ماونت هيرمون ذهبت إلى برينسيتون في خريف ١٩٥٣ معتمداً على نفسي كلياً. أصبحت أكثر استقلالية وعملياً منذ سنتين من قبل واستطعت في وقت قصير في مكان لي غير معروف شراء موبيليا وكتب وملابس. مع ثلاثة زملاء غير متلائمين أسست منزلاً مشتركاً لأخرج منه في عيد الميلاد وأسكن في غرفة واحدة. أول خبرة في برينسيتون كانت في يومي الثاني عندما كنت أبحث عن قاعة الطعام وفاجأني شاب ثمل، كان يرتدي قميصاً أسود وبرتقالي اللون وبنطال برمودا وردي اللون مع قبعة من القش وأحذية تنس زرقاء، قال "هاي" لا أريد الانفصال عن سام لكنه

سيكون مناسباً في غرفتك. أجبته رأسه لن يدخل الغرفة بقرونه الضخمة مثل فولكس فاجن أعاد أعطني عشرين دولاراً وأحضره لغرفتك ولو استعملت رافعة. أقنعته أن سام وأنا لا نناسب بعضنا. هذا كان لي أول لقاء مع هومور (لا أعرف التعبير العربي يعني الكلام غير المجدي) برينسيتون الذي ما كان يعلو على مستوى مدرسة ابتدائية ممزوجاً مع البيرة بغض النظر عن المستوى الثقافي والفرق بين المعهدين كان ضئيلاً.

في الخمسينات كانت برينسيتون مخصصة للرجال فقط، السيارات كانت ممنوعة، والمنع كان أيضاً للنساء، ما عدا أيام السبت حتى الساعة السادسة مساء.. الإنجاز الجماعي الأكبر بين أعوام ١٩٥٣ و١٩٥٧ كان نتيجة إلحاح الطلاب "سكس، جنس" بعد الساعة السابعة أيام السبت. للتعارف على الفتيات أو الحصول على مواعيد توجب الذهاب إلى أمكنة مثل: سميس Smith أو فاسار Vassar" في سنتي الأوليين كنت دون نجاح مع البنات عوض عليّ ذلك رومنتيكية علاقتي مع ايفا في الصيف ما حجبته عني برينسيتون، ما كنت أُقنع بنات أن يأتين إلى برينسيتون وما كنت أحظى بالحظ في بحثي عنهن. الطلاب كانوا غالباً من فئة متوازنة ما كان يوجد طلاب سود وأغلب الطلاب الأجانب كانوا يُحضرون "دكتوراه" بينهم كمٌّ من العرب التقيت معهم أحياناً زملائي كانوا أمثالي كما في ماونت هيرمون لبس الكل نفس الملابس، تكلموا بنفس المستوى وسلوكهم كان مشابهاً.

كنا منظمين في نوادي طعام، بعد السنة الأولى توجب دخول أحد النوادي إذا لم يرد أحد أن يجوع. الالتحاق بالنادي كان محكوماً بنظام سمي "بيكر

Bicker" هذا يعني أنه في شهر شباط من العام الثاني كان يتوجب على العضو أن يستقبل ولمدة أسبوعين في المساء فرقاً من النوادي في غرفته. بعضهم يهود والآخرون من مدارس سيئة السمعة أو بلباس غير لائق تضاءل عددهم. بينما كثر عدد من أتوا من مدارس مشهورة مثل St. Paul, s, Exeter أو أولاد مشاهير مثل: Baista, Fireston Dupont تضاعف عددهم. بين النوادي السبعة عشر وجد تسلسل طبقي مشدد، وجد الأولي مثل: Ivy, Cottage, Quadrangel, Tower, والمتوسطة مثل: Cannon, Cap, Gown, Colonial والسفلي Campus, Dial, Elm, etc أعضاؤها بتعاريف اليوم يمكن وصفهم بالمنبوذين أو الهامشيين وكانوا على الأغلب يهوداً.

خلال نظام "بيكر" حدثت أشياء مخيفة مرعبة كلها كانت مقبولة من الإدارة بل مشجعة.

على سبيل المثال في عام ١٩٥٥ في سنتي البيكرية قرر رؤساء النوادي والإدارة على كل طالب في السنة الثانية مهما كان تقبله أن يستلم عرضاً من النادي. وجد ما كان ليس ممكناً تجنبه عشرون إلى ثلاثين طالباً هامشيين ما أراد أحد صحبتهم غالباً يهود قسموا في اجتماعات علنية بين رؤساء النوادي وأحداث جرى نشرها بكل تفاصيلها في جريدة الطلاب.

من القسوة أن طلاباً بسبب أصلهم أو سلوكهم أو عادات سيئة ما كان لهم الحظ في الانتساب لنادٍ من النوادي المختلفة وصنفوا في فئات خاصة بنتائج سيئة. خلال سنتي الأولى كانت موضة أن تبدو ياقات القمصان شبه ممزقة وكان بعض الطلاب يلجأون لورق القزيز ليصلوا لهذه الصورة بقمصان زرقاء جديدة ليبدو في دقائق قليلة كأريستوقراطيين ويدخلوا إلى نوادٍ أرفع مكانة.

فاجأني تعامل المعلمين مع هذه الأمور وقبولها. فاجأني أيضاً أن أحداً لم يعمل طيلة أسبوع الـ: "بيكر". منذ أول طرق لباب غرفتي كان عليّ أن أعرف أنني بنظر المتجولين أمثل شخصاً غريباً، مدرستي لم تكن راقية، لهجتي وملابسي ما كانت لتفصح عن أصلي واسمي كان يدل على لغز، على ابن الطبقة العليا من "دارين Darien أو شاكارهايتس Shaker Heights والداي تعرفا خلال عشاء ولعب البريدج على اندريا دوريا Andrea Doria رجل وزوجته متقاعدين من "بوكاراتون Boca Raton وسان كروا St. Croix وتصادقا معهما. الرجل كان عضو كاب Cap وغون Gown وعمل على أن يزورني أعضاء من هذا النادي مرات.

لكننا لم نكن لنتوافق مع بعض زميل غرفتي السابق وموسيقي بموهبة لكن اجتماعياً ليس بمستوى عال طردهم جميعاً، أعضاء الطبقة الوسطى زاروني مراراً. جلسنا في غرفتي في زاوية معاً، بينما جلس هو لوحده في الزاوية الأخرى. في المساء عندما توجه جميع طلبة السنة لتسلم العروض تسلمت أنا ثلاثة عروض بينما زميلي في الغرفة لم يكن نصيبه إلا عرضاً واحداً.

ثم قدم لي أحد النوادي عرضاً من ناطقه، شاب سمين ولاعب غولف بارز، عرضاً ليس مغرياً وهو انتمائي للنادي ويقبلون انتماء زميلي بالغرفة. عندما رفضت العرض وأردت الذهاب سمعت صوتا متوسلاً "أو ايد" رجاء أن تقبل، ماذا سيحل بي وهكذا قبلت العرض وما شعرت يوماً بالراحة في هذا النادي. بدت لي هذه الطقوس وكأنها لإذلال بعض الطلاب. منذ تلك اللحظة بقيت برينسيتون لي مكان دراسة فقط. منذ ذلك الحين ألقيت عدة

محاضرات، تغير السلك التعليمي بأساتذة جدد وتضاءل عمل النوادي الهزيل ومعناها، تواجد الجنس الأنثوي والأقليات حوّلا المكان الريفي من أدنى مستوى إلى جامعة حقيقية بين أعوام ١٩٥٣ و١٩٧٥.

ما عدا التعايش الاجتماعي مع زملاء لامعين متميزين فوق العادة مثل: جون ايتون John Eaton آرثر غولد Arther Gold بوب ميليس Bob Mniles، وغيرهم ساعد القراءة والكتابة كعلاج ضد جو برينيسيتون المسموم. المادة الأولى كانت علوم روحية بدلاً من أدبية، برنامج للمتفوقين حوى على لغة إنكليزية وموسيقى وفلسفة ولغة فرنسية. كلها برامج مكتظة مرتبة مليئة بالمعلومات، أستاذان، كانت علاقتي بأحدهم شخصية، كانا بارعين بامتياز وتركا انطباعاتهم عندي لا تنسى.

أحدهما كان "ر. ب. بلاك مور R. B. Blackmur" ناقد أدبي وأستاذ إنكليزية بارع في تفسير التاريخ والشعر. مثله أوحى لي بالتحليل، التهمت كتبه عن السياسة والأدب الحديث وكان واحداً من اثنين في امتحان "دكتوراتي" حول: أندريه جيد AndreGide وغراهام غرين Graham Greene بتقويمه لعملي جاء: قدرة عالية في التحليل. توفي عام ١٩٦٥.

الشخص الثاني البارز كان ولازال أستاذ الفلسفة "آرثر ساسماري Arther Szathmaey شكل بنبع متدفق لا يصرف النظر عن أحد، طالباً كان أم أستاذاً أم زميلاً أم مؤلفاً. لأطراف خارجية كان رمز الثقافة، كان حذراً، وجه سؤالات دون تحفظ أو احترام وما رأى أنجح من تشخيص الاعتراضات والنواقص، ما كان له شيء من هيبة برينسيتون ما شكل عثرة أمامه، لا يهتم بإنجازات دنيوية.

لهجته الأوروبية غير الواضحة ما استطاع أحد تصنيفها، لاحقاً اعترف أمامنا أنه لم يكن غادر ما ساشوستيس التي ينحدر منها رغم أنه كان استجوب أسرى حرب يابانيين. أخوه كان المؤلف والممثل خوزي جيمنز Jose jimenz

دورات للعلوم الروحية كانت تاريخية التوجه أقيمت من مختصين على أعلى درجة من الفلاسفة. إنجازاتي في تاريخ الموسيقى والأدب والفلسفة وضعت الحجر الأساس لكل ما أنجزته لاحقاً كعالم وأستاذ. منهاج التعليم الحي في برينسيتون أتاح لي إمكانية البحث العلمي دون طموحات كبيرة. طلب علمي توضح لي عمقه حين تعرضت لانتقادات ساسماري الملهمة أو قدرات بلاكمور اللاحدودية، أدركت أكثر فأكثر أني أغرف من الأعماق متخطياً الإنجازات الأكاديمية مكوناً لي نزعة روحية مستقلة. في الأسابيع الأولى من سنتي الثانية ظهر لي أني طورت لهفة لغير المتوقع والمعقد سواء بالكلام أو الكتاب. شُجعت على ذلك من أساتذة أكثر محافظة مثل: كويندارو Coindarau بالفرنسية وأوتيس Oates باللغات الكلاسيكية أو تمبثون لاندا Thmopson Landa بنتلي Bentley وجونسون Johnson بالإنكليزية.

بالموسيقى شغلت نفسي بدورات تعثر وتوافق وأيضاً بدورات عن تاريخ بيتهوفن وفاغنر قدمها إليوت فوربيس Elliot Forbes واد كوني Ed Cone

صنعت نفسي شخصياً كمثقف غير ناضج وعلى الأخص بالمقارنة مع الزميل آرثر غولد أنجب طالب في سنتي الدراسية الذي تمتع بموهبة أدبية عالية للتحليل والكتابة. إنسان مثله وأنا بمقياس أصغر كيف عشنا وتغلبنا على بيئة برينسيتون بشبه معجزة. كوننا معاً غير راضين وغير مرتاحين مع الطلاب

والأساتذة اللامبالين بالثقافة بل يعادونها ، مدخني الغليون فكرنا سوية في السنة الثالثة بالانتقال إلى جامعة هارفارد . في سنتي الأخيرة في برينسيتون أحسست نفسي فيما يتعلق بالثقافة مدفوعاً لكني معزولٌ كرهت النادي توجب عليّ الذهاب إليه للطعام ولم يوجد شيء ما عداه سوى المطاعم الغالية كما لم يكن لي اتصالات اجتماعية في عطل نهاية الأسبوع بحفلات "البارتي" المنزلية بمعاطف الدببة وطقوس الثمالة اللا منتهية . بيرنسيتون أحدثت عندي موجات عميقة اعترضت نفسها وجرفتني إلى كل الاتجاهات . ما تنازلت عن فكرة العودة للقاهرة ولا فكرة إدارة أعمال والدي وفي الوقت نفسه كنت أرغب أن أكون عالماً وأبقى في المحيط الجامعي . انشغلت بالموسيقى رغم أن ساعات تعليم العزف على البيانو لم تؤت أكلها . برينسيتون كانت في الخمسينات غير سياسية راضية عن نفسها وأيضاً منسية .

ما عدا لعب كرة القدم والاجتماعات وحفلات "البارتي" لم تقدم شيئاً بمحتوى سياسيي . تلاه محاضرة من زميل آلغر هيس Alger Hiss ثم رالف شومان Ralph Schoenman وأخيراً بيرتراند رسيل Bertrand Russels سكرتير وناطق رسمي .

المحاضرة جذبت كثيراً من المحتجين والفضوليين . حتى أزمة السويس في عام ١٩٥٦ التي نظرت إليها كحريق القاهرة من بعد مع ثقل عاطفي لأن عائلتي هناك ، اقتصر النشاط السياسي على مناقشات مع أصدقاء بينهم عرب يحضرون "دكتوراه" أبرزهم كان إبراهيم أبو لغد فلسطيني هُجر لتوه يدرس شؤون الشرق الأوسط في برينسيتون . ما عدا ذلك لم يكن بمقدوري الإفصاح

عن مشاعري تجاه ما يحدث في مصر عبد الناصر. خلال أزمة السويس اكتشفت ما لم ألاحظه طيلة سنتين، إن زميلاً لي وصديقاً توم فارار Tom Farer يهودي دون تعاطف مع إسرائيل وما يتعلق بها.

أتذكر مناقشة حادة حامية مع آرثر غولد حول عدم عدالة القضية الإسرائيلية تجاهنا نحن الفلسطينيين بينما اتخذ هو الموقف المعاكس لكن دون أن يعبر هذا عن جو سياسي لبرينسيتون.

في مجرى السنين تقاربت رؤانا. ماك آرثي لم يعره أحد اهتماماً وكنا نعرف لم يلاحق أستاذ بتهمة رؤى شيوعية؟ ماركس لم يكن موضوع دراسة وغالبنا تعاطى مع التاريخ الحالي بصورة سطحية مثلاً بمحاضرة عن هتلر. في قاعدة دوج Dodge - ألفت صدفة غريبة مكاناً كان يحتوي على ملابس رجالية إدارة مدرب التنس، كافتيريا، مسرح صغير، ومكاتب لطلاب الديانات المختلفة كاثوليك، يهود وغيره. في طريقي إلى الكافتيريا وقفت صدفة أمام "رابي" Hill Foundatioin وجهاً لوجه وكان أتى لتوه من مكتبه أنت مصري سأل بصوت حاد، قلت أجل، كيف عرف ذلك وعرفني ما هي خطتك عندما تنتهي من هنا تبلبلت وقلت تحضير دكتوراه أو دراسة الطب حيث كنت سجلت طب كمادة جانبية. قاطعني وقال لا لا أقصد عندما تنهي دراستك كلياً، لم يترك لي فرصة جواب وتابع عليك أن تعود، شعبك يحتاجك، يحتاج أطباء ومهندسين ومعلمين. لدى العرب بؤس أمراض وفقد المعرفة أناس مثلك لا تقدر قيمتهم ثم غادر المكان. كان هذا الحدث قبل أزمة السويس كتبت على أثرها مقالة لم تحدث (في صدىً) على عكس الـ: ١٩٦٧.

كانت أول تجربة لي أن أكتب حول السياسة. الاهتمامات السياسية كانت وقتذاك على نار خفيفة والمواقف الإسرائيلية كانت متحفظة لاسيما وآيزنهاور كان قد أجبر إسرائيل على الانسحاب من سيناء. ما مكنني من نشر المقالة دون حذف رقابي. كوني قضيت أوقاتاً طويلة مع مالك في واشنطن كانت توترات الحرب الباردة ومشاكل العالم العربي بالنسبة لي معروفة. خلال وقتي في برينسيتون احتككت للمرة الأولى بالأمور والتيارات السياسية ما كان له أثره لبقية حياتي الثقافية والسياسية.

آنذاك أيقظ في مالك الاهتمام بالإيديولوجية، بالشيوعية، وبصراع شرق ـ غرب كان مقرباً من جون فوستر دالاس ولعب دوراً في السياسة الأمريكية. الجامعات أغدقت عليه بالتشريف، ألقى محاضرات ولعب دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية الأمريكية.

تجاهي وتجاه برينسيتون ما كان يخفي قلة تقديره لكنه كان دائماً جاهزاً لإيفائي بمحاضرات طويلة لدى تساؤلي دون أن تكون هناك بيننا مناقشات فعلية. لاحقاً فهمت أن شاغله كان تقرب ناصر للاتحاد السوفيتي رابطاً ذلك بانتمائه للإسلام. كنت غير قادر على إيجاد توازن بيني وبينه خلف كل شيء في رأيه تربص الإسلام والشيوعية. موضع مالك لم يتركني أنسى أني طالب في سنته الدراسية الثانية بينما هو في قلب العالم والأحداث، يتعامل مع أناس في غاية الأهمية وذوي رؤية بعيدة وهكذا. وقفته التي ربط فيها السياسة مع العائلة شغلتني جداً.

من ناحية كان شعورنا بروابط مشتركة ومن أخرى كان هذا شعور أهلي شعوره أن جهات غريبة تهدد وجودنا ما لم أشعر به وكما لم أكن أشاركه رأيه أن التغيرات الاجتماعية وثقافة الأغلبية يجب مكافحتهما لنحافظ على وضعنا نحن المسيحيين أو أن يكون لنا وضع خاص.

خلال كل مناقشة في واشنطن نشأت لديّ نزعة غير تسامحية بالخلط بين القناعة الثقافية والموالاة لقوم، لعشيرة، لبلد ما بقي قناعة لي ليومي هذا. لم أشعر يوماً ما أنه عليّ أن أتخطى هذه الهوة بل تركتها في عكسها مفتوحة. القناعة الثقافية كانت تحتل عندي مكان الصدارة تعلو على الموالاة للقوم أو العشيرة حتى ولو أدى ذلك للعزلة. رغم شعوري المتنامي وجدت خلال سنوات دراستي الأولى صعوبة للتعبير عنها. ما كنت أمتلك الأحرف والتعابير اللازمة وغلب علي "الحنين الذي بقي في أدغال برينسيتون ضائعاً حيث ما كنت أحدد هذه الفوارق التي كانت لاحقاً في حياتي وعملي تأخذ مكاناً مركزياً. بعد ضغوط القاهرة اليومية في السنين الماضية غلب عليّ في برينسيتون شعور يدفع للتصرف. أكبر قدراً من طاقاتي العاطفية غير الراضية جرت في نشاطات قوية. مارست بقوة الرياضة، لعبت التنس، والسباحة، نادي غناء كنسي وغير كنسي سواء كمغنٍ أو لاعب آلة موسيقية، قضيت أوقاتاً كثيرة وأيضاً في عزف البيانو. من مؤسسة أصدقاء الموسيقى حصلت على منحة سخية في برينسيتون وأخذت دروساً لدى معلم موسيقى بارز من نيويورك.

بعد وفاة معلمي الأول "اريخ ايتور كان Erich Itor Kahn" تلاه ادوارد شتويارمان ثم فرانك شيريديان لكن لم يكن بوسعهم دفعي للأمام مثل

"لوريس شتونسكي" السيدة من برينسيتون السيدة عالية الموسيقية ودرَّستني لأشهر عديدة. خلال حقبتي الأخيرة في برينسيتون ألصقت بي صفات (غير ناضج، متقلب، إنسان منشطر في أجزاء كثيرة، عربي، موسيقي، مثقف شاب، هامشي منزوي، طالب متمسك بواجباته، سياسي هامشي).

في فيلادلفيا التقيت زميلة أختي الكبرى روزي التي رافقتنا إلى عرض "موت التاجر المتجول" مع Mickey Shaugnessy بدور فيلي لومان Willie Loman كلتاهما درستا في السنة الثانية في Bryn Mawr وكانت أختي تغلبت على الحنين ولم تتغلب على كره المكان.

صديقتها كانت زرقاء الدم من مشاهير الكولج شديدة الجمال والجاذبية. كانت طويلة القامة ذرفت دموعها خلال العرض استعارت محرمتي ووعدت بإعادتها ما شدني لها. عندما التقيت بها بعد أسابيع شعرت بميل عميق شديد لها مقيداً وأردت البقاء معها دوماً مع الشعور القاتل أن هذا ليس ممكناً. تعليمات برينسيتون، البعد عن Byrn Mawr، مناهج جامعية معقدة حددت لقاءاتنا. في ذلك الوقت كانت علاقتي بايفا التي كانت تتحقق خلال العطلة في ضهور شوير. من خصائص حياتي الأمريكية كان انسياقي في سنتي الأخيرة في برينسيتون وراء حبي في Bryn Mawr كل ستة أسابيع بنجاح وفجأة مخيبة للآمال. بينما كانت ايفا جزءاً من حياتي في الشرق الأوسط. العلاقتان تصالبتا وبقيتا عذريتين غير متممتين. إحدى صديقاتها التي صادفتها بعد عشر سنوات قالت لي إنها أمريكانية فوق العادة تشبه إلى حد بعيد الأميرة ديانا في غاية الجمال وصعبة المنال.

بعد نهاية علاقتي بايفا في نهاية الخمسينات، تابعت علاقتي بالمرأة الأمريكية الغامضة والتي كانت تحاول التباعد بمحاولات متكررة. بعد فشل زواجي غير السعيد مع امرأة أخرى ولمدة قصيرة، عدت من جديد إلى صديقتي في Bryn Mawr . عشنا سنتين معاً وكنا شركاء حقيقيين وبعد اثني عشرة إلى ثلاث عشرة سنة مع انقطاع كان طابعها الرغبة الجنسية من ناحية ومن أخرى كبتها . لم تكن مثقفة أو بأهداف واضحة محددة في الحياة. قضينا السنة الأولى معاً في جامعة هارفارد ١٩٥٨/١٩٥٩، هي درست تربية وأنا علوم الأدب. صرحت لي عن علاقتها ومشاكلها مع رجل آخر ما أهانني وألحق بي الحيرة لكني حافظت على هدوئي وعند منتصف السنة كنا نتواصل هاتفياً بشكل منتظم ذهبت لفترة إلى نيويورك لتعمل كمعلمة ثم إلى أفريقيا حيث بقيت ثلاث سنوات تُدرس. كانت مهتمة بالمسرح والفلم وكان عندي الانطباع أنها رغم مواهبها البالغة ما كانت تعمل كمعلمة لحبها المهنة أو التلاميذ بل بدوافع مادية وليست نابعة عن قناعة داخلية.

من غاية الصعوبة وصف قوة جاذبيتها، السرور البالغ بالوحدة الجسدية والحنان لرؤيتها من جديد كل هذا كان ما ربطني وقيدني إليها طيلة سنين. أحياناً مَثَلْت جانباً من مثاليات أمريكا وتُركتُ أمام مدخلها دون أن يتحقق لي الدخول. كان لها عرف أخلاقي ما دفعني أن أرهق نفسي بالتمسك بأحسن سلوك.

وعائلتها الأريستوقراطية التي صورت لي فقيرة ليس إلا بسبب تصدي رب العائلة "محامي" لخصم قوي في وزارة الدفاع وخسر المعركة المربوطة

بالخسارة. وتمتعت العائلة التي تعرفت عليها لاحقاً بذوق رفيع ومستوً عالٍ ورونق مميز ما جعلني أحياناً أشعر بنوع من الخضوع أمامها. أكثر ترابطاً كان لأخيها، رياضي مشهور وبنفس عمري وكان درس أيضاً في جامعة هارفارد رأيتهما مرة واحدة معاً. كل ما روت لي عنه كان يدل على حب غير عادي، تحسب واحترام وتعلق ما جعلني ولسنوات، يساورني الشعور أن هذه العلاقة سبب عدم تقاربنا الكامل، العلاقة التي رغبتها أيضاً هي وحالت دون تحقيقها. في هذا الخصوص أرى اليوم أني كنت حينذاك معدوم الإرادة. بعناء أتذكر إحساساتي التي خلفتها عندما أخبرتني بقرارها بالانفصال.

قالت أحبك لكني لست مغرمة بحبك عندما صممت أن لا نرى بعضنا من جديد/ حدث هذا في نهاية عام ١٩٥٩ قبل سفري للقاهرة لقضاء العطلة الصيفية.

درست في جامعة هارفارد وكنت معتمداً على أعمال والدي التجارية التي خضعت لنظام عبد الناصر الاشتراكي المؤثر من حيث التأميم ومنع حسابات في بنوك أجنبية حيث كانت شديدة الضرورة لأعماله للاستمرار. في طريقي من مطار القاهرة إلى المدينة شعرت بتهديد غير مباشر حسب مشاعري الماضية أن تقتلع جذورنا في القاهرة وإلى أين سوف نذهب. بضعة أيام بعد وصولي، ساعد حركة المدينة أمواج البشر، معارفي من نادي الجزيرة، المرور والأهرامات التي كنت أراها من نافذة غرفة النوم، كل هذا على رفع معنوياتي. وما قال أحد أصدقائنا هذا الشرق وكل شيء يمشي ببطء.

لا تغيرات وقتية، لا مفاجآت، رغم قوانين اشتراكية يومية يعلن عنها. رغم المتناقضات والهموم سرعان ما تعاطيت مع واقع الأمور، ذهبت كل صباح

إلى محلات والدي رغم عدم الحاجة لي. لتصلني بطاقة من شارتر Chartres "أتت منها وبعد أسبوعين سألتني إذا كانت تستطيع زيارتي في القاهرة. كنت سعيداً وشعرت بنبضات "ديانا"، قالت أريد القدوم وما كنت أستطيع إقناعها بالعدول بضعة أسابيع بعد ذلك كنا معاً ثم افترقنا وهكذا مشت الأمور.

عندما ذهبت إلى أفريقيا بعد بضعة شهور اضطرت للعودة بسبب مرض أخيها ليتوفى بعد ثلاثة أشهر في أحضانها. بسبب الـ: لوكيميا التي لم يكن لها علاج ذلك الوقت. كان ذلك أكبر صدمة في حياتها ورغم استئنافها العمل في أفريقيا لسنتين أخريين، لم يكن بمقدوري تخمين مقدار خسارتها. لاحقاً وبعد إنهاء دراستي في جامعة هارفارد وبدأت العمل في جامعة كولومبيا وتزوجت زوجتي الأولى اختفت عن عيني. بعد فشل زواجي عدت إليها لكن مشاعري تبدلت، سنوات انتظار "ديانا" وجدت نهاية لها. كانت جزءاً ضرورياً من حياتي لـ: "أنا" المضطهد، الجوع متخفٍ في أعماقي وما كنت أتصور حياتي دونها. كان الأمر وكأنها تتكلم مع شخصيتي التي احتفظت بها طويلاً لنفسي وليس مع "اد أو ادوارد" الذي ألحق بي لكن مع "أنا" آخر ما كنت أتلمسه ولم أستطع الإمساك به. حين أكون معها تظهر وكأنها تصل (إليه) وفجأة ندرك الحقيقة أننا لا نستطيع المتابعة وهكذا انتهت علاقتنا.

في شهر تموز ١٩٥٧ أنهيت دراستي في برينستون حين عوفيت من مرض الحصبة المتأخر أهلي أتوا ليحضروا رسميات احتفال في بيتا كابا Phi Beta Kappa" وليتكلموا بعد الاحتفال مع البعض من أساتذتي رغم تفوقي. والدي سأل إذا كنت فعلاً أجهدت نفسي معطياً الانطباع أنه يشك في ذلك،

والدتي كانت تؤكد لي أنه كان فخوراً بي إضافة لمنحة للدراسة في جامعة هارفارد التي أجلتها سنة. معظم الأساتذة جاملوا ببعض الكلمات كعادتهم التقليدية. ما عدا بروفيسور ساسماري الذي جابههم بكلمات غاضبة من عدم منطقية السؤال وشكله:

"هل بذل أقصى جهده" فكرت أي مناضل متقدم هذا الرجل وكم تمنيت أن أصبح مثله.

كنت مبعثراً بين مؤثرات مختلفة حين قررت وأهلي العودة لسنة إلى القاهرة. كنت أود أن أجرب كيف سوف أعيش، وأتعاطى فيما لو قررت استئناف عمل والدي. في نهاية عام ١٩٥٨ بدا الأمر وكأنَّ الأبواب كلها مغلقة لا يمكنني العمل في شركة تخص والدي وهو الذي أسسها.

هذه منطقة نفوذه وأنا أكره الارتباط، أملاك وفأل أمران مختلفان وتأكدت أني في تنافس معه لن أربح جولة. خلال دراستي في برينسيتون وهارفارد أغدق عليّ بالمال وعرفت يوم عودتي أنه سيكون يوم فحص محرج. تمشى حولي وقال ادوارد ما هو رأيك بحديث قصير، هذا السؤال استمر بنفس الشكل عشر سنوات سنة بعد سنة يعيد نفس السؤال وفي النهاية أخرج ورقة من جيبه وقرأ في هذه السنة أرسلت لك ٤٣٥٦ دولاراً ماذا تبقى معك من المبلغ. لأني توقعت هذا السؤال قضيت ساعات في الطائرة أثناء عودتي في تسجيل مصاريفي كرسوم الدراسة وآجار الغرفة والطعام والمبلغ كان دوماً تحت المبلغ الإجمالي الذي كان يرسله لي. عندما كنت أقف أمامه كان يعتريني

دائماً الشعور بالذنب، صامت غبي. قلت أنك دفعت خمسين دولاراً لقص الشعر، هل تدري كيف عملت للحصول على هذا المبلغ، ما تبقى على حسابك في البنك تابع. حتى بدء عطلة الصيف تبقى على الحساب في البنك عشر دولارات فقط، كان دائماً يوجه لي تلك الاتهامات حتى تجاوزت العشرين من عمري. لا أريد ربط ذلك بكرمه مطلقاً، كان دفع مبالغ طائلة لساعات تعليم العزف على البيانو في بوسطن. في عام ١٩٥٨ سمح لي شراء سيارة في إيطاليا لأقضي عطلة صيفية كبيرة عبر أوروبا، قضيت أسابيع في بايرويت وسالدبورغ ولوزان وهكذا. كنت أعرف أن أمنياتي تتحقق بتوسيط والدتي وعندما أتوجه له مباشرة كان رد فعله دوماً سلبياً. أقر أني كنت دوماً خجولاً مرتبكاً حذراً أن أتوجه له بطلباتي مباشرة. رغم أنه تحمل كل نفقاتي خارج البرنامج التعليمي وكل ما احتجت له لم أستطع الكلام معه حول النقود كما أراد هو أن يكون بحيازتي كثيراً من النقود. والدي أُقر أنه كان يمتلك الرغبة في التملك ما كنت لا أتمتع به ولم أكتسبه.

حتى سقوط فلسطين كان هو وعائلة ابن عمه بولوص (بولوص توفي في عام ١٩٣٦ و ١٩٤٠) يمتلكون معاً المحلات التجارية في فلسطين ومصر، في ذلك الوقت لم يأخذ أحد منا ولو قلم رصاص دون وصل من المحلات. كان يغضب حين يعلم بمصاريف غير لازمة عندما كان يبيع آلات وموبيليا بكميات كبيرة للحكومة المصرية وللجيش البريطاني ولاحتكارات مثل شل وموبيل أويل، كان يسألنا: هل تعرفون كم قلم رصاص يتوجب عليّ بيعها لأحصل على دخل خمسين قرشاً.

حتى عمري الواحد والعشرين صدقت هذا القول وأذكر كيف استفززته عندما سألته عن أية أقلام تتحدث أنت لا تبيع أقلاماً بل أدوات حاسبة لـ: مونرو وتربح في صفقة واحدة ألف جنيه ما جابهه بالصمت لكن ابتسامته الشاطرة أشارت لي إعجابه من أن أتفوق عليه.

والدي جسد العمل التجاري وأصبح ملاكاً، لعب دور الممتلك الوحيد من كل طرف. لم يغب شيئاً عن ناظريه كان يرى كل صغيرة، ما كانت في زاوية في مكتبه، في محلاته، في المخازن، في ورشات العمل والمصانع تنجو من عينه الفاحصة. العمل يبدأ في الثامنة صباحاً تتخلله فرصة ظهر ليستأنف حتى السابعة والنصف ويوم السبت كان نصف يوم والأحد يوم عطلة وراحة. في أيام الأعياد ترفع الراية الأمريكية عادة أصابت مستشرق أمريكاني أعرفه من برينسيتون الذي كان في القاهرة بمرارة شديدة أن هذا الأمر غير مناسب إطلاقاً، قال هنا مصر رفع هذه الراية يعني إهانة المصريين ولا أعتقد أنه رغب التعرف على والدي أو شاء أن يقول له نفس الشيء، أما مستخدمو والدي فقد احترموا هذه العادة. عرف كل زبائنه وحين يرتبك بائع يسارع لخدمة الزبون. بشكله ومظهره أوجد انطباعاً لدى الغير ما كان ينقصني، أينما ظهر في شارع عبد الخالق ثروت أو أمام مكتبه في شارع شريف تظهر عليه الثقة بالنفس والتملك الأكيد غير المتنازع. بينما كنت أنا هامشياً خلال زياراتي. بالطبع سماني الكل وحتى الأكبر سناً "مستر ادوارد" لقب مضحك ومحرج كما كنت أراه. كنت ما يتعلق بممتلكاته لا أستعمل أحرف تملكية مثل: "نحن أو نهايات تدل على الامتلاك مثل: "انا" كمحلاتنا كما لم تكن لي وظيفة معينة. والدي

أراد مني على ما بدا لي كابنه أن أعمل معه أما في الواقع فقد كنت أسافر وحدي بالسيارة إلى المحل الساعة الثامنة، أقضي كل الوقت بالمحل أو المكتب، أبقى بعد الظهر لوحدي بالمكتب دون وظيفة معينة ما تحملت لقسم ما مسؤولية وعندما طلبت منه عملاً معيناً محدوداً؛ يكفيني أن تكون موجوداً. حتى والدتي اعترضت على المهمة العائمة غير الواضحة بعدما أصبحت حامل بكالوريا برينسيتون متوجاً باحتفال (في بيتا كابا) وأيضاً دون نتيجة، يكفيني أن تكون موجوداً. بعد أيام الميلاد بدأت أذهب متأخراً وأمكث في المكتب لوحدي بعد الظهر بينما كان هو يلعب بريدج، كنت إما أقرأ، إذ في أسبوع قرأت كل ما تعلق بـ: "ألان[1] Alain" وفي أسبوع آخر طبعة Pleiade لالان ثم في أخرى لـ: كيركيغارد[2] Kierkegaard ونيتشي[3] Neitzche وفرويد Freud أو كتبت الشعر ونشرت بعضاً منه في بيروت أو كتبت رسائل لأصدقاء. منذ نهاية شهر كانون الثاني بقيت في البيت وتمرنت على البيانو دون اعتراض من والدي. كنت غير واثق من نفسي أن أتكلم معه كالابن الوحيد والأكبر لأسباب لا أعرفها عن حقي بوراثة أعماله. شركة SSCO كانت تخصه وحده وكان يدفع لي شهرياً حسب معايير ذلك الوقت مبلغاً شهرياً محترماً مائتي جنيه مصري أن أقف في نهاية الشهر في صف الموظفين والمستخدمين لاستلام الراتب والتوقيع لأسباب ضرائبية كما قال وكنت أستلم كالغير راتبي نقداً وما أكاد

1 ألان: ملحن فرنسي في مطلع القرن العشرين في باريس ولد في ٣ شباط ١٩١١.

2 كيركيغارد: ذكرت في فصل سابق أنه عالم لاهوت دانماركي.

3 نيتشي فيلسوف ألماني معروف.

أصل البيت حتى يطلب مني بحزم أن أعطيه المبلغ، محتجاً أن هذه قضية مالية بحتة وأني بمقدرتي الحصول على كل ما أحتاجه منه وتقيدت مطيعاً بذلك.

وفي النهاية كان هذا عمله وإنتاجه، هذه الحقيقة جعلتني أشعر بعدم لزومي والحق والابن "الابن" كما سماني موظفوه ومستخدموه، أمور تجارية ما كان لي علاقة بها عندما وجدت، وجدت صدفة والأعمال التي تمت دون وجودي أو تأثيري مرة واحدة كنت مفيداً لوالدي كان هذا في صيف ١٩٦٠ عندما منعت اشتراكية عبد الناصر العربية تحويل العملات الصعبة التي كانت ضرورية للاستيراد.

والدي لجأ إلى قضايا مقايضة معقدة على سبيل المثال عندما باع فستقاً مصرياً لرومانيا وأتت لهذا الغرض عربات قطار من فرنسا والتي بدورها أحضرت آلات طباعة لوالدي. حاولت فهم هذه العمليات وكان والدي يتقن كل العمليات الحسابية في رأسه كأسعار النقد اليومية والكومسيون وأسعار الدولار المتغيرة يومياً بينما كان يجلس أمامه الوسيط البرت دانيل بآلته الحاسبة. عقدوا صفقاتهم بينما كنت أنا جالساً أنظر إليهم. تساءلت إذا كانت الأمور شرعية، كيف يحاول والدي تجاوز العقبات التي وضعت أمام المستوردين. قرر أن ينتج في مصر الموبيليا المعدنية لكنه كان بحاجة للمواد الخام من الخارج. لكن العثرات والتعقيدات كانت بالغة لكنه تحدى كل شيء وحال ما كانت المواد الخام جاهزة أذكر أن حله للأمور المعقدة كان يعجبه لكن سروره أوجد عندي شكوكاً وما كنت لأساهم بعمل نافع، والدي ودانيل كانا سريعين واثقين بعمليات تحويلهم للعملات الصعبة.

في يوم بعد الظهر خابرني والدي من النادي ما كان نـادراً أن يحدث وكنت جالساً بالمكتب أقرأ جريدة، قال اليوم سوف تحضر لك بعض الأوراق عقـود أريـد أن توقع وترسلها مع ساعٍ إلى دانيل، حولني إلى "شيف، رئيس"، أنـت في الواقع في منصب قيادي. أما بالنسبة لي ما كان ذلك ليترك انطباعات لديّ، كنت موجوداً ببساطة وقدمت بين الحين والآخر إنجازاً. وقعت العقد دون الاهتمام بمحتواه. بسبب هذا العقد منعت لمدة خمس عشرة سنة من العودة لمصر.

لأن العقد كان مخالفاً لقوانين التجارة الخارجية، والدي أخبرني أن الشرطة بحثت عني وضابط قال له سوف يقتادوني مكبلاً ولو من خارج البلاد إلى السجن. لكنني لا أتصور أن والدي ورطني بهذه القضية وأراد الإساءة لي وأرى أن الخطأ كان من قبل الشرطة المصرية.

بسبب نشاط الشرطة المبالغ طردت من المدينة الوحيدة في العالم ولمدة خمسة عشر عاماً، المدينة الوحيدة التي شعرت فيها وكأني في البيت.

وهكذا بدأ عالمنا في القاهرة بشكل مهدد مخيف أن ينهار عندما لم تقتصر هجومات ناصر على طبقات معينة مميزة، بل أيضاً ضد اليساريين مثل دكتور فريد حداد. في سنتي الثانية ١٩٥٩/ ١٩٦٠ في جامعة هارفارد بعد موت فريد حداد ومحاكمة جورج فهوم بمخالفات اقتصادية بدا واضحاً لي أن أيامنا كغرباء في مصر قاربت على النهاية. جو من الخوف والكآبة خيم على أصدقاء محيطنا العائلي وأغلبهم بدأوا تحضير رحيلهم منهم إلى لبنان وآخرون إلى أوربا وقاموا بذلك.

سنواتي الخمس كطالب آداب في جامعة هارفارد ١٩٥٨/١٩٦٣ كانت تتبع زمني الثقافي في برينسيتون بما يتعلق بالشكل التعليمي. ميز كلية الآداب

نظرة تاريخية تقليدية وشكلية بحيث كانت التحضيرات للفحص حول مرحلة بعد الأخرى حتى القرن العشرين. أتذكر ساعات وأياماً وأسابيع قراءة لم تتعد ما علمنا الأساتذة وما توقعوه من طلاب من سلبية. ما كان أمراً ليحدث فينا بلبلة افتقاد قدوة جعلنا نشعر أننا لسنا في المكان الصحيح ولا نشعر برضا. اكتشافاتي الثقافية خارج المنهاج مع زملاء مثل آرثر غولد، ميخائيل فريد وتوم كارنيسيلي عوضت النقص.

الشرق الأوسط بدأ يختفي من وجودي حيث ما كنت أقرأ شيئاً عربياً ولم أكن أعرف عرباً ما عدا طالب الحقوق رالف نادر الذي كان، خلافاً لي قد ولد في أمريكا وساعدني في نهاية أزمة برلين في عام ١٩٦١ أن أنجو من التجنيد. وأهم ما كان يشغلني كتب: فيكو، قصص الطبقات لـ: لوكاس، سارتر، هايداغار، وميرلو بوتني - Vico, Ludac, Sartre, Heiegger, Merleau Ponty كلهم جاؤوا في أطروحتي لنيل الدكتوراه حول كونراد التي حضرتها تحت رعاية حفيد مونرو هاري ليفين Harry Levin. حاولت مرتين الاستماع إلى المتقدم بالعمر "أي. آ. ريشارد I. A. Ruchard وكان يتوقف في منتصف المحاضرة لتأتي سكرتيرته وتعلن انتهاء المحاضرة.

ريتشارد كان نسخة صغير عن مفكر مغامر غير واضح المعالم يسترسل بعيداً عن الموضوع.

عندما قرأت كتابه الرئيسي رأيته ضئيلاً غير كامل لا يتحدى على عكس بلاك مور. أحياناً أثار أساتذة ضيوف فوضى إيجابية وكانوا قلة مثل كينيث بوركيس Kenneth Burkes بمحاضرته حول: لوغولوغي Loglogie كما

سماها وكنت منفعلاً (لم أجد في القاموس كلمة لوغولوغي وكلمة لوغو لوحدها تعني العقلانية، ربما كان ذلك اصطلاحاً خاصاً للمحاضر يعني نفس الشيء).

أكبر تأثير موسيقي عليّ خلال دراستي في هارفارد كان لـ: إغناس تيغرمان Ignace Tiegerman لاعب بيانو بولندي لا يتجاوز طوله ١٥٠ سم مدير معهد موسيقي ومعلم كان منذ منتصف الثلاثينات يُدَرّس في القاهرة ويعيش فيها. لم يسبق وتعرفت على إنسان بموهبته كعازف بيانو ومعلم موسيقي. عندما كان على ظهر باخرة في سياحة تجولية وزار مصر أُغرم بها وبقي هناك عارفاً ماذا يعني تصاعد المشاعر القومية بالنسبة لليهود كما كان الأمر في بولندا.

كان في الواقع كسولاً ولما تعرفت عليه كان لم يعد يتمرن أو يقيم حفلات موسيقية. تعويضاً لذلك كان في مخه كل أدب البيانو لبيتهوفن من السنوات المتوسطة حتى بروكوفيف Prokofjew وكان يعزف ألحاناً لشوبان بشكل رائع، ألحاناً كثيرة لشوبان ما سبق لي وسمعتها بهذه الجودة كما سمعتها منه. شجعني ليس بالكلام بل بما قدمه ونبهني أين يجب عليّ أن أغيره وأحسنه في عزفي. ما كان لي معلماً استقلالياً بقدر ما كان صديقاً شكلت الموسيقى جزءاً من حياته. خلال أحاديثنا في مساء أحد حار في القاهرة أو لاحقاً في بيته الصيفي الصغير في كيتزبيل Kitzbuhl في النمسا، كنا نتحدث ثم نعزف ثم نتحدث وهكذا.

ما يتعلق بالموسيقى اختفى أملي بمستقبل مهني موسيقي عندما وجدت أن التمارين اليومية المستمرة والحفلات النادرة جسدياً وثقافياً لا تتناسب مع

طموحاتي الثقافية. واكتشفت لأسفي أن موهبتي الموسيقية كما كانت لم تعد كافية لمستقبل موسيقي مهني. مثل تيغرمان الذي عاش بي وترك آثاره أقنعني عن أن لا أبحث في البيانو أكثر من سرور العزف الذي أبقيت عليه وعلى مستوى ثابت طيلة حياتي. كما شعرت أني لن أستطيع تخطي العتبة بين عازف موهوب وفنان فعلي.

لدى أناس فنانين مثل تيغرمان وغلين غولد Glenn Guold الذين زرت حفلاتهما في بوسطن في عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦٢ واستمتعت غاية المتعة شاهدت التنسيق بالقراءة للصفحات بارتباط مع الذاكرة واليد والأذن ما يحدث دون أي عناء يذكر. أما بالنسبة لي يمثل كل هذا صعوبة بالغة ما يؤدي بالنهاية إلى نجاحات غير مضمونة.

رغم ذلك أقمت حفلات موسيقية مع صديقي عفيف (الفارس) بولوص هو في "الباريتون" وأنا على البيانو. لماقييس العصر حينذاك كان بشكل غير مألوف لوطياً مفتوحاً. من أهالي القدس يكبرني بخمس عشرة سنة وهدفه كان دبلوم في الـ: "لينغويستيك Liguistik (لينغويستيك علم نوعاً ما حديث يهتم بالمعثرين بالكلام خلقاً) أو المتلعثمين.

كان من القلائل من أيام هارفارد الذين التقيت بهم في بيروت حيث كان يُدرس حتى وفاته في عام ١٩٨٢، قتل طعناً بالخنجر. كان مؤشراً مرعباً وإنذاراً للغزو الإسرائيلي للبنان وبعد ذلك بثلاثة أشهر للحرب الأهلية اللبنانية كانت في الحي الذي يقطنه بأعنف صورها في رأس بيروت. في كامبريدج تمرنت وعفيف في بيتي سكنت في نهاية ساحة فرانسيس وكانت مؤجرتي

سيدة لطيفة "سايس كارتير Thais Carter" والتي درست ابنتها مع أختي روزي في Bryn Mawr . سايس كانت سيدة مُطَلقة في منتصف العمر وعاشت لوحدها . في أشهر الصيف جاء والدها مستر آتوود من فلوريدا للزيارة . أجَّرت غرفتين في الطابق الأعلى وسكنت إحداهما ثلاث سنوات مرتاحاً بسبب كرم ضيافتها وحبها للنكتة وقابليتها للصداقة كانت بسن والدتي صبورة بعكس والدتي، منتظمة، بينما كانت والدتي انفعالية بمزيج من السذاجة والثقافة المنشغلة .

نشأت صداقة بين والدتي والسيدة سايس رغم اختلاف شخصيتيهما وتناقضهما، سايس كانت متسامحة وكانت الصداقة والميل لعفيف بمظاهره اللوطية، بينما والدتي كانت تشعر بتقشعر بدنها .

أذكر أني في عام ١٩٥٩ أخبرتها عن لوطية عفيف وفوجئت أنها لم تفهم الموضوع وماذا يعني الأمر كردود فعلها عند الحديث عن أي أمور جنسية . اعتبرت ولازلت أعتبر والدتي مرجعي الوحيد بشكل لم أفهمه كلياً ولم أفسره . في عام ١٩٥٨ في الصيف في سويسرا حصل لي حادث سير عنيف حيث اصطدمت بسيارتي وجاهياً مع دراجة نارية أدى لوفاة سائق الدراجة وأصبت أنا بجروح، حتى اليوم أسمع الصخب من الاصطدام والذي فقدت فيه وعيي . كما أتذكر لحظة عودتي لوعيي على مرج بجانب الطريق ينحني أمامي رجل دين ليعطيني البركة الأخيرة .

بعد فترة دفعت رجل الدين ودفعني شعور داخلي أن أخابر والدتي والتي كانت والعائلة في ذاك الوقت في لبنان . كانت أول من أخبرته بالحدث بعدما

أُحضرت لمستشفى في مدينة فريبورغ Fribourg إحساسي أن كل شيء بدأ وانتهى بوالدتي، شعور وجودها الدائم وقدرتها اللانهائية غير المحسوسة للحب أعطى حياتي ثقة عبر السنين خلال حقبة تعرضت فيها لتغييرات ثقافية عاطفية وسياسية تلمست خلالها إن شكلها المثالي، صوتها، حمايتها، عنايتها الأمومية ويقظتها الأمر الوحيد الذي كنت أثق به وأعتمد عليه. عندما انفصلت عن زوجتي الأولى كانت هي من ساعدني في لحظات البلبلة رغم تناقضاتها التي ربما كانت تجاهلتها أو ما اهتمت لها.

قالت إذا كانت الأمور بينكم سيئة للغاية فما عليكم إلاّ الانفصال وأضافت لكن بالنسبة لنا نحن المسيحيين الزواج أبدي ومقدس والكنيسة لن تعترف بالانفصال. أقوال شلتني. رغم ذلك تمكنت عبر السنين أن أتجاوز اعتراضاتها وأحظى على مؤازرتها التي كنت في أشد الحاجة لها بعد ضياع القاهرة وفقدان فلسطين الدائم في حياتنا الذي أخذ شكلاً حقيقياً واقعياً. عام ١٩٦٧ جسد اقتلاع الجذور والذي أخفى في طياته كل الإخفاقات، عوالم الطفولة اختفت والشباب والتربية سنوات التعليم غير السياسية، الأمل بحياة هانئة كمعلم في جامعة كولومبيا وهكذا. بعد ١٩٦٧ لم أعد نفس الإنسان، صدمة الحرب أعادتني حيث بدأ كل شيء، الصراع حول فلسطين.

تبعة ذلك انتسبت للحركة الفلسطينية التي نشأت في نهاية الستينات وفي السبعينات في عمان وبيروت التي تجلّت فيها خريطة الشرق الأوسط وعدت إليها. نبع ذلك من زاوية غير هادئة مخيفة من حياتي الماضية، من الشوق لكسر حصار الصمت، والعودة بالأمور إلى وضعها الأصلي وتدمير المكان غير العادل

ومطاردته. قلق والدتي الدائم وعدم الاستقرار كان أولاً لفقدان والدي والتطورات التي حدثت حولنا الـ: PLO تصاعدت قوتها بشكل متوازٍ مع الحرب الأهلية كما زاد معناها، تغلبت بجأش على الاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢، اهتمت بأمور البيت الذي سكنت فيه أختي الأصغر غريس مع صديقين إبراهيم أبو لغد وسهيل معري IbrahimAbu Lughd Sohail meari اللذين أصيب بيتهما بصاروخ إسرائيلي في بداية الحرب، أثبتت شجاعة فائقة.

ولكن حين كنت أحاول الحديث معها حول السياسة وخاصة حول المشاكل المعقدة التي تواجهنا في الحياة اليومية كانت تنهي الحديث وتقول عد إلى آدابك السياسية في العالم العربي. أهلك بشر شرفاء مثلك. بعد نهاية دراستي مرت سنين لا أدرك أنها تدخلت بشؤوننا نحن الأخوة لا أعرف عمداً أو تلقائياً ولن أستطيع أن أعرف ما وقفت بيننا. لا زالت عوائق بيني وبين أخواتي قائمة والتي نتجت عن دوافع أخرى وفي المقدمة من والدتي، بعض العوائق لم يكن من الممكن إزالتها ما يؤسفني لكني أعتقد أنها موجودة في كل عائلة. واليوم أدرك أن عشنا العائلي حينذاك لم يكن صورة لحياة مستقبلية وخصوصاً للعالم الذي عشنا فيه. أعتقد أن والدي شعر بذلك ما دفعه لإرسالنا للولايات المتحدة للدراسة كما أعتقد أنه رأى مستقبلاً لي فقط في حال انفصالي عن العائلة. طموحي إلى الحرية، إلى "أنا" المختفي خلف ادوارد ومغطى منه يبدأ بهذا الكتاب لهذا أعتبره حظاً رغم أنه جعلني لوقت طويل وحيداً وغير سعيد.

اليوم يبدو لي ليس من المهم وليس مرجواً أن أكون في المكان الصحيح بل الأفضل في المكان الخطأ أتجول في العالم، لا أملك بيتاً، ولا أشعر

في مكان ما أني في البيت وخاصة في مدينة مثل نيويورك التي سوف أبقى أعيش فيها حتى وفاتي.

في شهور حياة والدتي الأخيرة شكت أنها لا تستطيع أن تغفل عاشت في واشنطن وأنا في نيويورك اتصلنا دوماً هاتفياً ورأينا بعضنا مرة بالشهر، السرطان انتشر في جسمها ما عرفته، رفضت علاجاً كيماوياً قائلة: "ما بدي هلعذاب" سنوات بعد ذلك تعرضت نفسي لهذا العلاج دون نجاح. هي لم تتراجع ولم تخضع لإلحاحات أطبائها بالعلاج الكيماوي ولم تهنأ بالنوم ليلاً. أدوية ضد الألم، حبوب منومة، مشروبات مهدئة، نصائح من أقرباء وأصدقاء كل ذلك لم ينفع. قالت بصوت مرتجف ساعدني ادوارد أن أستطيع النوم بينما كنت أكتب هذا الكتاب. المرض اجتاح دماغها وكانت في الأسابيع الأخيرة تنام دوماً. أن أجلس إلى جانب سريرها مع أختي غريس منتظرين أن تصحو كان أصعب وأمر تعايشي معها. بدا لي أن عدم رغبتي بالنوم هو آخر وصية لها كأمر معاكس لصراعها مع النوم. بالنسبة لي أرى في النوم أمراً يجب إنجازه بالسرعة الممكنة كنت أذهب متأخراً للنوم وأصحو في الصباح الباكر. مثلها كانت سرية النوم الطويل بالنسبة لي غامضة على عكسها وصلت لمرحلة لا أريد فيها النوم النوم بالنسبة لي هو الموت مثل تقليص الوعي. أثناء علاجي الأخير، عناء اثني عشر أسبوعاً، أرهقني تناول أدوية ضد الحمى ورجفة البرد وعلى الأخص النوم الاصطناعي شعور الطفولية والعجز ما شعرت به قبل سنين كطفل تجاه والديّ، تصديت بحزم وضد نصيحة الأطباء لأدوية النوم كما لو كانت شخصيتي متعلقة بالموضوع. عدم النوم أرى فيه حالة قيمة أتوق لها بأي

سعر، لا أرى شيئاً آخرَ منعشاً كالصباح الباكر عندما ينفض المرء عنه الليلة الضائعة أتعرف من جديد على نفسي وأتعامل من جديد مع ما بدا ضائعاً كلياً قبل ساعات قليلة.

الموجات تجري مثل مواضيع الحياة عبر ساعات الصحو ولا تحتاج للمسامحة أو التوافق ربما في المكان الخطأ ولكنها على الأقل دائماً بحركة الزمان والمكان في كل الأحوال الممكنة الخاصة المتبدلة التناسق والتي ربما لا تسير باتجاه واحد وربما ضد بعضها البعض دون قضية مركزية.

أرى في ذلك نوعاً من الحرية رغم عدم قناعتي أن الأمر يحوم حول ذلك كما لا أريد التخلي عن الشك. في حياتي وجدت ألحاناً[1] تجعلني أفضل أن أتواجد في المكان الخطأ.

---

1 قال وجد في حياتي Dissonanzen كثيرة والتعبير تعبير موسيقي يعني اللحن الذي ينتج موحداً من آلات موسيقية كصوت واحد، لا أدري إذا كان تعبير ألحان الذي اخترته يفسر المقصود.

ملحقات

مذكرات المؤرخ الفلسطيني الأمريكي تحدثنا عن ضياع الطفولة والوطن.
مذكرات سعيد إبداع أدبي، هذا الكتاب الذي يهز المشاعر هو أحسن جواب للكشف السياسي عن الأمور الخفية.

جريدة "دي تسايت" Die Zeit

أكبر جريدة سياسية أسبوعية ألمانية

سعيد من أهم مثقفي العصر في قرننا هو في المكان الصحيح

نادين غورديمير Nadine Gordimer

في المكان الخطأ يأتي كالصاعقة من السماء، حلم يتحول إلى واقع.
في هذا الكتاب يبدو طريق سعيد للتعرف على الذات في غاية الدقة، بدون شك سعيد هو من مثقفي العصر من الذين لا يمكن التخلي عنهم.

كينتسابوراوي Kenzaburo Oe

تعريف

إدوارد سعيد ، كاتب ، عالم آداب، أستاذ جامعي للآداب الإنكليزية وعلوم الاداب المقارنة في جامعة كولومبيا في نيويورك .

نشأ في فلسطين. مع الموسيقي العالمي المشهور دانيل بارن بوم ويويوما قاد من ٧ إلى ١٧ تموز ورشة عمل حول West - Ostlicher Divan (لا تذكر السنة) .

حوالي تسعين مشتركاً قدموا من إسرائيل والدول العربية ومن فايمار (مدينة في شرق ألمانيا)

في أعمال سعيد تجلت خبراته . عائلته طردت من فلسطين في عام ١٩٤٨ واستقرت في القاهرة . منها أتى سعيد إلى نيويورك .

درس في جامعة برينسيتون وجامعة هارفارد وأوجدت دراساته حول تقرير المصير للفلسطينيين صدى عالمياً .

كتب بشكل منتظم لصحف يومية مثل الغارديان اللندنية ولوموند ديبلوماتيك وصحف عربية ذات أهمية مثل الحياة .

في عام ٢٠٠٣ حصل على جائزة من آديليبرت فون شاميسو التابع لوقف روبرت بوش .

ادوارد سعيد توفي عام ٢٠٠٣ بعد مرض طويل وصعب في نيويورك.

ادوارد وليام سعيد ولد في ١ تشرين الثاني ١٩٣٥ في القدس في فلسطين وتوفي في ٢٥ أيلول ٢٠٠٣ في نيويورك.

كان معروفاً كعالم آداب وناقد أدبي أمريكي وكان صوت فلسطين في الولايات المتحدة.

اسمه العربي ادوارد وديع سعيد وليس ويليام كما يقال دائماً. نفس الاسم كان يحمله والده.

سعيد ولد كبروتستانتي فلسطيني في القدس لكنه قضى أغلب أيام طفولته وشبابه في القاهرة.

حصل من جامعة برينسيتون على: Bachelor of Arts

حصل من جامعة هارفارد على: Master of Arts and Ph. D.

درس الآداب الإنكليزية في جامعة كولومبيا إضافة إلى جامعات هارفارد ويال.

أكثر شهرة هو كتابه: Orientalism الذي يُري صورة مشوهة رومانتيكية عن الشرق الأوسط. والكتاب هو في نفس حساب ومراجعة دون تحفظ مع علم الاستشراق الغربي. عداء عميق للإسلام ينبع من فكر سياسي تقليدي حتى في المجالات الأكاديمية. ما يسمى بالـ: Orientalism يريد الغرب المتيقظ بواسطته التسلط على العالم الإسلامي.

نضال سياسي:

سعيد يدافع عن حقوق الشعب الفلسطيني في إسرائيل والأراضي المحتلة وفي الشتات. كان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني لكنه انفصل عن

عرفات بسبب اتفاقات أوسلو التي اعتبرها خطأً فادحاً. فضل سعيد حل الدولة الواحدة ما أدى لعزله ومنع تداول كتبه من السلطة الفلسطينية.

ضد تهمة إسرائيل تنتج عنصرية تجاه الفلسطينيين قال سعيد: إسرائيل ليست إفريقيا الجنوبية.

كثيراً من روايات سعيد نشرت في: لوموند ديبلوماتيك

من مؤلفاته:

- آلهة الذين ليسوا آلهة.
- في المكان الخطأ.
- متوازيات ومتناقضات حول الموسيقى والمجتمع مع دانيل بارن بوم
- فرويد والغير أوروبي
- الثقافة والاستعمار
- الاستشراق
- Covering Islam Vintage

ملحن، معلم، ناشط[1]

ادوارد سعيد المتوفي في ٢٠٠٣/٩/٢٥ يجسد المثقف الذي في الواقع لم يعد موجوداً منذ زمن. سعيد كان معلماً عالمياً وناشطاً سياسياً بروح عالية ومناضلاً نشرت مؤلفاته العلمية والسياسية في الولايات المتحدة، في أوروبا وفي العالم العربي. مؤلفاته التي ترجمت إلى ست وثلاثين لغة هي رمز المثقف التقدمي سواء في الغرب أو في العالم الثالث بينما جعلته لدى المثقفين المحافظين والسياسيين في كل أنحاء العالم مكروهاً.

تأثير سعيد العالمي لا ينبع فقط من قدرته الثقافية العالية، بل من صدفة أصله.

ولد في عام ١٩٣٥ في القدس عن أب مسيحي فلسطيني الذي كانت القاهرة مركز ثقل عمله.

العاصمة المصرية وقعت حينذاك تحت تأثير الإمبراطورية البريطانية. تربية الطفل وجعله سيداً (جنتلمان) كان هدف الطبقة المتميزة التي تنتمي لها عائلته. أساليب المدارس الإنكليزية في التعليم لم تكن لتبعث فيه السرور كما روى في كتابه: في المكان الخطأ. لكن التربية الإنكليزية على ما يظهر طبّعته

1 مقالة من (الانترنيت) لـ: ريستان يوما نشرت بمناسبة وفاة ادوارد سعيد Christian Ujma

حيث لم يـر الـرأي العـام الإنكليـزي في مقالاتـه وكتبـه تـدخلاً مـن الخـارج. في برنامج رايت ليكترز Rieth Lectures الذي يحوز على مرتبة عالية لـ: ببس BBC نشر تحت عنوان: Repersentations of the Iterllectual

في عـام ١٩٩٣ صـورة عـن مثقـف يتميـز عـن العـصر ويـرى مكانـه بـين المستضعفين المضطهدين.

المثقف بالنسبة له هو من يقف على هامش المجتمع، دون أي وطن، لاجئ. يرى في ادورنو Adorno فيلسوفاً ألمانياً قدوة له يحظى باحترامه.

إلى جانب ميشيل فوكولت Michel Foucault كان انتونيو غرامسكي Antonio Gramsci وريموند ويليامس Raymond Williams مَثَله.

تأثير الماركسية الأدبية الغربيـة واضـح في كتاباتـه تختلـف عـن التوجهات الأكاديمية الألمانية حيث يبتعد سعيد عن النمط القصصي.

فقـدان الـوطن لـسعيد كـان أسـاس وجـوده. بعـد دراسـته في الولايـات المتحدة دَرَّس وحتى وفاته علوم الآداب في جامعة كولومبيا في نيويـورك الـتي لم يـشعر فيهـا يومـاً أنـه في وطنـه. نجمـه كمثقـف سياسـي بـدأ متـأخراً لكـن بنجاحات كبيرة على مختلف الجبهات.

بسبب هزيمة حرب الـ: ١٩٦٧ اكتـشف سـعيد جـذوره الفلـسطينية وتحـول إلى محامي القضية الفلسطينية. في عام ١٩٧٧ كـان عـضواً في المجلس الـوطني الفلسطيني. لم يكن فقط مستقلاً بل قاوم الانتساب لأي من الجناحات القوميـة المختلفة وبقي لهذا رمز المثقف الفلسطيني.

ثم أصبح ناقداً قوياً لياسر عرفات ما أدى لمنع تداول كتبه في مناطق الـسلطة الفلسطينية. لكن ذلك لم يقف أمامه عائقاً لنقد شديد للاحتلال الإسرائيلي.

بـروزه كعـالم ثقـافي وأدبـي كـان علـى أعلـى مـستوى بظهـور كتابـه (Orientalism).

في عام ١٩٧٨ الذي حاز على شهرة عالمية وكتب تاريخاً وجعل سعيد ذا شهرة عالمية.

بالنظرة الأولى وبالنظرة الثانية لم يبد الكتاب وكأنه غيَّر العالم لكنه بحث علمـي يغـير مـن الفكـرة عـن الـشرق الراسـخة لا تتناسـب مـع واقـع الـشرق باختلافاته واختلاف مجتمعاته وترسباتها.

لكـن المـستنتجات الآتيـة مـن القـرن التاسـع عـشر الإيديولوجيـة لازالـت سـائدة لليـوم كمـا يـرى سـعيد والـتي تـصور الـشرق كقطـب مـضاد للغـرب، متخلف، غريب، وخطر.

نجاح كتاب Orientalism يرينا واقعية ملحة ضرورية لطـرح الـسؤالات. بعـد سـنوات قليلـة تحـول الكتـاب إلى مرجـع عـالي الأهميـة وكـان مقدمـة في الولايات المتحدة وبريطانيا لدراسات:

(ما بعد الاستعمار Postcolonial Studies) التي انتهجت نهجاً عنيفاً لا يتحمل سعيد مسؤوليته. هو نفسه في كتابه: ثقافة واسـتعمار Culture and Imperialism الذي ظهر ١٩٩٣ بتحليله الدقيق لـ: يوسف كـونراد Joseph Conrad قدم البرهان أنه يمكن اتباع طرق أخرى.

في روايتـه: Orientalism Reconsidered مـن عـام ١٩٨٦ يتعـرض لتفـسير ضـيق لكتابـه Orientalism مـستنداً للمدرسـة الفرانكلورتيـة لــ: إرنست بلوخ Ernst Bloch بعدم وقتية التحليل.

العلوم الأدبيـة الألمانيـة شـعرت بنفـسها حتـى ذلـك الوقـت مـا بعـد العـصر الاسـتعماري غير مؤهلة. القول أنه لم يكن لألمانيا دور استعماري يُقبل جزئياً.

عدم التميز الكامل للمغتربين الأتراك والثقافة الشرقية سائداً في ألمانياً بشكل لا يتقارب على ما هو الحال في بقية الدول الأوروبية.

في حرب العراق ظهرت الصور المترسخة عن الشرق في المحطات الفضائية والزوايا الأدبية في الصحف في صحوة جديدة كما هو الحال في موضوع الحجاب.

سعيد لم يكن مثقفاً وسياسياً فحسب بل توجه في سنواته الأخيرة إلى أحب هواياته الموسيقى.

في شبابه كان عازف بيانو وبقي على هذا الوضع طيلة حياته رغم نشاطاته المتعددة.

معاً مع دانيل بارن بوم Daniel Barenboim أسس أوركسترا عربية - يهودية[1] ومنهما معاً ظهر كتاب Parallels and Paradoces, Exploratioins in Musik and Soniety من إنجازات سعيد قليلة الشهرة وغير قليلة الأهمية حول موسيقى وأوبرا بل كتاباته عن الموسيقى وعن الملحنين. رغم مرض اللوكيميا الذي كان يعانيه، شارك في ندوات عن حرب العراق في شتاء وربيع ٢٠٠٣ بحجج موضوعية متميزة قوية ما نفتقده في الندوات التناقشية في ألمانيا.

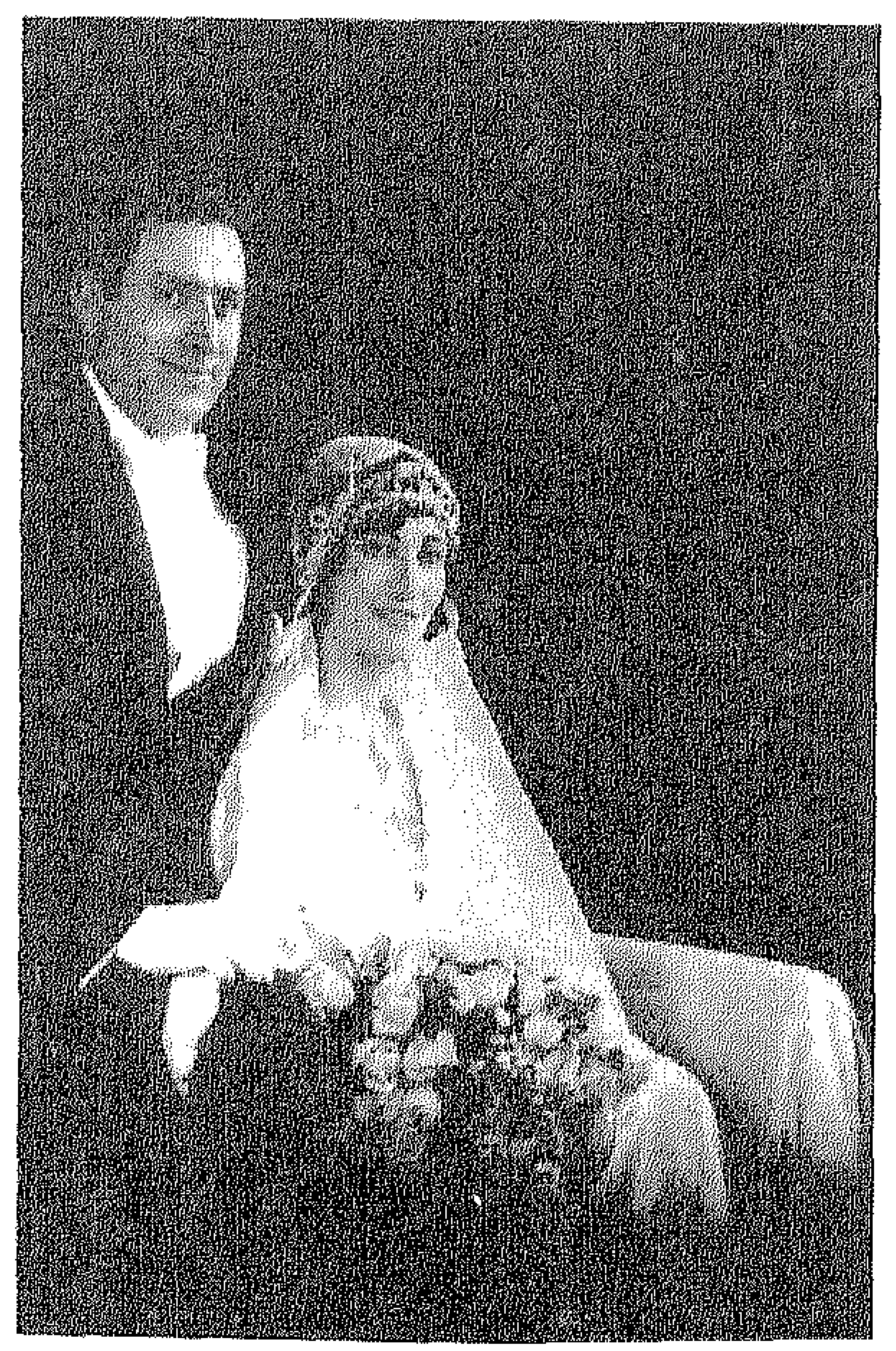
الدفع العام لسعيد استناداً لكتابه Orientalism Reconsidered يتجلى في دعوته أن لا تنحصر العلوم في نطاق اختصاصي معين بل عليها أن تتجاوز الحدود ولا يعني الحدود السياسية والجغرافية أو الثقافية بل بين السياسة والعلوم مشيراً إلى غرامسكي Gramsci وليس إلى ضيق أفق ماركس قائلاً أن المهم ليس تحليل العالم بل تغييره.

1 في عام ١٩٩٩

ملحق الصور



والدي وديع سعيد كعسكري أمريكي
في فرنسا ١٩١٧
تحت إمرة الجنرال بيرشينغ.

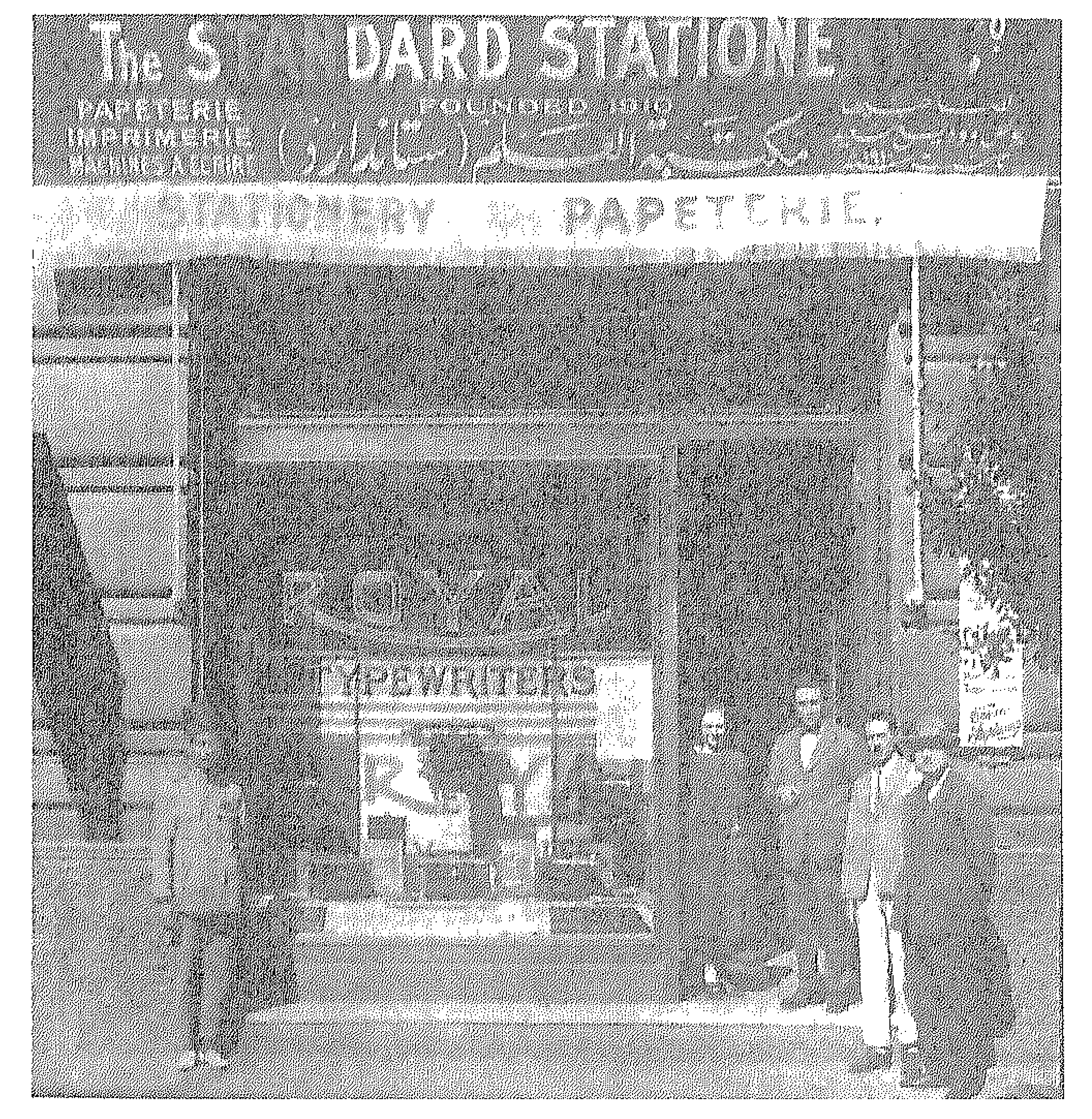


زفاف والداي وديع وهيلدا في
الكنيسة البابتيستنية في الناصرة
عام ١٩٣٢.



والداي في رحلة شهر العسل في لندن عام ١٩٣٣.

نظرة خاجية للفرع الرئيسي القاهري لـ: «استاندرد شتاسيوناري كومباني» لوادي في شارع الملكة فريدة. في المدخل والدي بربطة العنق «بابيون» وعلى يمينه «آنا مانديل» سكرتيرته عام ١٩٣٢.





منظر داخلي للشركة.
والدي بالبدلة البيضاء وخلفه «لامباس» المدير.



والدتي وأنا بعمر سنة في حديقة «مينا هاوس».



مع والدي على شاطئ الاسكندرية ١٩٣٦.

عمتي «ميليا» في القاهرة في الثلاثينات، دوماً بالقبعة على الرأس.

أنا أبرز مواهبي الموسيقية بقيادة فرقة موسيقية على بلكون منزلنا في شارع عزيز عثمان.



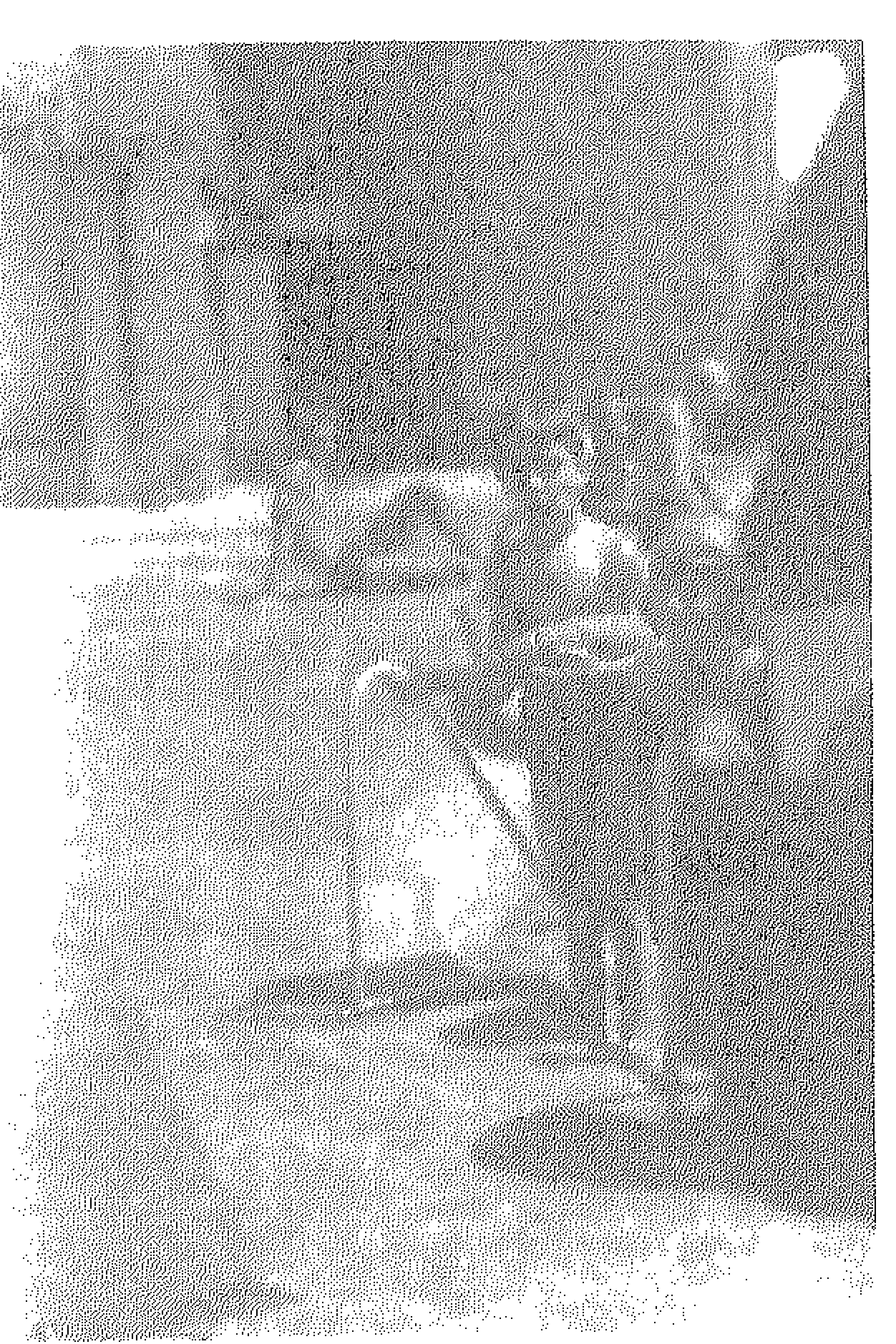
أثناء نزهة عائلية إلى الجيزة عام ١٩٣٩، عند الأهرامات في الصف الأمامي من اليسار إلى اليمين «أولاد العم جورج وربرت وأنا وإلبرت» في الخلف «إيفيلين ويوسف»

نزهة عطلة أسبوع إلى حدائق «براغاس» شمال القاهرة مع عائلة والدتي موسى ١٩٣٩.
الصف أول من اليسار إلى اليمين «روزي شكري موسى لطيفة مع مروان على ذراعها وزوجها منير هيلدا ألبرت روبرت ووديع»





العمة نبيهة مع اولادها روبرت وألبرت في فلسطين عام ١٩٣٩ .



أنا بعمر خمس سنوات أمام حوض سباحة في نادي المعادي ١٩٤٠ .



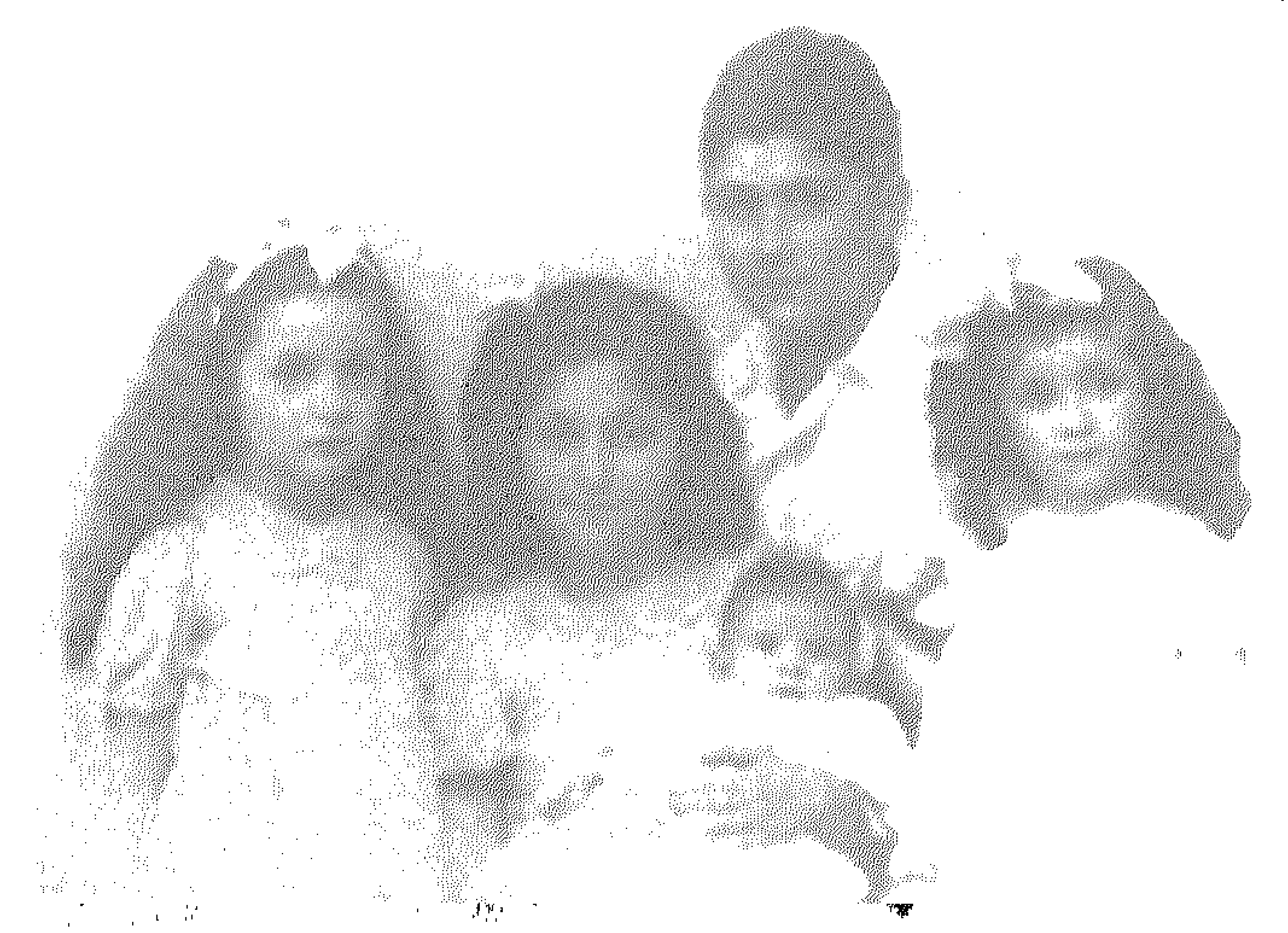
أنا وأختي روزي في لباس فلسطيني تقليدي في القدس عام ١٩٤١.



أنا وروزي في زي المدرسة «الجزيرة روبرتاري سكول» على بلكون منزلنا في السابعة من عمري.



عائلات سعيد ومنصور أبناء عم والدي من الدرجة الثانية لآخر مرة معاً في بيت منصور عام ٤٧/٤٦ قبل أن نُشرد إلى مختلف بقاع الأرض.



في القدس ٤٧/٤٦ جين روزي وأنا في الحادية عشرة وجويس والرضيعة غريس.

شهادة مدرسة GPS موقعة من المدير بوللين.

GEZIRA PREPARATORY SCHOOL

JUNIOR DEPARTMENT

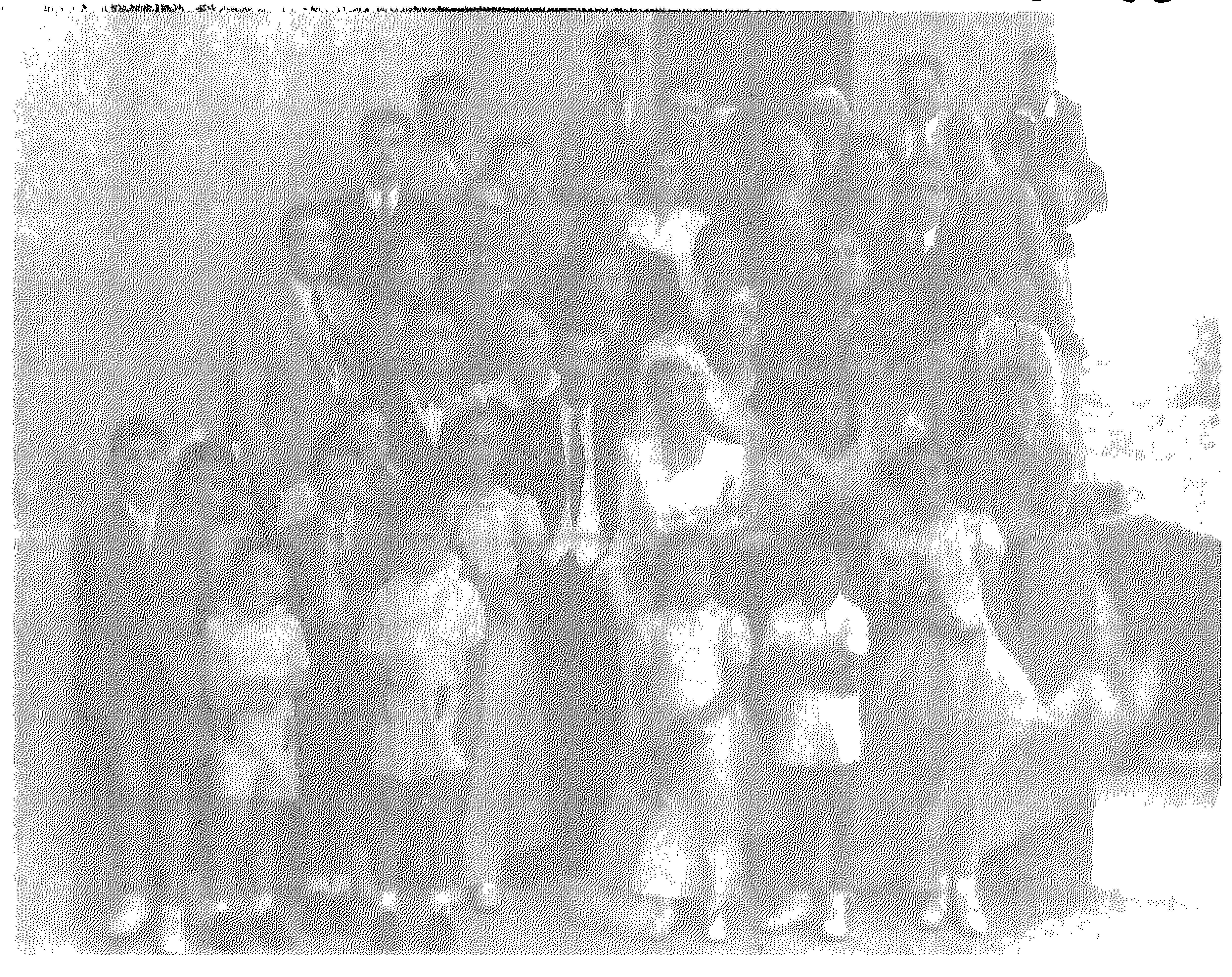


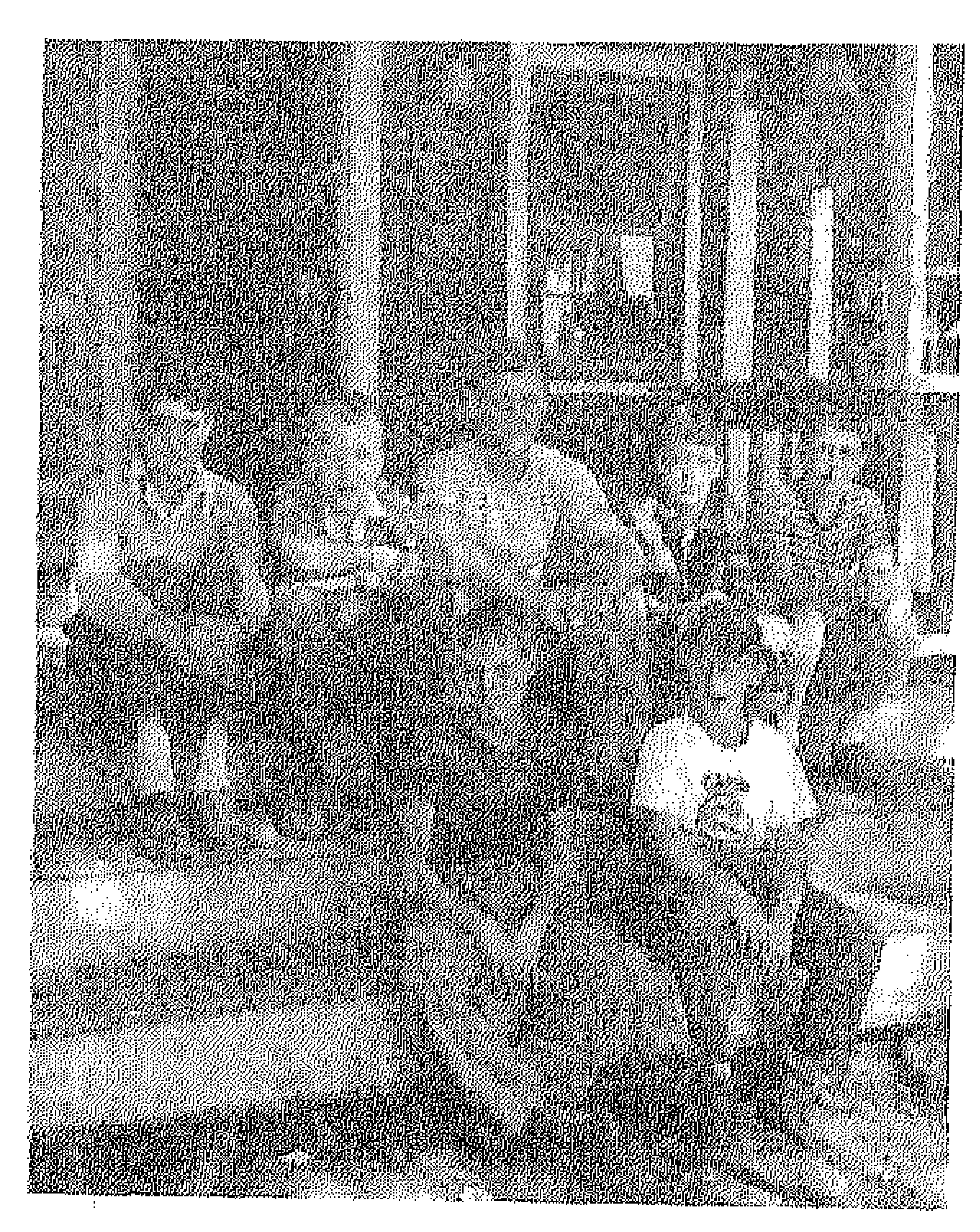
على الأرجوحة في «عين النعاس» قرب «ضهور شوير» في مقهى ٤٥/٤٦ «روزي وجين وأنا بالخلف الخادمة إنصاف».



أمام كنيسة «سان جورج» في القدس في مناسبة زفاف ابن العم «جورج سعيد» في ١٤ نيسان ١٩٤٧ في الأمام من اليسار إلى اليمين «ألبرت أنا روبرت» في الخلف «العم أسعد، ابن العم يوسف، وديع».

زفاف أكبر أخ لوالدتي «آليف موسى» في حيفا عام ١٩٤٦، جدتي منيرة تضع حطة على رأسها وتقف خلف العريس.

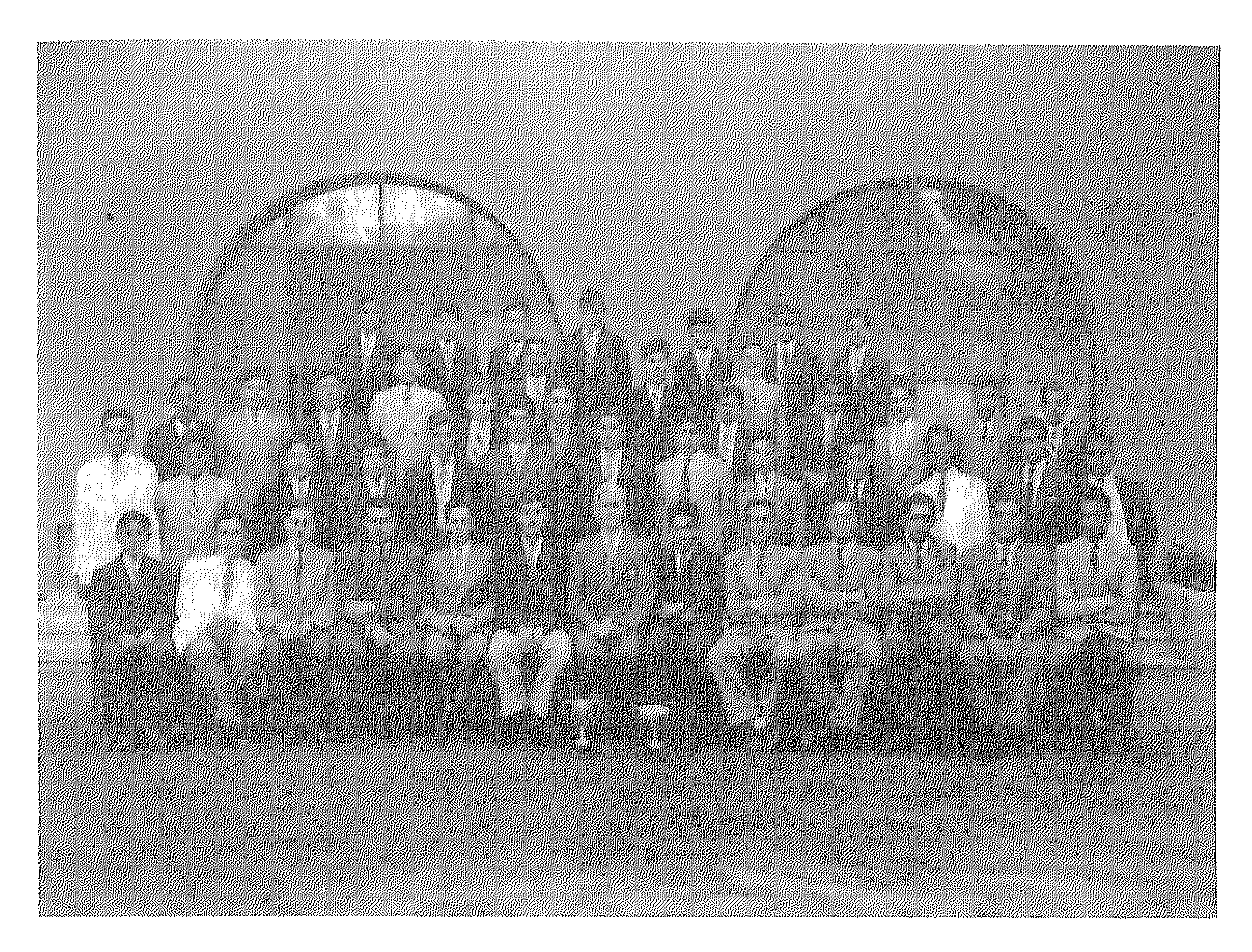




في مخيم «ماراناكوك» ١٩٤٨
أجلس في الصف الخلفي الأول إلى اليسار .



دوكتور فريد حداد وزوجته آدا في زفافهم في القاهرة عام ١٩٤٩ .



صورة لمنزل «كيشنار» في معهد فكتوريا ١٩٥٠ أنا السادس من اليسار في الصف الثاني.

VICTORIA COLLEGE
CAIRO
UPPER SCHOOL

شهادة معهد فكتوريا عام ١٩٥١ على إتقاني اللغة الإنكليزية موقعة من المدير «غريفيتس» الذي طردني في شهر شباط من العام نفسه.



أنا في «نيويورك» آذار ١٩٥١.



مع والدي في الحفل الختامي لمعهد «ماونت هيرمون» ١٩٥٣.



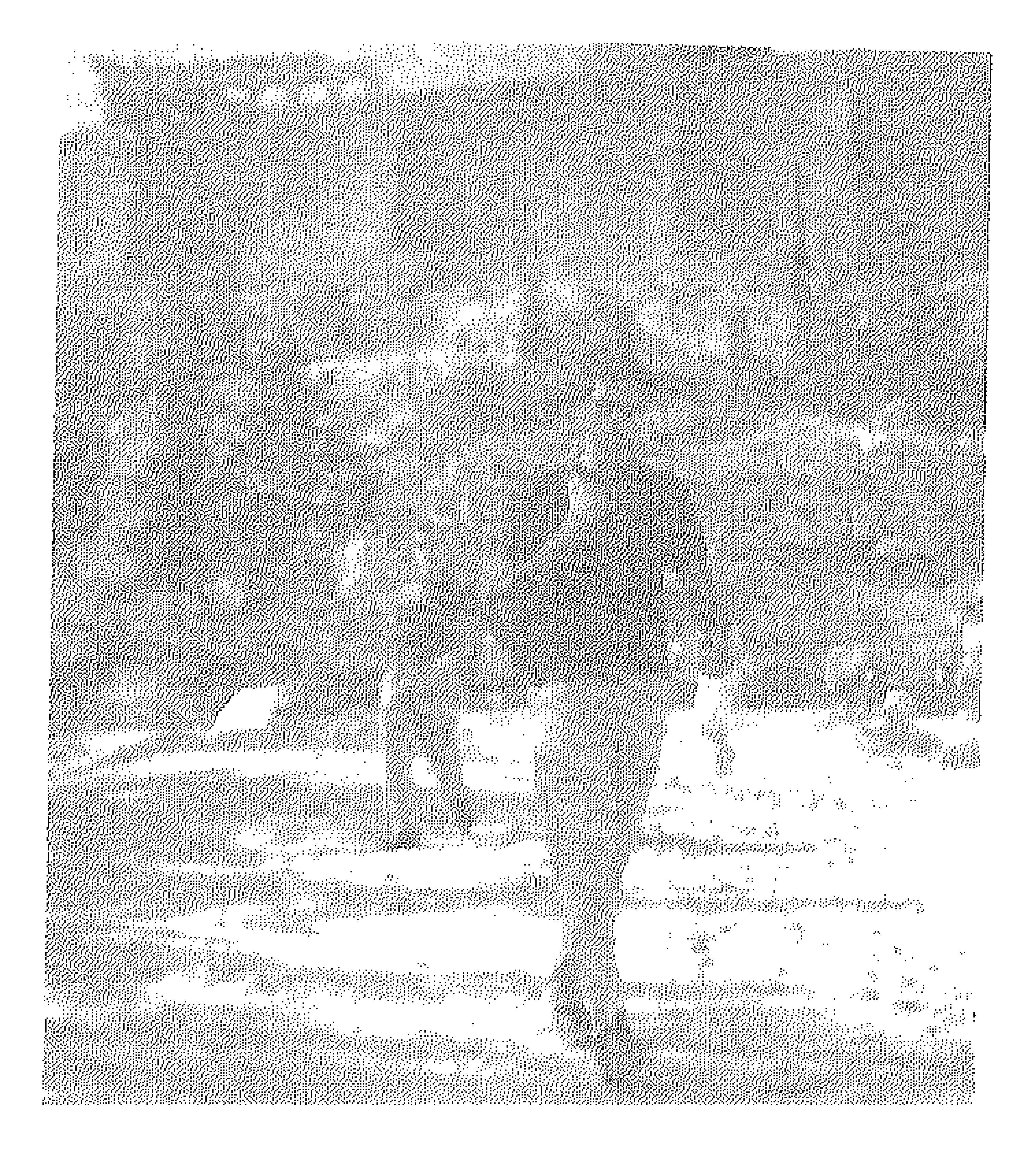
أثناء سفرنا إلى «نيو إنغلاند» بمناسبة تخرجي مع والدي وابن أخ والدي «شارلي» على اليسار و«آبي» على اليمين.



حفل ذكرى زواج والداي الفضي (٢٥) عاماً القاهرة كانون الأول ١٩٥٧ . في الأمام جويس والدتي هيلدا والدي وديع جريس، في الخلف أنا روزي وجين



١٩٥٩ أرافق «عفيف بولص» في غينا في قاعة «بين» على البيانو في جامعة «هارفارد»



في صيف ١٩٦٠ بينما كنت أحضر دكتوارة في جامعة «هافارد» أمام «الأكروبوليس» في زيارة لأثينا.

١٩٨٢٠ في زيارة لـ«ضهور شوير» لبيتنا منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٦٩ يبدو فيه اختراق صاروخ لغرفة النوم أثناء الحرب اللبنانية الأهلية.



كتاب في سطور

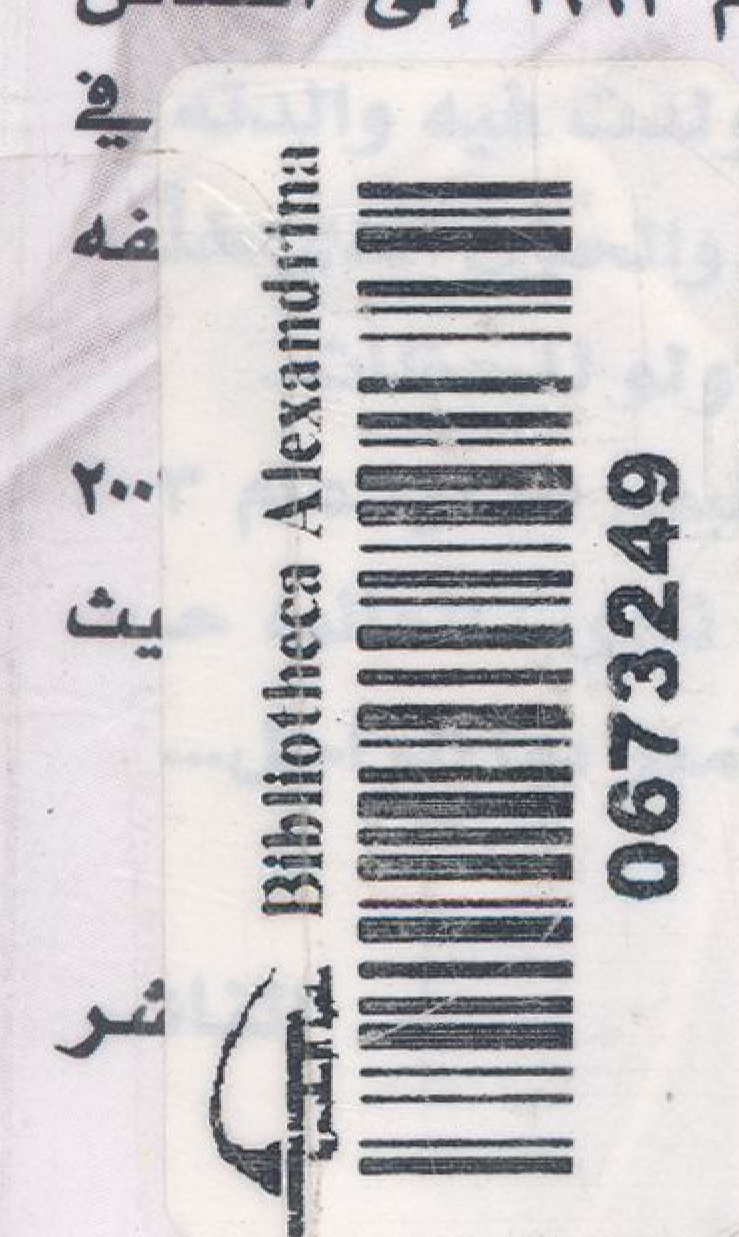
في المكان الخطأ... مذكرات تفصيلية عن عالم ضائع منسي، دوَّنه الدكتور الفلسطيني إدوارد سعيد، بعد أن ألم به مرض خطير.. ترجمه الدكتور خالد غادري..

الكتاب سيرة ذاتية لخلجات نفس صادقة وطنية، أراد تصوير جزيئات حياته بكل دقة وأمانة، بالنظر لما تخللها من ترحال.. وسفر.. ومنفى واغتراب متنقلاً من القدس إلى القاهرة وهو طفل، ومن ثم إلى لبنان والولايات المتحدة، يحمل في ذاكرته صور أصدقاء ومعارف وزملاء؛ كشاهد عيان على كل مرحلة.

يوثق الدكتور إدوارد سعيد خلجات الوطن في روحه والتي لم تستطع الهوية الأمريكية انتزاع جذوره من تراب القدس.. بدأ من مولده في القدس الغربية عام ١٩٣٥، ومولد والده ووالدته، مروراً بأحداث الحرب العالمية الثانية، وضياع فلسطين بإقامة (اسرائيل).. ونهاية الملكية في مصر.. وزمن الراحل جمال عبد الناصر، كما توقف عند الحرب المشؤومة عام ١٩٦٧، ومن ثم انطلاق المقاومة الفلسطينية.. ولم ينسَ الحرب الأهلية في لبنان.. كل هذه الأحداث لعبت دوراً كبيراً في حياة المؤرخ إدوارد سعيد، من طفولة حزينة مشردة، إلى عالم الشهرة والتميز، والتأليف..

دوّن بحروف من شوق زيارته الأولى عام ١٩٩٢ إلى القدس الغربية والبيت الذي ولد فيه، والبيت الذي و... في الناصرة وبيت عمه في صفد.. لكن شدة الأسى ... فه قاطنو هذه الأماكن، حال دون الدخول إليها ...

غادر الدكتور إدوارد سعيد المؤرخ الفلسط... ٢٠٠٣ بعد أن ترك إرثاً ثقافياً كبيراً؛ جعل شهرته ... حيث تتبين المواقف الثابتة والحكمة والجرأة التي ...



الناشر

في المكان الخطأ مذكرات إدوارد سعيد

إدوارد سعيد
ترجمة: خالد الغادري
في المكان الخطأ
مذكرات إدوارد سعيد

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ص.ب: 34312
هاتف: 03 83 661 11 963+
تلفاكس: 15 09 666 11 963+

